

أبوالطيب الميمني

حياة وفلسفة وسيرة وإسهام

بقلم

محمد جمال حليم بك

سكرتير ديوان كبير الامناء
ليسانيه في الحقوق
ديپلوميه في العلوم الجنائيه

سنة ١٣٣٩ هـ - ١٩٢١ م

إهداء من مكتبة جامعة القاهرة
(بشارع عبد العزيز خلف جامع العظام)



0170244

Bibliotheca Alexandrina



اهداءات ٢٩٩٩

مكتبة

ا.د عبد الحميد بدوي

القاضي بمحكمة العدل الدولية

ابواب المينى

حياة وخلق وسيرة وآثار

بقلم

محمد كمال حليم

سكرتير ديوان كبير الامناء
ليسانيه في الحقوق
ديبلميه في العلوم الجنائيه

سنة ١٣٣٩ هـ - ١٩٢١ م

الدار المطبوعه والنشره
بمصر

(بشارع عبد العزيز خلف جامع العظام) -

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وبه ثقة ————— تى ————— والمصطفى وسياتي

مقدمة

قال (ابن رشيق) شيخ النقدة في كتابه (العمدة) :
« ثم جاء المتنبي فملأ الدنيا وشغل الناس »
هذانص من نصوص فن النقد لا يليق بالمنتسب الي الأدب ان يمر به دون
ان يقف حياله ووقفه المتدبر كما يفعل الفقيه الووع حيال نصوص الفقه واحكامه -
ان حجة النقاد الذي انتهت اليه الزعامة في تقدير الشعر لا يصدر مثل هذا
لحكم المقتضب فيعطى هذه المكانة للمتنبي الابعدا معان في النظر . فلنتفهم
هذا النص على مقتضى ما بأيدينا من الأسانيد والأخبار واقوال الثقات لنتعرف
كيف ان المتنبي ملأ الدنيا وشغل الناس
قال ابن خلكان في ترجمة ابي الطيب : « واعتنى العلماء بديوانه فشرحوه ،
وقال لي احد المشايخ الذين أخذت عنهم : وقفت له على أكثر من اربعين شرحا
ما بين مطولات ومختصرات »

وفي الصبح المنبى : « فن شروحه كتاب ابن جنى وهو أول من شرحه .
 وكتاب اللامع العزيزى وكتاب معجز احمد لأبى العلاء (المعري) . وكتاب ابى
 الحسن على بن احمد الواحدى . وكتاب الموضح لأبى زكريا التبريزى . وكتاب عبد
 القاهر الجرجانى . وكتاب ابى منصور محمد بن عبد الجبار السمعانى . وكتاب
 ابى القاسم ابراهيم بن محمد الافليلى . وكتاب ابن الحاج يوسف بن سليم الاعلم .
 وكتاب عبدالرحمن بن محمد الأنباري . وكتاب في سرقات المتنبي للحسن بن محمد
 بن وكيع ، وسماه بالمنصف . وكتاب ابى البقاء عبدالله العكبرى . وكتاب ابى اليمين يزيد
 بن الحسين الكندى . وكتاب عبدالواحد بن محمد بن على بن زكريا . وكتاب محمد بن
 على بن ابراهيم الهراستى الكافى . وكتاب ابى الحسن محمد بن عبدالله الدلقى ، عشر
 مجلدات . وكتاب كمال الدين بن القاسم الواسطى . وكتاب الوساطة ، للقاضى ابن عبد
 العزيز الجرجانى . وكتاب ابى بكر محمد بن العباس الخوارزمى . وكتاب عبدالرحمن
 ابن دورست . وكتاب ابى الفضل احمد بن محمد العروضى . وكتاب التجنى على ابن جنى ،
 (وكتاب الفتح على ابى الفتح) لابن فورجة . وكتاب معانى ابياته ، لابن جنى . وكتاب
 التنبيه لأبى الحسن على بن عيسى الربيعى ، وقد رد فيه على ابن جنى . وكتاب ابى
 القاسم عبد الله بن عبدالرحمن الاصفهانى . وكتاب الحسين بن محمد بن طاهر الشاعر .
 وكتاب ابى عبدالله محمد بن جعفر القزاز القيروانى . وكتاب على بن جعفر بن القطاع .
 وكتاب الصحاح ابى القاسم اسماعيل بن عباد . وكتاب ابى الحسن عبدالرحمن الصقلى .
 وكتاب قصائد الصبا للأعلم . وكتاب نزهة الأديب ، في سرقات المتنبي من حبيب ،
 لابن حسون المصرى . وكتاب الانتصار ، لأبى الحسن احمد المغربى . وكتاب التنبيه
 على رذائل المتنبي . لأحمد المغربى ايضا : وكتاب بقية الانتصار ، المكمل من
 الاختصار ، لأحمد المغربى ايضا . وكتاب الرسالة الحاتمىة ، لأبى الحسن محمد بن مظفر
 الحاتمى . وكتاب جبهة الأديب للحاتمى ايضا . وكتاب الاستدراك على ابن الدهان ،
 لنوزير ضياء الدين بن الاثير الجزرى . وكتاب الابانة للصحاح العميدى ، سوى
 الشروح التى لم نسمع بذكرها » (ص ٤٢٣ وما بعدها ج ١)

وقد خلط المؤلف بين الشروح وغيرها من كتب النقد .

وستري في غضون هذا الكتاب صورة الانقسام والاختلاف بين أهل الأدب في قيمة شعر المتنبي . لقد تواري المؤرخ الكبير ابن خلدون في مقدمته المشهورة خلف مشايخه ونقل عنهم حكمهم بنفى شعر أبي الطيب من ديوان الأدب مع أن هذا المؤلف قد اثبت ، في نفس المقدمة ، شيئاً كثيراً من شعر البربر وغيرهم من العامة - وتعصب ابن الأثير الجزري لصاحبنا فكاد يجعله أشعر شعراء العربية

هذا ما كان من امر المؤلفات والضجة التي أحدثها شعر المتنبي بين المتأدبين أضف الي ذلك أنه أقام حول شخصه ضجة أخرى لا تقل أهمية عن الأولى: ادعاء نبوة ، وقرآن جديد ، وخصومات مع نظراء أقوياء ، وهجرة وان شئت فقل فرار من دولة الي اخري حتى طاف غالب بلاد الاسلام ، وكبر على امراء ووزراء كانت عداوتهم بمثابة اعلان له فزادوا من شأنه رفعة - ولا نقول انهم رفعوا شأنه بعد ضعة او أذاعوا ذكره بعد خمول - لأنه ان لم يكن من أول الأمر ذا مكانة وفضل لكانت عداوة الوزير المهلبى ، مثلاً ، أو عداوة الصاحب ابن عباد ، أطفأت اسم المتنبي ، وذلك لما كان لهما من الفضل والأدب والجاه والسلطان .

لقد أثبتنا في احدي حواشى هذا الكتاب (ص ٦٧) صورة الوزير المهلبى في ساعات لهوه مع ندمائه من العلماء والقضاة وهم يتنعمون لحامم البيضاء في كؤوس الخمر ثم يرش بعضهم البعض بما بقى منها - والانصاف يقضى علينا أن نثبت هنا صورة اخري تمثل الرجل في أدبه وقوة تصرفه وحضور ذهنه - يقول الثعالبي صاحب (يتيمة الدهر) في ترجمة هذا الوزير : « كانت حالته قبل الاتصال بالسلطان حال ضعف وقلة وكان يقاسى منها قذى عينه وشجى صدره فبينما هو ذات يوم في بعض اسفاره مع رفيق له من أصحاب الحراب والمحراب الا أنه من أهل الأدب اذ لقي من سفره نصبا واشتهي اللحم فلم يقدر على ثمنه

فقال ارتجالاً

ألا موت يباع فأشترية فهذا العيش مالا خير فيه
 ألا موت لذيد الطعم يأتي يخلصني من العيش الكريه
 إذا أبصرت قبراً من بعيد وددت لو انني مما يليه
 ألا رحم المهيمن نفس حر تصدق بالوفاة على أخيه
 فاشترى له بدرهم واحد لهما فأسكن به قرمه وتحفظ الأبيات وتفارقا - وضرب
 الدهر ضرباته حتى ترقت حالة المهلبى الي أعظم درجة من الوزرة . . ووقع الرفيق
 تحت كل كل من كلاك الدهر . . فقصد حضرة وتوصل الى إيصال رقعة
 تتضمن أبياتاً :

ألا قل للوزير فدته نفسى مقال مذكر ما قد نسيه
 أنذكر اذ تقول لضحك عيش ألا موت يباع فأشتريه ؟
 فلما نظر فيها تذكره وهزته أريحية الكرم للحنين اليه ورعاية حق الصحبة
 فيه . وأمر له في عاجل الحال بسبعائة درهم ووقع على رقعته « مثل الذين
 ينفقون اموالهم في سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل في كل سنبله مائة
 حبة والله يضاعف لمن يشاء » . - ثم دعا به وخلع عليه وقلده عملاً .
 أما الصاحب ابن عباد ، ذلك الوزير ، الكاتب ، الشاعر ، المقصود الجناب ،
 فلا أزيدك في وصفه على أن أنقل اليك ما قاله ابن خلكان عن وفاته : « لما
 توفي أغلقت له مدينة الري واجتمع الناس على باب قصره ينتظرون خروج
 جنازته . وحضر مخدموه نحر الدولة أولاً وسائر القواد وقد غيروا ملابسهم
 فلما خرج نعشه من الباب صاح الناس بأجمعهم صيحة واحدة وقبلوا الأرض
 ومشى نحر الدولة امام الجنازة مع الناس وقعد للعزاء أياماً »
 هذان خصمان من خصوم المتنبى العديدين - فرجل لا حول له ولا قوة
 تهب عليه هذه العواصف ولا تلقيه صريعاً بل تتلاشى من أمامه ويبقى هو
 كالصرح الممرد ، ما احري به وبخصومه أن يصوروا بتلك الصورة البليغة :

« أما الزبد فيذهب جفاء ، وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض »
 فبعد هذا البيان لا اخلاص تتمم (ابن رشيق) بأنه يكيّل التقريظ بغير حساب

قال أحد زعماء الصوفية الشيخ محيي الدين بن العربي :
 لقد كنت قبل اليوم انكر صاحبي اذا لم يكن ديني الى دينه دان
 وقد صار قلبي قابلا كل صورة فرعي لغزلان ودير لرهبان
 وبيت لأوثان وكعبة طائف وألواح توراة ومصحف قرآن
 هكذا كان شأننا فيما مضى في دراسة الأدب وتاريخه ، وهكذا أصبح
 شأننا ، وقد رمينا بأبصارنا الى غير ما بأيدينا - كنا نقنع بطرائقنا القديمة من
 شرح واعراب . وكنا نعجب بما قال شعراؤنا من مديح وهجاء . فاذا بنا اليوم
 نطمع أن نكشف عن كنوز دفينّة لا بد لنا من وسائل جديدة لاستخراجها
 واذا بنا نريد أن نتعرف تلك الوجوه ونتفهم تلك النفوس وتتغلغل الى صميم
 تلك الضمائر : زيد أن نقف على حقيقة الشاعر او الناثر طفلا وياقماً ، محصلاً
 متعلماً ، وكهلاً مرتزقاً ، معلماً ومرشداً - يعز علينا ، ونحن في عصر « اشتراكية
 فكرية » - انصحت هذه التسمية - أن نرى أمثال « دانتى » و « شكسبير »
 و « هوجو » و « جوت » تغزى اليهم القواعد الهدائية والمذاهب الاجتماعية
 والمرامي الفلسفية والاكتشافات النفسية ولا نعرف عن نظرائهم في لغتنا الا
 أنهم مداحون هجاؤون

لكثير من المتأدين عندنا اليوم نظرة ازدراء الى شعر المديح ويبالغ بعضهم
 فيسميه « شعر المتسولين » اغراقاً في الخط من شأنه - الا أننا لا نسلم لهم بكل
 ما يدعون . فليغربلوا هذه الأشعار وليخرجوا منها ما قاله الشاعر طلباً للرزق
 ثم ليستجلبوا نفس الشاعر من شعره وليتبينوا منازعه من خلال أقواله وليحللوا
 تلك الاشارات التي تتم عن مراميه وخفيات ضميره - فان هذا القليل ربما
 أوصلهم الى كثير يرفع من قدر شعرائنا في نظرنا وفي نظر غيرنا

على مقتضى هذه القواعد الأولية سرنا في وضع هذا الكتاب . ولا ندعى أننا جئنا بالبراهين القاطعة والأدلة الساطعة والحجج البالغة والبيئات الدامغة ! ولكننا نزعم أننا وفقنا الى تعرف الرجل قبل ان نتعرف شعره فاستعنا بواضح أمره على تلمس خفي سره ، وعيننا باستجلاء طرائقه وأساليبه أكثر مما قصدنا الى تفسير غريب الفاظه ومغلق تراكيبه - ولعل تلك القرائن التي هداها اليها الاستقراء تصبح يوماً ما في عداد الحقائق

الا ان بعض المشتغلين بالآداب عندنا لا يرضون بهذه النتائج القليلة وانما يريدون ان يصلوا طفرة الى الكمال المطلق في مباحثهم، فسكتوا وسكت غيرهم خوفاً من ظهور النقص في اعمالهم ونسوا ان الكمال لله وحده - نخوف النقص أبقى الآداب في النقص، وما أشبه هذه الحال بقول احد حكماء الاسلام « الناس من خوف الفقر في الفقر ومن خوف الذل في الذل » - ولا بد من فتنة يثيرها تنازع البقاء بين القديم والحديث - فبقليل من الاقدام من جانب البعض ويسير من التسامح من جانب البعض الآخر تهدأ العاصفة !!! ذلك هو الدواء الذي اقترحه على اساءة الادب ولعل فيه الشفاء ان شاء الله

بقاء شعر المتنبي . - أحق أن مدائح المتنبي في الامراء ورؤساء الزمان هي التي رفعت من شأنه وخلدت ذكره ؟ ام كانت نعمة تزاحمهم على استضافته هي التي أغرت به حساده ونظرآءه فاجهدوا قرائحهم في تلمس عوراته وسقطاته ؟ - مسألة فيها نظر

انه اكتسب انصارا وعشاقا لشعره من بين العامة والجماهير لامن بين الامراء والرؤساء ولامن بين الادباء والشعراء - الا القليل - . كانت طريقته في التأليف احبولة يتصيد بها المطلع على شعره فيكتسبه لنفسه، يورد عليه ما يعرف وما يحب وما يطلب، فمثله في ذلك كمثل التاجر الكيس يجتهد في أن يبيع الناس ما يريدون فتحبب اليهم من هذا الباب اذ أعطاهم ما يشتهون . - لأنه في شعره ربما

كان يعمل لنفسه ليرضيها فأرضى نفوسهم تبعا .- يقول في إحدى ساعات كآبته
وقد ضل سعيه في الحياة « ما كل ما يمتنى المرء يدركه » فمن ذا الذي لا يشاطره
رأيه وعاطفته ؟ ثم يزيد دليلا جديدا بتشبيهه ظريف فيزف السلوى الى القلوب :
« تأتي الرياح بما لا تشتهي السفن » - بهذا التقرب الى الناس يزيد في العروة
توثيقا وفي الصلة توكيدا - أجل انه شاركهم في آمالهم وآلامهم وصور علة
اخلاقهم وامراض قلوبهم ووصف لهم علاج ادوائهم - وكأننا أخذ على نفسه
ان يترجم عما في نفوسهم في كل ظروف الحياة . من اجل ذلك أقبل الناس
على شعره واكثروا من الاستشهاد به - وهذه مزية لم ينلها كثير من الشعراء
ان لم يكن هو الذي استأثر بها دون غيره

والحق ان اهل اللسان العربي قد وجدوا في شعر المتنبي من الاحكام والقواعد
الهدائية اكثر مما وجد فيه الممدوحون من النفاق المأجور

ان الشعر الذي يقال للمناسبات الطارئة يقضى عليه بانقضاء الظروف التي
قبل فيها ، بخلاف الشعر الذي توحىه النفس حين تتجلى لها الحقائق الخالدة ،
و حين تثبت الى الضمائر ما تكنه نظائرها من الميول والعواطف والخواطر والأوهام
والخيالات التي فطر عليها الناس كلهم جميعا ، ولا سيما اذا كان للعقل المفكر نصيب
الى جانب الوجدان المتأثر . لأنه من الصعوبة بمكان أن يصل الشاعر في صناعته
الى حيث يستطيع ان يمسك الحكمة بيمينه والشعر بيساره ويعقد بينهما عقدة
التآخي والمصافاة . فان فعل فقد أنبت في روض الأدب ثمرات يانعات

ان عنوان القصائد في ديوان المتنبي - وفي ديوان غيره من الشعراء - تسمى
كثيرا الى أشعارهم . اذا رأى القارىء عبارة « قال يمدح » أو « قال يهجو »
ربما أهمل القصيدة ترفعا عن سماع التلميق والرياء ، أو ضنا بكرامة نفسه عن
محضر الشتائم والسباب . ولعمرك اى لذة او فائدة يحصل عليها المطالع اذا تصور
رجلا يتزلف الى ممدوح ويوسعه كذبا وبهتاننا ، او ينهال على خصم بكل فاحش
من القول ، دون ان يكون لذلك المطالع نصيب من جهده يرضى به نفسه ذلك

الارضاء المقصود من قراءة الشعر ، من طأ نينة للروح أو فكاهة أو تسلية أو موعظة حسنة ؟

والظاهر أن شعر الرجل لم يبق الا لأن مدائحها واهاجيه ليست في الحقيقة الا جزءا يسيرا بالنسبة الي مجموع شعره - انك تجده على الدوام يخاطبك . فهو يلتقى كلمة التزلف الى اميره أو يرشق خصمه بالتهمة المؤلمة ثم يلتفت اليك فيعطيك قسطك من العبرة أو الحكمة ، من أجل ذلك لا تشعر بالوحشة منها اشتغل عنك بمدح أو هجاء

فلا تنظر الى عنوان قصائده لأنها لا تعرف من عنوانها على رغم المثل القائل « يعرف الكتاب من عنوانه »

ويحسن بنا قبل أن نسوق اليك تفاصيل هذا الكتاب ان نعرض عليك منه صورة مجملة ، تكون بمثابة خلاصة للمبحث أو مفكرة ربما تعود اليها اذا انتهيت من قراءته :

ابو الطيب المتنبي - او «المتنبيه» كما يسميه المغاربة - كوفي المولد (سنة ٣٠٣ هـ) وضع المنبت ، عربي الأصل ، يتعصب للعربية ويطعن في الأعاجم قبل اتصالهم . نشأ نشأة بدوية وحافظ على بداوته رغم تحضره . وفي البادية أخذ اللغة . وفي بادية السماوة وهو في العشرين من عمره قام بالدعوة المختلف في شأنها اكانت نبوة ام طلبا للفتح . وهل ادعاه هو او ادعاه عليه قوم آخرون . ولعلها كانت مرضاً عارضاً . والارجح انها كانت طمعا في دنيا يصيبها . - ويظهر انه قد حضته على خروجه ظروف تدعو الي الفتنة كاتقسام الامة على نفسها بتخادم العناصر والأجناس وضعف الدولة واضطراب امورها وظهور اصحاب البدع والمذاهب من كل نوع وشيوع التعاليم الغريبة عن روح الاسلام وضياع مهابة الخلافة بذهاب سيادتها الفعلية وانفراج مسافة الخلف بين الراعي والرعية وحيث القابضين على ازمة الامور من امراء وقواد ووزراء ناهيك بأوقات الحرج التي هيمن فيها الخدم

والنساء على شؤون الاسلام

تحكى كتب الأدب عن نبوة شاعرنا سيرا مختلفه وتروى له معجزات كان
يمخرق بها على اهل البادية فقد كان مضاء أقويا يسير من محلة الى محلة ويروي اخبار
الاولى عند اهل الثانية ويوهم ان الأرض تطوى له ، ويحبس المطر بضرب من
السحري - وينسب له قرآن في مائة عبرة واربعة عشرة عبرة لم يبق منها الا بضع سجعات
وقد سجن من جراء هذه الدعوة ثم اطلقه والى حمص بعد ان استتابه
ولا يعلم عن سجنه والمدة التي قضاها فيه والمعاملة التي عومل بها الا شيء
قليل. وله شعر قاله في حبسه يستخف في بعضه بالحبس، وهو اول ما قال فيه على
ما يظهر ، وبعضه استعطاف واسترحام ارسله الى الوالى ليخلى سبيله
وبعد خروجه من سجنه قنع بالشعر وجعله مورد رزقه وتردد على الامراء
في جهات الشام وقصد كثيرا من اعيان البلاد كالتنوخيين وابن طغج و بدر بن عمار
(س ٣٢٨) حتى انتهى الى أبي العشائر الحمداني ، والى انطاكية ، ومنه اتصل بسيف
الدولة الحمداني صاحب حلب . فأقام في ذراه وسجل ذكرى حروبه مع الروم
في شعر غزير المادة حافل بالفرائد النادرة - ثم قام بين ابي فراس الشاعر احد اقرباء
الامير وبين المتنبي نزاع شديد هدد مركز الشاعر عند اميره ، تبعه خصام مع
ابن خالويه النحوى خرج منه ابو الطيب مشجوج الوجه يسيل دمه على ثيابه .
فانصرف من حاشية سيف الدولة بعد ان قضى بها حوالى العشر سنوات (٣٣٧
- ٣٤٦) ثم اتصل بعد ذلك بكافور الاخشيدى مدبر امور مصر - وطمع
المتنبي في ولاية او منصب كبير عند كافور - ولما فشل مسعاه بعد أن طال انتظاره
- وكان بينه وبين الوزير ابن الفرات ، من قبل ، شيء في النفس - غادر مصر
هاربا ليلة العيد الاكبر بعد ان مكث بها من سنة ٣٥٦ الى سنة ٣٤٠ وقصد
الكوفة موطنه الاصلى . وكان يتردد بينها وبين بغداد (٣٥٠ - ٣٥٣)
واغضب كبراء بغداد باغضائه عنهم والترفع عن مدحهم فأهاجوا عليه الشعراء
والادباء فنالوا منه حتى اضطر الى مغادرة العراق الى بلاد فارس وبقي بها

من سنة ٣٥٣ الى سنة ٣٥٤ - فقصد الوزير ابن العميد ثم عضد الدولة بن بويه ، الملك العظيم ، ونال منه العطاء الجم . وبعد أن انصرف من عنده قاصدا الكوفة قتل في الطريق هو وابنه وخادمه قبل ان يصلوا الى بغداد (س ٣٥٤) وكان سبب قتله على الأشهر قصيدة هجاء في ضربة بن يزيد أثارت عليه قرابة المهجو فانتقموا منه

اما خلقه في الجملة فلا يتناسب مع مكانته العليا في تاريخ الأدب : خلق مضطرب ، كل يوم بلون « لا يستقر على حال من القلق » وهو اشبه بخلق السوقه والرعاع - كثير التقاب في مبادئه ، لا يعرف العفوحتي ولا في اقل درجاته . يذكر الاساءة على الدوام وينسى الجميل اذا غضب وينسخ لأهل العفو والحلم بالاحتراس من عواقبهما . ويدعو الى استعمال الشدة والعنف - وهو هجاء شتام ، يفتحش في شعره ويجيء بالمقذع من السب ، يقذف النساء ، ويتعرض للأعراض ولا يستحيى من السوات ويعير بالعامات - وهو شديد الخاف في الاستجداء كثير التذلف في الاقتضاء - وقد عرف عنه البخل والحرص على الدنيا واشتهرت عن شجحه حكايات عديدة مما يرجح انه كان جباناً . لتعذر التوفيق بين الشجاعة والبخل - ويظهر ان شجاعته لم تكن الا اندفاعاً رقتياً يدعو به الغرور والكبرياء والاستخفاف بالناس والامراء والملوك ، وقد كان لا يعرف المداراة حتي عرض نفسه لنقمة الكبراء واغرى بنفسه الشعراء والادباء فكثرت خصومه حتى زرعوا مكاتبه الا انه لم يعرف بسوء السيرة في حياته الخاصة فلم يكن خليعاً ولا ماجناً ولا مستهتراً ولم يشرب الخمر الا مرات معدودة وروي عنه انه كان لا يؤدي فرائض الدين والعبادات . - ولاغرابة فمسألة عقيدته محل للنظر وخلق ابي الطيب في جملته نتيجة ضرورية لحالة مذهبه الوضع والوسط الذي تربى فيه وبمجموع الظروف التي احاطت به

« ي »

أما شعره فجمال سباق تتبارى فيه الأفهام وميدان حرب عوان بين انصاره وخصومه ولم يعرف في تاريخ العربية شاعر قام بشأنه النزاع بمثل هذه الشدة : قوم ينفونه من ديوان الشعراء وقوم يزيدون في التعصب له حتى جعلوه المنفرد العلم فكثرت التأليف عنه وعدت شروحه بالعشرات.

إذا قسمنا شعره بحسب مناطق القوي المدركة في الانسان، الى شعر وجداني توحية النفس المتأثرة، والى شعر مادي تلمية الحواس ، والى شعر حكى يكون نتيجة التفكير العقلي - إذا سرنا في التقسيم على هذه القاعدة وصلنا الى الاحكام الآتية :

مظان وجود الشعر الوجداني في دواوين الشعراء بابا الغزل والرثاء. ولكن هذين البابين من شعر ابي الطيب لا يصحو فيهما وجدانه. فترى غزله خطرات مفكرين : يشرح العشق علميا ويرسم تعاريفه ويضع قواعده ويصف العشاق ويصور احوالهم ويصف جمال المرأة بنوع خاص . موافقه الغزلية مع النساء في الغالب مواقف فراق وتوديع لا تصادف الا ساعات الرحيل الذي لا يكون الا على العيس والهوادج كأنهن ينوين سفرا بعيدا الى ما وراء البيد والقفار - ثم ان هواه مع البدويات العربيات يفضلهن على نساء الحضرة . وفصل الغزل وحده يستدل منه على ان ابا الطيب بقي على تعصبه للعربية على الرغم من اتصاله بالأعاجم . ويلاحظ على غزله في مجموعه روح الحزن والكآبة وذكرى السقم والنحول . وهو في ذلك اشبه بمن ذهب الهيام بلبهم كالمجنون العامري وامثاله ، ومن جهة اخرى يرى في غزله شيء من الجفاء والعنف مع معشوقاته والتلميح بأنه هو الذي تسعى اليه النساء كما يفعل عمر بن ابي ربيعة

وكذلك رثاؤه لا يعد من الشعر الوجداني الا القليل منه - فهو يحوى : أولا - شعرا وصفيا يصور فيه الشاعر مكانة المرثى وابهة ملكه وهيبة جنازته مما يدعو الي الاجلال والاعظام ولكنه لا يثير الحزن في النفس ولا الدمع في العين ، وثانيا شعرا حكيا ملؤه الخطرات السديدة والنظرات الصادقة والافكار المتفرقة عن

الحياة وما فيها مما يدخل في «فلسفة الموت» وثالثاً - شعراً وجدانياً في غير الحزن يكثر فيه الوعيد والتهديد والغيظ على الأيام والاعتراض على الأقدار ، ورابعاً - شعراً وجدانياً في الحزن حقيقة تفعل فيه نفسه انفعالاً صادقاً ويظهر من خلال قوله انه صادق في وده قد نزلت به نازلة حقاً وانه غير مأجور على شعره ولا مخادع في بكائه .

هذا و ابو الطيب راقى الخيال دقيق التصوير بعيد المرمى فيه وهو قليل الفكاهة يخرج فيها الى الهجاء ولو كان سار على عكس ذلك فاتبع التهكم الظريف في الهجاء لكان خيراً له واسلم

ويستنتج من مجموع باب الشعر الوجداني أن ابا الطيب كان مصوراً مفكراً قد رزق استعداداً شعرياً فكان التصوير والتفكير يغالبان فيه الوجدان حتى رأى كثير من النقاد أن شعره قاصر على الوصف والحكمة

اما شعره الوصفي فأهم ما فيه وصف الطبيعة والحروب، ويشمل وصف الطبيعة القفار والصحارى وما في نواحيها من بالى الطلول والرسوم مما يدخل فيها اسميه المصريون « الطبيعة الميتة » ثم يرى له وصف الطبيعة البهيجة كبحيرة طبرية وشعب بوان ثم وصف الحيوان كالظباء وكلاب الصيد والأسد .

ويتناول وصف الحروب وقائع القتال والكر والفر وصفة الجيوش وادوات الضرب من رماح وسيوف وغيرها . ويدخل في ذلك وصف الجيوش والخيول . ومن مزايا الوصف في شعر المتنبي حب الألوان والأضواء والتفنن في تأليفها ومقابلتها . وهو يعطى الجماد والحيوان نوعاً من العقل والتفكير ويمجد في تصوير الحركات، وغالب حيواناته تراها مصورة في حالة الحركة، وقد وصف بحيرة طبرية وهي مزينة مضطربة مما يستفاد منه أن الشاعر يحب المظاهر الحية لأن الحركة مظهر الحياة .

ففي هذا الشعر الوصفي لا يحتاج الشاعر لاجهاد وجدانه ولا تفكيره العقلي مادام قد رزق الاستعداد لادراك المبصرات واداء ما تحصل منها في نفسه، فهو

مصور بطبعه يشتغل بالتصوير في قالب شعري كما أن هناك شعراء يشتغلون بالشعر في قالب تصويري .

أما شعره الحكيم فليس له مكان خاص في ديوانه بل انه يتسرب فيه من أوله الي آخره . ولذلك يجب على الناقد أن يؤلف من هذه المتفرقات المشتتة مجموعة مرتبطة الأجزاء جديرة بأن تمنح الشاعر لقب الحكيم . أما حكمة فعلية مجاها الاخلاق وتصوير حالات النفس . ومنزعها سامي (نسبة الي السلالة السامية) لكثرة الأمثال والعبر . وليس فيها من الرومية أو الهندية أو الفارسية الا بعض أسماء وإشارات مقتضبة . وتتلخص آراؤه جملة في الشكوي من الناس والأيام والأقدار ، وخطته في الحياة خطة عنف وشدة لسوء ظنه بالناس واتهامهم بالعدو والخبث . وقد اتجهت عواطفه لحب نفسه وتحصيل الخير لها منصرفا عن حب الغير . وفكرة الوطن عنده معدومة . وهو شاعر الجمهور وحكيمه وآراءه في جملتها هي آراء الجمهور في كافة الأقطار والمصور .

اسلوب ابي الطيب هو الذي ابقى شعره لأن غالب معانيه انما هي معاني الجمهور المتداولة يشرحها ويعلق عليها على طريقة التوليد التي عرفت عن ابن الرومي واسلوبه في ذلك تعليمي وفيه لهجة الاستاذية يدل على ذلك حبه للوعظ والارشاد وضرب الأمثال ، ونعرتة العربية تجعل اسلوبه خطايا يشبه بخطب الجاهليين ومعلقاتهم ، وكثرة انفعالاته من تعجب وانكار واستفهام وغير ذلك تميل به كثيراً الى الاسلوب التمثيلي

أما مميزات صناعته فهي تلك الموسيقية الفطرية في طبعه ، وعلى مقتضاها يسلسل الكلمات المتساوية وزنا وقياسا . او يقطع الأبيات الي أجزاء متساوية او غير متساوية ، ثلاثية أو رباعية يكون لها نغمات يلذها السمع وان كان نصيب الفكر او الواجدان منها ضئيلا ، وتكرير اللفظ المعروف بالترديد وكثرة العطف وشبهه ، ويسمي بسباق العدد . - وقد أبتقت البداوة من آثارها في نفسه حب

الغريب من الألفاظ وأكثر ما يظهر ذلك في أراجيزه، واستعمال اللغات الشاذة . -
وقد أدها الذوق البدوي الجاف الى بعض المعاني والتشابه التي تأبها رقة
الحضارة . وله ولع بالجمع بين الأضداد فيجبيء باللفظ وضده او المعنى وعكسه
فأكثر من المقابلة والطباق - وكذلك كان يجمع بين الفنون المختلفة والمعاني
المتنافرة ، وباب الافتنان في البديع هو أقرب ما يحيط بهذا الضرب من التأليف
وقد اعرض عن التورية والجناس التام الآن له قليلا من الجناس المقلوب والناقص
- ومال الى الاشتقاق والتجنيس فاجاد في ذكر الشيء وما يناسبه ومراعاة النظير

ولعلك لا تقنع بهذا المختصر الوجيز . فان أردت المزيد فإليك البيان



الباب الاول

حياة أبي الطيب

جزئيات الموضوع :

اسمه ونسبه ونشأته — عمرى يتعصب للعربية — العربية والشعبوية — نقص كتب التراجم فيما يتعلق بالحياة الخاصة — تقصير المترجم أنفسهم — أثر هذا النقص في النقد الأدبي ودراسة الأخلاق — ادعاء النبوة — رأي محتمل — مرض العقل — هدياته في شعره — جنون المنطيرين — جنون العظمة والكبرياء — النبوغ صراط بين العقل والجنون — الرأى المرجح في نبوة أبي الطيب — صورة العصر العباسى — انقسام الدولة وضعفها — الفتن في قصور الخلفاء — تداخل الخدم والنساء — سيادة القواد والوزراء — نبوة أبي الطيب في كتب الأدب — قرآن أبي الطيب — سجنه — أبو الطيب عند أمراء الشام — صفة حاله وبؤسه — أبو الطيب عند سيف الدولة — مكانته وحساده — عند كافور — آماله الضائعة — بين الكوفة وقوبنداد — في بلاد فارس — ابن العميد — عضده الدولة — مقتل أبي الطيب

اسمه ونسبه ونشأته

نحمل المسك عن غداثرها الريح وتفتت عن شبيب برود
جمعت بين جسم (احمد) والسنة تم وبين الجفون والتسويد

(احمد) هذا الذى سجل اسم نفسه فى إحدى قصائده الغزلية التى قالها أيام صباه هو موضوع البحث فى هذه الرسالة ، وانى لأرجو بعد ان بذلت ما استطعت من الجهد فى درسه ان اكون قد عرفته معرفة صحيحة وصورته صورة صادقة .

احمد هذا ، هو ثالث الثلاثة الكبار بعد الطائين (١) حبيب والوليد ، اولئك الثلاثة الخالدى الذين انتهت اليهم الزعامة فى الشرق قبل ان تخمد الروح العربية السليمة وهو الذى نخبير من طيبات شعروا ابوالملاء المعرى طائفة صالحة سماها

(١) أبى تمام والبحترى

« معجز احمد » وكان اذا اراد ان يسميه قال « الشاعر » دون ان يذكر لي
لقباً ولا كنية (١)

يسرد اصحاب التراجم لهذا الشاعر سلسلة نسب هو فيها كما يقول شاعر
عصرى في رثاء عظيم من أهل مصر « معرفة في انفس نكرات » (٢) او كما يقول
احد نفسه في احد ممدوحيه :

اسامياً لم تزده معرفة وانما لذة ذكرها

يقولون هو ابو الطيب احمد بن الحسين بن الحسن بن عبد الصمد ويقولون
احمد بن الحسين بن مرة بن عبد الجبار .

وامر الله انهم ما زادوا في تعريفه شيئاً فان هذه الاسماء مجهولة لا يعرف لها
فضل ولا تعلم عنها ذكرى .

على انه قد عرف بأبيه فاشتهر بابن الحسين وهذه التسمية قد رزقت حظ
الرواج على ذكرى الحادثة الآتية :

« يروى ان المعتز بن عباد اللخمي صاحب اشبيلية وقرطبة اُشْدق في مجلسه بيت المتنبي :
اذا ظنرت منك العيون بنظرة اثناب بها مهبي المظن ورازمه
فاستحسنه وجعل يردده وكان في المجلس ابو محمد عبد الجليل بن وهبوت
قالشد ارنجالاً :

لئن جاد شعر « ابن الحسين » فأنما نعيم العطايا واللى تفتح اللى
تنبأ عجباً بالقريض ولودرى ^{بأنك} تروى شعره لتألمها (٣)

(١) راجع « الصبح المنبي عن حينية المتنبي » للبديعي على هامش التبيان
للعكبري - طبعة سنة ١٣٠٨ هجرية (المطبعة الشرفية) ص ٤٨ ج ١

(٢) مرثية حافظ ابراهيم في الشيخ محمد عبده

لقد كنت فيهم كوكباً في غياهب ومعرفة في انفس نكرات

(٣) مقدمة التبيان نقلاً عن ابن خلكان

ويقولون أنه جعنى القبيلة نسبة الى جعنى بن سعد العشيرة احدى قبائل البمانية
ولد بالكوفة واليها ينسب نسبة مولد في محلة يقال لها كندة ، فهو كندى من
اسم هذه المحلة لا كندى القبيلة كما يرى القيس كما ينبادر الى الذهن من أول الأمر
وكندة هذه هي التي ذكرها شاعرنا في قوله

أمنسبني السكون وحضرموتا ووالدني وكندة والسبيعا

ولما جرت المخاصمة بينه وبين ابي فراس الحمداني في مجلس سيف الدولة
عنه ابو فراس بقوله « يادعى كندة » (١)

وكان مولده في مفتح القرن الرابع الهجرى (سنة ٣٠٣) في خلافة المقتدر بن
المعتضد .

والظاهر أن هذا التاريخ تقريبي ولا نطمع في ان تعرف مولد شاعرنا بالدقة
فتقول ولد في شهر كدا في يوم كذا في الساعة الفلانية ليلاً أو نهاراً فان هذا مما
لا سبيل اليه لاسيما عند العامة من الناس — و ابو الطيب واحد منهم — فقل أن
يلتفت الى هذا الأمر . أما العناية باثبات وقت المولد تصادف عند أهل البيوت
الكبيرة كالامراء والملوك ومع هذا فكثيراً ما يقع الشك والخطأ في مولدهم

فابو الطيب عربى الأصل وقد عرّف عن نفسه في احدى قصائده بقوله
« الفتي العربى » (٢) . وهو من المنعصبين للعربية ويفخر بهذه النسبة شأن امثاله
الذين أرادوا أن يظهرُوا في ذلك الوقت الذى ساد فيه الاعاجم وتولوا مناصب
الدولة وصبغوها بالصبغة الفارسية حتى لكأن دولة الفرس التي اتسع بها ملك الاسلام
لم تخرج من يد ابناءها وكل ماجد فيها انما هو تغرير مظهر من مظاهر مدنيته اولون
من ألوان الحضارة فيها واعنى بذلك الدين فبعد ان كانت دولة مجوسية أصبحت

(١) يقولون بدىء الشعر بكندة يعنون امراً القيس وختم بكندة يعنون

ابا الطيب (العمدة لابن زشيق) ص ٥٦ ج ١

(٢) قصيدته النونية في عضد الدولة (راجع الديوان والشرح)

دولة اسلامية وما عدا ذلك فقد بقي علي أصله . وثنافس الفرس في كافة أعمال الدولة وزاحوا العرب الفاتحين في كل شيء حتى في لغتهم وآدابهم فنظموا ونثروا وصنفوا بالعربية وكان لهم الفضل الأكبر في التدوين . ولعل كراهة العرب الخالص لشعر المولدين والمحدثين منشؤها الكراهة العنصرية اذ التباغض والتحاسد وما في حكمهما تتأبج ضرورة للتنافس في الفضل والنزاحم على الرزق

ولقد استحكمت العداوة والبغضاء بين العجم والعرب حتى أن هؤلاء لقبوا أولئك بالموالي والعلوج وغير ذلك من القاب التحقير والأزدراء . وقام جماعة يتعصبون للأعاجم وينتصرون لهم وعرفوا بالشعوبية (١) كما أنبرى للعرب من يدافع عنهم ويرد عنهم حملات خصومهم — ومن هؤلاء أبو الطيب علي ما يظهر من قوله

وأما الناس بالملوك وما تفلح عرب ملوكها عجم
لا أدب عندهم ولا حسب ولا عهد لهم ولا ذم

(١) وأنى أشير هنا الى واحد من الشعوبية يعد في طليعهم لتقدم عهده وهو اسماعيل بن يسار النسائي المتوفى في أوائل القرن الثاني للهجرة فقد قال في تفضيل العجم على العرب :

وأما سمي الفوارس بالفرس مضاهاة رفعة الاسب
فأركى الفخر ياأمام علينا وأركى الجور وانطق بالصواب
واسألى ان جهلت عنا وعنكم كيف كبتنا في سالف الاحقاب
اذ نرى بناتنا وتدنسون سفاهنا بناتكم في التراب
وفي هذه الابيات بيان لطريق الشعوبية في تمجيد العجم والاستخفاف بالعرب . واخص بالذكر ممن تطوع انصرة العربية على الشعوبية عمان بن عمرو بن بحر الجاحظ وقد استغرق دفاعه قسماً كبيراً من كتابه «البيان والتبيين» على انى أراه في هذا الجهاد قد لزم خطة الدفاع فقط ولم يجرأ على الهجوم مما يستدل منه على ان الشعوبية كانت اثبت منه مكاناً واكثر انصاراً — تلك كانت حالة الحرب الشعواء في ايام الجاحظ الذي توفى في منتصف القرن الثالث الهجرى وفي العرب يومئذ بقية من العصبية والسيادة . . .

في كل أرض وطئتها أم نرى بعد كأنهم ضم
يستخشن الخبز حين يلبسه وكان يبري بظفره القلم
في موضع آخر:

أفعال من تله الكرام كريمة وفعال من تله الأعاجم أعجم

ليس أبو الطيب ممن كبروا بأنسابهم وأموالهم وأهلهم بل أنه عصامي صميم وكان
أبوه سقاء بالكوفة يدعى عبدان ، ولذلك غيره أعداؤه وخصومه من الشعراء والأدباء
بمنتهى الوضيع واكثروا من تذكيره بوصيته ؛ وقد أسرفوا في هذا الباب بما لا يسمع
به الأدب الذي ينتسبون إليه . فمن ذلك قول الحسين بن ليكنك : « نعلم في
قفا السقاء تزدحم » وقوله أيضا : « متبئكم ابن سقاء كوفاني و يوحى من الكنيف إليه »
وآخر البيت أقدر من أن يذكر — وأنظف وأظرف ما قيل علي هذه الذكري
المؤولة وتناقله أهل الأدب قول أحد شعراء ذلك العصر :

أي فضل لشاعر يطالب الفضل في الناس بكرة وعشيا

عاش حين يبيع بالكوفة الماء وحين يبيع ماء الحميا (١)

وكانني بأبي الطيب يعترف بذلك العيب ويقر خصومه على دعواهم ولا يرى أنها
مما يفض من القدر ويحط من الكرامة وذلك حين يقول في أرجوزته التي قالها عند
عضد الدولة .

فخر الفتي بالنفس والأفعال من قبله بالعم والأخوال

و حين يقول في رثاء جدته :

ولو لم تكني بنتا كرم والد لكان أباك الضخم كونك لي اما

و حين يقول في قصيدته عن الحمى التي أصابته وهو بمصر .

ولست بقانع من كل فضل بأن أعزى الي جد همام

(١) ابن خلكان كما نقله العكبري في مقدمة شرحه — وأهل القائل من شعراء بغداد الذين أغراهم الوزير المهدي بالمتنبي

وحيث يقول في صباه :

لا بقومي شرفت بل شرفوا بي و بنفسي لحزت لا بمجدودي
وحيث يقول وقد أحس بأن قوماً يمدون في البحث عن أصله ونسبه :
أنا ابن من بعضه يفوق أبا أبا حث والنجل بعض من نجله
وأما يذكر الجدود لهم من نفروه وانفدوا حيله
فكأنه يقول : الولد سراييه ، وأما بفضل الذي عرف لدى الجميع أم عن
فضل أبي لأني بعضه . وأما يفتخر بالجدود من نفره الناس حتى نفدت حيله في
استئناسهم إليه .

الاحظ هنا أننا لا نجد في كتب الأدب على كثرتها شيئاً يذكر عن نشأة أبي الطيب
وأيام طفولته بل ولا أيام شبابه الأولى
وليس هذا النقص خاصاً بترجمة أبي الطيب وحده — فربما كان الرجل أوفر حظاً
من غيره في هذا الباب — وإنما يتناول هذا النقص كافة المترجمين بلا تمييز
ولا استثناء

والظاهر أن المتقدمين لم يكونوا يهتمون بهذا الجزء من تاريخ المترجمين لأنهم
لم يكونوا يرون له من الفائدة ما يدعو إلى عناية البحث والتنقيب ؛ وعلي فرض
أنهم أجهدوا أنفسهم في ذلك فأنهم ما كانوا يهتمون إلى شيء كبير لأنهم إنما يندشون
مفقوداً هالكاً وعلى رأي أبي الطيب في إحدى مرثياته .
عدمته وكأنني سرت أطلبه فما تزيدني الدنيا على العدم ؟

هذا وأني الاحظ أن أكبر الذنب واقع على المترجمين أنفسهم لأنهم لم
يتركوا خلفهم صورة حقيقية تمثلهم في أيامهم الأولى وتصور خصائص أحوالهم
ومعاشتهم وأفكارهم وعواطفهم وآمالهم إلى غير ذلك مما راه مستفيضاً عند غيرنا ولا
نكاد نجد له أثراً عندنا — أقصد بذلك ما يسمى بالذكريات أو اليومييات وفيها
يقيد المفكر أو الأديب أو الشاعر أو المصلح أو السيامي أو غيره تاريخ حياته

بخط يده يوماً بيوم . وهذه الكتب لا يجررها اصحابها لتنتشر بين الناس في حياتهم
وانما يكتبونها في الأصل لانفسهم ويودعونها اسرارهم ويسجلون فيها ماضيهم
وتبقى بعدهم في بيوتهم محتفظ بها اهلهم كأنها تذكاريهم او اثر نفيس .
واعل بعض الناس يظنون ان هذا العمل ضرب من اللغو والهزل والعبث .
لهم ان يظنوا وعلى ان اجيب .

كم من لغو وهزل وعبث ادى الى خير ونفع وجد ؟ وكم ينفق الواحد من وقته
ولا يحاسب نفسه علي زمنه الثمين دون ان يعمل ما فيه فائدة لنفسه او لغيره !
فهل اقتضب من ساعاته الطويلة لحظات قصيرة يلغو فيها وعبث ويهزل يسطر
فيها اثراً يخلده على مدى الأيام ويذكره به اقوام بعد اقوام ؟
ليس من الضياع ان يلغو ابو الطيب في مئات بل في الوف من اياته وبرهانه
بنفسه عن مثل هذا اللغو في بضع صحائف يترك لنا فيها وصف ماضيه وحياته
الخاصة التي لا يعرفها الا هو وصورته الصادقة مرسومة بيده يذكرها له الناس الى
ما شاء الله ؟

إننا لا نعرف على من من العلماء أو الادباء حضر ابو الطيب ، ولا كيف حصل
الماسكة الشعرية ، ولا الكتب التي كان يأخذ عنها وينمي بها في نفسه الروح الفنية
هذا ما بهم النقد الأدبي وتاريخه .

نقصنا أيضاً ما نبني عليه دراسة أخلاقه فلا ندرى كيف كان يعيش في بيته .
ومع من كان يعيش ، ومن كان يقتبس خلقه وينمي غرائزه . وكذلك نجهل الحوادث
التي نستدل منها على مقدير قوته الخلقية ومعاملته لأمثاله ولمن هم أكبر منه أو
اصغر وأدابه في المعاشرة الى غير ذلك من « اللغو » الذي لا يدلنا عليه الا الشاعر
نفسه . أما وقد سكت عنه فلا سبيل الى الحصول عليه الا بالأنويل وفرض الفروض
واستنتاج النتائج التي كثيراً ما نخطيء وقليلاً ما تصيب .

فات هؤلاء الرجال عندنا أن يدونوا تاريخ حياتهم الخاص فتركوا مواضعهم

ناقصة في تاريخ الانسانية العام اللهم الا ما بقي مكذوبا ممسوخا وهو ما لا يشفى غليل
الباحث المستقصى ولا يكشف الحجب عن تلك الوجوه النضرة في التاريخ. وما
ذلك التاريخ الاساسية هم حلقاتها . واذ كان أعيان الأيم ومفكروها مظهرًا من
مظاهر مجدها فلا جرم كان ذلك الفراغ المظلم من الفخس التصير في تاريخها

وخلاصة ما عرف عن أيام أبي الطيب الأولى بعد أن شب وترعرع انه صاحب
الاعراب في البادية وعاد الى الكوفة بعد سنتين بدويًا قحًا وكان تعلم القراءة
والكتابة فلزم أهل العلم والأدب وأكثر من ملازمة الوراقين فكان - علمه من
دفاترهم (١)

وعلى ذكر الوراقين - وهم تجار الكتب - أقول أن الجلوس في الاسواق
مما استنكره الظرفاء الا ما استثنى من الاحوال التي جمعها أحد الشعراء أو بالاحرى
أحد النظامين في قوله

مجالس السوق مذمومة ومنها مجالس قد تستحب
فلا تقربن غير سوق السلاح وسوق الجياد وسوق الكتب
فتلك تجارة أهل الوغى وهذي تجارة أهل الأدب (٢)

ولو كان ابو الطيب من أهل اليسار لاكثر من التردد على اسواق الجياد
واسواق السلاح لأن غرامه بها كان عظيما - ان كان صادقًا في دعواه حين يقول :-
الخليل والليل والبيداء تعرفني . والسيف والرمح والقرطاس والقلم

وقدم ابو الطيب الشام مع والده وجال في اقطارها . وكان يكتفم نسبه فاذا

(١) راجع الصبيح المنوي نفس الطبعة ص ٦ ج ١

(٢) لعل الناظم أراد أن يفسر الحديث الفائل خير البقاع المساجد وشرها
الاسواق؟

سئل عن ذلك قال « أنى انزل دائماً على قبائل العرب واحب ان لا يعرفوني بخافة ان يكون لهم ثأر على قومي » (١)

وروى شعر ابن الرومي . وهذا ما أستدل به على قوة حفظه أكثر مما حكاه صاحب كتاب الصبح المنبي (٢) اذ روى انه حفظ رسالة في اوراق عدة في لحظة قصيرة تكاد تكفي لتصفح الرسالة ، وفي الحكاية مبالغة على ما يظهر .
ولقد كان لشعر ابن الرومي أثر كبير في تكوين الملائكة الشعرية في نفس المتنبي وسترى ذلك في موضعه .

هذا كل ما تعثر عليه في كتب الادب والتراجم عن تاريخ ابي الطيب أيام صباه . وكتاب الصبح المنبي هو أوفى ما رأيت في ترجمة شاعرنا وقد أحاط عليه واخذت عنه في مواضع كثيرة - ثم يأتي بعد ذلك ذكر نبوته التي ادعاها هو أو ادعاها عليه آخرون

وقد ذكر المتنبي في شعره بعضاً من أهل بيته فأشار الى والدته في موضعين :
امدسيفي السكون وحضر موتا ووالدتي وكنسدة والسييما
وفي التشفع لدى الوالى بقوله
او لأم اذا ذكرتني لها دم قلب في دمع عين يدوب
نعرف بعض تفاصيل قليلة الأهمية عن حياة المتنبي من شرح بعض ابياته .
نعرف مثلاً انه كان له خادم يدعى ابا بكر الشعرائي يروي عنه ابو الفضل العروضي في بعض مواضع - يقول « العكبري » صاحب « التبيان » (٣) عند شرح « رواق الزحولك مُسَبَّطِرٌ » من مرثية ام سيف الدولة : قال ابو الفضل العروضي سمعت ابا بكر الشعرائي خادم المتنبي يقول قدم علينا المتنبي وقرأنا عليه شعره فأنكر هذه اللفظة وقال مستعجب

-
- | | | |
|-----|--------------|---------------|
| (١) | الصبح المنبي | ص ٦ ج ١ |
| (٢) | » » | » ٦ - ٧ ج ١ |
| (٣) | التبيان | » ٢٣ - ٢٤ ج ٢ |

قال العروضي وائاً غيثره «الصاحب» وعابه عليه - ويتضح من هذه الحكاية ان الشعراني لم يخدم المتنبي الا بعد ان ألف الصاحب بن عباد كتاب «المساوي» اي عندما قصد شاعرنا بلاد فارس وكان وقتئذ قد أنرى واستطاع ان يتخذ لنفسه خادماً أديباً - او سكرتيراً خاصاً كما يقول اهل هذا العصر - يدافع عنه او يشرح بعض أفكاره - وجاء في شرح العكبرى (١) ايضاً عند تفسير «روح تردد في مثل الخلال» قال الواحدى . . . وقرأنى الشعرانى خادم المتنبي «الخيال» قال ولم اسمع الخلال الا بلى

ادعاء النبوة

كثيراً ما علمنا من التاريخ أن أفراداً من الناس خرجوا اطاب الملك من طريق الدين . ولا أحسب أبا الطيب الا واحداً من هؤلاء . ويرجع هذا الظن هندی بطامع شاعرنا وسعيه المتواصل طول حياته للحصول على مركز كبير يظهر فيه سيادته وسلطانه . فتراه في شعره يتحرق غضباً ويتميز غيظاً لانه لم يصل الى تحقيق أمنيته المحبوبة .

اما اتخاذ طريق الدين بأدعاء النبوة - أن صح أنه ادعى نبوة - فما كان الا لأن ذلك هو السبيل الوحيد لأمثله الذين لاجاه لهم ولا عصبية ولا مال لجمع الناس حولهم

رأى محتمل في نبوة أبى الطيب

وعانى الى التفكير فى الرأى الذى سأعرضه هنا ما لاحظته فى الحكاية الآتية :
« اشترط المتنبي على سيف الدولة اول ائمه ان يهبه ان يشده مدبجه لا ينشده

الا وهو قاعد وأنه لا يكاف تقهيل الأرض بين يديه فنسب الى الجنون «(١) نسبة الجنون الى ابي الطيب قول قديم لم يؤيده أصحابه بحجة ولم يقيموا عليه دليلا . وأنى لا تطوع لنصرته وإنما أطبق عليه ما لدينا من المعلومات عن أبي الطيب حتى تثبت صحة من فساده

وموضع العجب في الحكاية المقدمة — أن كان لها نصيب من الصحة — أن بعض الناس استهزأوا بشذوذ أبي الطيب عن مألوف الشعراء وعاداتهم واستكبروا اياه وتعالیه على فمدوحه حتى نسبوا ذلك الى الجنون مع ان ابا الطيب حين ادعى النبوة لم ينسبه احد الى الجنون حتى لكأن خروج ذلك الشاعر عن المعارف في آداب شعراء الملوك كان أكبر في نظر هؤلاء الناس وأعتقادهم من ادعاء النبوة ! فيا للجب !

قد يجوز ان يكون ادعاء النبوة نتيجة مرض عصبي أو عيب عقلي عند أبي الطيب اذ من المقرر عند اطباء الامراض العقلية ان الكذب والادعاء والتصنع والتقليد واحوال يسهونها بالتجلى اعراض اهل عصبية تختلف خطورتها ولو كانت لدينا تفاصيل حياة أبي الطيب الاولى أو سيرة آباءه أو مشاهدات دقيقة عن معيشته أو مذكرات كتبها بخطه أو صفة حالاته النفسية لاستطعنا ان نستنتج منها جواز صحة هذا الرأي بما يشبه الجزم والتأكيد .

ولعل ادعاء النبوة والحركة التي قام بها ابو الطيب كانت جولة من جولات المصروعين (٢) ولعل أقواله التي يسيء فيها الظن بالناس أجمعين أو بفريق منهم

(١) الصبح المنبي ص ٤٦ — ٤٧ ج ١

(٢) روى لنا أستاذ الامراض العقلية بقسم العلوم الجنائية بالجامعة المصرية عند كلامه على جولات المصابين بالصرع أنه قد ظهر في إحدى مدن أمريكا الكبيرة متنبئ كان كاتباً في احد المحال فقام من مركز عمله ذات يوم وخرج الى ميدان من الميادين العامة ودعا الناس حوله ليخطب فيهم . اقول — والشئ بالشئ يذكر — ان هذه الدعوة ليست مما يستنكر في بلاد المدينة الحديثة لان

خاصة كانت من قبيل هذيان الاضطهاد المعروف عند مرضى العقول (١) أو من قبيل

حرية الكلام وحرية الاجتماع من أقدس الحقوق فيها .
« فكان ذلك المتنبىء يقول للناس انه يستطيع ان يشفي المرضى بمصاحفته

الأيام .

« وما زال على هذه الحال عدة أيام حتى كثر عايله طلاب الشفاء وازدحمت بهم الطرقات . فإشار عايله رجال الحفظ ان يحمل اجتماعه في مكان آخر من الخلاء حتى لا تنعطل المواصلات . فاطاع الأمر ونقل « عيادته » الى احد اطراف المدينة . وانظرا لكثرة قصاده وازدحامهم عايله كان يعالجهم بالإشارة اليهم . « وبعد أيام رجع الرجل الى عمله وهو لا يدري بشيء مما كان من أمره وبعد بضع سنين مات بعاقته في احد المستشفيات »

(١) يقول علماء الطب العقلي ان هناك نوعا من الاعراض تسمى بهذيان الاضطهاد *délire de persécution* فيزعم المريض بالعلة التي من اعراضها هذا الهذيان ان الناس يضمرون له الشر ويتآمرون عايله ليوقعوا به السوء والاذى . ففي أول الامر لا يستطيع المريض ان يميز هؤلاء الناس بعضهم من بعض ولا ان يبين نوع الاذى الذي يريدون ان يلحقوه به . فكلمات تقدم في العلة او بعبارة اخرى كلما تقدمت العلة فيه وضح امامه الامر . فبعد الفموض التام ولا بهام المطلق يتبدىء عند المريض نوع من الوضوح فيقول أهل بيتي مثلا . او ذوى قراتي او زملائي في صناعتى او جيراني ثم يصل اخيرا الى تعيين فرد بذاته فيقول ان زيدا هو الذي يدبر المكيدة او هو الذي ينوى ايقاع الضرر بي . وبعد ان كان هذا الضرر غير معين يتضح شيئا فشيئا من اذى مبهم الى نهب مال مثلا الى سرقة ما في المنزل ثم يعين المريض نوع المسروق فيقول النقود المحفوظة في الخزانة ولا يتحول بعدئذ عن الاعتقاد بان زيدا هذا يريد سرقة نقوده المودعة في الخزانة . هذا مثال من الهذيان الذي طالما انتهى امر صاحبه الى ارتكاب الجرائم الكبرى .

وانى لاحظ ان مثل هذا الهذيان كثير الوقوع في شعراى الطيب . ولكنى لا استطيع ان اجزم بأن الشرر يترجم في جميع الاحوال عما يدور بنفس قائله

جنون المتطيرين الناقين على العالم وما فيه (١) ولعل أقواله في الفخر وتعاليه على الأمرآة

لأن الشاعر كثيراً ما يظهر غير ما يضمّر ويضمّر غير ما يظهر لأسباب شتى وإنما تكرر هذا النوع من الشكوي والالتهام وذكر حقوق منسوبة واعداء موهومين وانتظار الايقاع بهم. كل ذلك «ضرب من الهذيان» كما يقول هو في إحدى قصائده .
(١) أبو الطيب من المتطيرين مذهباً Pessimiste كما يتضح ذلك من شعره وكآبة الروح والنظر الى كل شيء بسوء الظن وتوقع الشرور من كل شيء قرينة سبقة على صحة العقل كما يقول اهل العلم المختصون بهذه المباحث . واني ادع الكلام لكاتب كبير من كتاب الغرب هو «ماكس نوردو» درس هذا المذهب ووفاه حقه من البيان فلنصغ لحظة صغيرة الى ما ياقبه عايننا خصوصاً وأنه تناول الشعراء في مجلته . قال : (عن مجلة البيان السنة الرابعة - العددين ٢ و ٣ ٣٠ ابريل سنة ١٩١٥)

« من كان بحسب اهرام مصر وحدائق سيرا ميدس وحدائق بابل وتمثال رودس من عجائب الدنيا فانعت ما هو اعجب واغرب من هذا اعنى بذلك مذهب التشاؤم مذهب الساخطين على الكون والانسانية والحياة دامة بسخط المهموم الكاف البال

« أقول مثل هذا النوع من التشاؤم لا يقبل المناقشة والرد وإنما كل ما ما استطاع ازاءه هو ان يتناول الانسان بالتحايل والتشريح للوقوف على أصله وعلته فباجراء ذلك يعلم ان هذا التشاؤم هو احد امراض مرض العقل في بدايته أو عند بلوغ أقصى شدته . وقد شاهد الاطباء وعلماء النفس ان الجنون كثيراً ما يظهر في ابتداء أمره بحالة الميلانخوليا (الاكتئاب المجهول السبب) فترى المصاب يلزم الحزن والاطراق ويعتزل الناس ويرى كل ما في الكون بعين البغضاء والمقت . والسرف في ذلك ان في عضو التفكير (العقل) خاصة مربعة مخيفة فلا غرو ان كانت الدنيا تتراآى لمثل هذا العقل المصاب مثل ما تتراآى للعين الرمدة أعنى عالماً ملوماً تشوشاً واخلاقاً وظلمة

التبرم والتشاؤم قد كانوا ولا شك مرضي العقول - فالشاعر

كانت نوبة من جنون العظمة والكبرياء (١) أو لعله كان من أهل العبقرية
النايفين وهؤلاء على رأي مذهب طبائع الانسان في منزلة آخذة بطرفي العقل

(مينو) مات مجنوناً . والشاعر (ليوباردى) كان يشتكى علة في عضو التناسل
قد عرفها الاطباء من امراض العقل . والشاعر (هاين) بدت في نظمه آيات
السخف والخلط لما اخذت علة فقاره تؤثر في دماغه . والشاعر (بايرون) كان
فيه ذلك الشذوذ الذي تسميه العامة نبوغاً ويسميه علماء النفس مرض الذهن «
(١) كيننا لا نصدق من يقول بداء الكبر حتى جاءنا العالم الحديث بايضاح أوفى
وبيان اشد في وعرفنا أن هناك داء اعضل هو جنون العظمة والكبرياء
mégalo manie

اذ كر اننا حضرنا درساً عملياً مشفوعاً بالمشاهدات مؤيداً بالامثلة الحية
كما يقولون - في مستشفى الامراض العقلية بالعباسية بمصر تفضل بالقائه مدير
ذلك المستشفى على طلبة قسم العلوم الجنائية بالجامعة المصرية بحضور استاذ الامراض
العقلية الذي استشهدت بروايته قبل . فاحضر امامنا صنوفاً مختلفة من المرضى
كان بينهم واحد لا يرى على ظاهره اثر للضعف العقلي يفهم ما يقبل له ويناقش
فيه ولا يجهل شيئاً مما يدور حوله بحسب ما تطيقه مدارك مثله من أهل الريف
وعمال الحقول . ولكن اذا جاء ذكر الملك بدا موضع الضعف منه فيستعطف
مدير ذلك المستشفى ويبسط له رجاءه كما يفرج عنه ليذهب الى بلده ويتولى
شؤون المملكة لانه هو الخليفة ويخطب له على المنابر ! هذا مثال حتى كما
يقولون رأيناه وسمعناه وسألنا الله له ولاخوانه العافية .

أما كبرياء أبي الطبيب وعظمته وغروره فما اجمع عليه أهل الادب كافة
فمنهم من استشهد بالحوادث التي وقعت له ومنهم من استند على اشعاره وهي
تفيض ادعاء أكثر مما بزعم ذلك المريض الذي رويت قصته .

وانى لارجو ان لا تكون اقوال أبي الطيب وادعائه النبوة صورة
حقيقية لما في نفسه وانى لو انها تكون خطرات شاعر يحلم وهو مستيقظ
ويغيب عن الناس وهو معهم بتأثير الفن وحكم الصناعة . وذلك حتى لا يخرج
شاعر كبير من شعرائنا من دائرة العقلاء الحكماء الى مصاف المجانين والمعتوهين .

والجنون (١)

لا أراني في هذا الكلام الا قد اتبعت بخطه المحامين في أيامنا هذه يجعلون أول دفاعهم عن المتهم ادعاء المرض العقلي وطلب البحث عن الحالة الصحية حتى يبرؤوا عيالهم فاذا لم يوفقوا الي النجاح في دعواهم عادوا الى الخوض في موضوع الاتهام. واني أعود كذلك الى الكلام عن ادعاء النبوة لاني أرى كما قدمت ان الملاحظات التي لدينا لا تكفي للبت في تلك الفكرة سلباً ولا ايجاباً الا أنها مع ذلك تثير في النفس شيئاً من الشك والارتياب

الرأى المرجح في نبوة ابي طالب

الا أن المرجح أن ابا الطيب سعى وراء الملك أو بعبارة أصح وراء الظهور من طريق ما ادعاه كما فعل غيره من أصحاب المطامع وتاريخ الدولة العباسية علي الأخص حافل بأمثاله .

صورة العصر العباسي

والظاهر أن الذي ساعد ابا الطيب وأمثاله علي الخروج وأغراهم به وأطمعهم في سهولة تحقيق امانتهم إنما كان ضعف الدولة وكثرة الخارجين عليها من أبنائها

اما الاستشهاد علي تكبر ابي الطيب وتعاضمه فاني أرجئه الى باب اخلاقه وصفاته .

(٢) النبوغ . العبقرية genie على رأى أصحاب المذهب إنما هو منطنة ضيقة جداً بين العقل والجنون وهو شبه شيء بوصف الجمهور للصراط حتى ان السابقة في تعبير أهل هذا الرأى يكون كبرة الميزان الدقيق يميلها أقل ثقلي الى العميق تارة والى الشمال تارة أخرى لا تستقر على حال أو كرقاص الساعة لا يدري اين مكانه الحقيقي .

وضياع مهابة الخلافة وسقوط مكانة الخليفة من القلوب (١) وتسرب الشكوك الى عقيدة

(١) ما أصدق الخليفة المعتمد حين يقول

ليس من العجائب أن مثلي * يرى ما هان بمنعنا لديه

وتؤخذ باسمه الدنيا جميعا * وما من ذلك شيء في يديه

وأصدق منه قول المطيع حين قال «ليس لي غير الخطبة» كان ذلك شأن

الخلفاء العباسيين بعد أن تداخل الأجاجم من فرس وترك وديلم وتتار وغيرهم

في كافة الشؤون من قيادة الجند وتولى المناصب العالية والوزارة والامارة الى

حقن الأعمال في البيوت . ولقد احتفى بهم الخلفاء امام منازعتهم من العرب

ولو كان علي بن الجهم الشاعر بعيد النظر في العواقب لما قال

ورافضة تقول بشعب رضوى * امام ! خاب ذلك من امام!

امام من له عشرون الفا * من الأراك مشرعة السهام

فقد دافع هؤلاء عن الخلفاء اولاً ثم دفعوهم اخراً عن كل عمل له مساس

بإدارة الملك وجملوهم اشبه شيء بالاعلام والرايات والشارات التي يدافع عنها

ولا تدفع عن نفسها وقد أجاد ابو الطيب في قول يصبح ان يستشهد به في

هذا المكان

ومن يجمل الضرغام في الصيد بازه تصيده الضرغام فيما تصيدها

وبالجملة فقد انتهى الامر بالخلفاء ان صاروا «تقباء اشراف» على

حسب اصطلاح أهل هذا العصر .

قبل ان ينطوي القرن الثالث للهجرة (و ابو الطيب قد ولد في السنة الثالثة

من القرن الرابع) مات الخليفة المكتفي سنة ٢٩٥ بعد ان عهد بالخلافة الى

ابن اخيه المعتضد ولقبه بالمقتدر بالله ولم يكن يبلغ من العمر الا ثلاث عشرة

سنة فكانت حداثة سنة داعية الى تداخل النساء والخدم في أمور الدولة مما

لم يسبق له مثيل في الاسلام . فاجتمع القواد والقضاة مع الوزير العباس بن

الحسن للمفاوضة في خلع المعتذر ومبايعة عبد الله بن المعتز . فلم يوافقهم الوزير

هنا ذلك لأن صغر المعتذر كان اصلح له وانفع . والقيم الطامع يخشى ان لا يبلغ

- الجمهور بانتشار المبادئ الغربية عن روح الاسلام والسلالة السامية - وقد

الصفير رشده ابدأ . وانتهى الامر بقتل الوزير وخلع المقتدر سنة ٢٩٦ ومبايعه ابن المعتز الشاعر المشهور « وانما أدركته حرفة الادب » كما قال على ابن بسام في رثائه . فقد خذله أنصاره الذين دعوه الى الملك رغم ارادته - أو على الأقل بدون سبب منه - وقتله حزب المقتدر بعد ان تولى الخلافة يوما وولاية ورجعت الخلافة بيدئذ الى المقتدر .

وفي سنة ٣١٧ ثار الناس والجند بسبب استنزاف الوزراء لاموال المملكة وهيمنة النساء والخدم على شؤون الملك وطلبوا أن يكون لهم حق الاشتراك في تدبير المصالح العامة . ولا ادري هل كان في استطاعة الدولة الاسلامية اذ ذاك أن تستفيد من هذا الدرس الكبير فتضع شيئا من المنظمات النيابية وتشرك الامة نوعا ما مع الحكومة في تدبير المسائل الحيوية . ولكن المقتدر لم يحفل بهذا النداء فكانت النتيجة أن نقله الثوار الى دار مؤنس الخادم وبايعوا محمداً بن المعتضد ولقبوه بالقاهر بالله . فلما لم يجهم الخليفة الجديد الى مطالبهم هجموا على دار الخلافة وقتلوا خاقا كثيرين واخترقوا الخليفة في البستان ثم سار الثوار الى المقتدر وحملوه على اعتناقهم وبايعوه ثانية . وكانت خلافة القاهر يومئذ ولم يقتله المقتدر بل حبسه عند والدته . ثم وقع النفور بين المقتدر ومؤنس وانتهى الامر بهذا الاخير ان زحف على بغداد وقاتل المقتدر . ودارت الدائرة على الخليفة اذ قتله جماعة من المغاربة ودفنوه في موضعه سنة ٣٢٠ . ولما حمل رأسه الى مؤنس الخادم بكى واطم وجهه وحمل دار الخلافة من النهب . ورأى مؤنس ان يولى ابن المقتدر لانه كان اذ ذاك صبيا فام يحسن الامر في عين امحق النوبختي وقال « لا نرضي الا برجل كامل يدبر نفسه ويدبرنا » فاقنع مؤنس بذلك وبويع القاهر بالخلافة مرة ثانية .

زعم بعض اولى النظر ان نقل التعاليم الفلسفية الى لغة الاسلام لم يقصد به

وانتقم القاهر شر انتقام من حاشية المقتدر وحزبه واصحابه وصادر
اموالهم وبمحت عن اولاد المقتدر واستحضر أمه وحاسبها على النفائس والجواهر
وامر ببيع املاك الخليفة السابق وحل ما كان موقوفا منها .

ووقع بين القاهر ورجاله من الوحشة والخلاف مثل ما وقع بين المقتدر
ومؤنس ولكن رجال القاهر كانوا اكثر عددا فكانت عصبهم مؤلفة من
اربعة : مؤنس الخادم وبلق الحاجب وعلى بن بليق وابن مقله الوزير مجود
الحظ المشهور . فاجسوا منه شرا واقاموا بدار الخلافة ابن زيرك لملاحظة
كل داخل وخارج وشددوا المراقبة حتى فتشوا النساء . ويحكى انه حمل الى
القاهر ابن فادخل ابن زيرك يده فيه مخافة ان تكون فيه رسالة .

لجأ القاهر الى الخداع ولدهاء وتمكن بمهونة «الساجية» وهم فرقة من
الجيش من مقاومة خصومه الذين كانوا عقدوا النية على عزله . ولكنه استطاع
بفضل ثبته وبث عيونه ان يستدرك الامر قبل استفحالته فقبض على بليق
وابنه ومؤنس فأمر بذبح ابن بليق فذبح ووضع رأسه في طست ثم مشى القاهر
والطست محمول أمامه حتى دخل على بليق فوضع الطست بين يديه وفيه رأس
ابنه فلما رآه بكى ثم أمر الخليفة بذبح بليق فذبح ووضع رأسه في الطست
وحمل أمام القاهر ومشى حتى دخل على مؤنس فأمر بوضع الرأسين أمامه فلما
رأهما تشهد ثم أمر الخليفة بذبحه فذبح وأمر بالرؤوس فطيف بها في جانبي
بغداد ونودي عليها « هذا جزاء من يخون الامام ويسعي في فساد دولته » ،
اما ابن مقله فانه اختفى ليعمل على خلع الخليفة فتوصل الى غايته باغراء بعض
الجند الذين هاجموا دار الخلافة وقبضوا على الخليفة وسملوا عينيه (فقووها
بحديدية محماة في النار) ويروى أن القاهر كان يعد يده للسؤال في آخر ايامه
بعد أن تولى الخلافة سنة واحدة وسبعمائة اشهر . وفي ايام القاهر هذا ابتداء

في بادئ الامر الا التسلح بسلاح غير المسلمين في الجدل والمناظرة حتى يكون الحجاج بين
الخصميين على منهاج واحد (١) - واطلاق انواع من الحرية لم تكن تهبها الامة من قبل

سلطان بني بويه الثلاثة وهم على المشهور ابنا رجل من الديلم يعرف بأبي شجاع بويه .
وبعد خلع القاهر اخرج ابن المعتدر من محبسه بويح بالخلافة سنة ٣٢٢
واقب بالراضى بالله فاستوزر ابن مقله . وكان اكثر الولاة قد امتنعوا عن
ارسال المال الى مقر الخلافة لضعف هيبتها في نظرهم . وعجز الوزراء عن تدبير
الأمور بدون اموال فاضطر الخليفة الى تولية ابن رائق الوزارة و امارة الجيش
على شريطة ان يقوم بالنيقات . فكان ابن رائق قد اخذ المملوك « مقاوله »
كما نقول اليوم . وكان ابن رائق هذا والياً على واسط من قبل وكان يسمى
للوزارة سعيماً مستمراً . ولقبه الخليفة بامير الامراء وفوض اليه امر الخراج
في جميع البلاد وامر بان يخطب له على المنابر .

ولما تولى ابن رائق امارة الامراء استبد بالخليفة وضيق عليه وترجع عند
ابن رائق ان ابن مقله يكتب الخليفة يغريه بخناع امير الامراء فقطع ابن رائق
يد ابن مقله فلما برئت عاد الى المسكينة وكان يشد القام على يده المبتورة فقطع
بن رائق لسانه وحبسه في محاس ضيق الى ان مات سنة ٣٢٨ .
(راجع أيضاً ما قيل عن القهرمانية في كتب التاريخ)

(١) أن نقل العلوم الأجنبية من يونانية وفارسية وهندية وغيرها الى
اللسان العربي قد شغل الامة الاسلامية وأثر في طريقة تفكيرها حتى كاد يقطع
الصلة بينها وبين طريقها الاصلية المتبعة في علم القرآن والحديث واللغة وغير
ذلك من العلوم العربية لاسلامية بطابعها . وعلى تقادم الايام صارت طريقة
البحث في هذه العلوم الاهلية هي نفس طريقة البحث في العلوم الجديدة
الدخيلة في الاسلام حتى ان أثبات وجود الله وصفات رسله وغير ذلك من
مباحث التوحيد وهي المسائل الاسلامية البحتة صارت لاتدرس ولا يفصل
فيها الا على مقتضى منهاج ارسطو واساليبه . ولقد صدق الخطيئة في قوله
« لكل جديد لذه . . . » كما صدق شاعرنا ابو الطيب في قوله « . . . وفي

وانشاق العناصر المختلفة ونحاصم العرب والفرس — كل هذه الظروف ساعدت بعض

الأذة الحنف « فقد تسابق الناس الى اقتناء ما نقل من الكتب الاجنبية وانكبوا على دراستها والتفكير فيها والتعليق عليها . وكانت نتيجة ذلك ان انتشرت التعاليم الوثنية التي هجمت على ملك الاسلام من جميع جهاته . ولم يكن نقلها وحده الى اللسان العربي هو الذي ساعد على انتشارها ورواجها ولكن انتقال أهلها الى الاسلام هو الذي غرس أسوأها في الوسط الاسلامي فابتعت وانمرت : اذ ذلك عرف الاسلام فرقائتي ومذاهب مختلفة عضدها أنصار أقرباء من أهل العلم والجاه وفاضت فيها المائشيات في حلقات الدروس واندية الامراء ولا أظن الا انها تنزلت الى العمامة والسوقة فعرف الناس الحلول والثنوية وامرار الباطنية وتأثير الافلاك وفعل النفس الكلية وتمدد المدبرين لا يكون الى غير ذلك من المبادئ الخطيرة . ولا ينبغي في هذا المقام ان اغفل مسألة خالق القرآن التي كان لها اسوأ وقع في قلوب المسلمين لما أصاب أئمتهم من جرائمها من الاذى والامتهان . وأنى مع اعترافي بقصوري وعجزى عن مجازاة أصحاب الكلام لا أرى في المسألة اكثر من ان احد المسلمين اراد ان يفهم القدم والحدوث حسب أقوال اليونان ويستدل على رأيه بمثال في الاسلام فلم يجد غير القرآن . ولو كان هذا الكتاب الكريم جاء الى المسلمين من بلاد الروم محررا على أسلوب تلك الامة وعلى مقدار درجه أفهامها وعلى حسب مناهجها في التفكير لما وقعت تلك المشكلات التي كان من الواجب ان تنتهي في حلقات الدروس ولا تتمدها الى المحاكمات وتطبيق العقوبات ولا احسب قول ابن تيمية الحنبلي في عبارته المشهورة الا صدى يردد ما كانت تقوله الامة الاسلامية في وقته « ما اظن ان الله تعالى يغفل عن الماء ون العباسي ولا بد أنه يعاقبه على ما ادخل على هذه الامة ، وامثال هذه الشكاوى كثيرة في تاريخ الحكمة والحكام ولا محل للإشارة اليها باكثر مما تقدم . وموضع العجب عندي ان المسلمين روجوا كل الوثنيات الاجنبية بين هندية وفارسية ويونانية وغيرها وذلك بنقل كتبها ودرس مذاهبها . فما كان اولاهم ان كان ولا بد من ترويج الوثنيات — ان يروجوا الوثنية العربية الجاهلية التي

الخارجين على الدولة الكبرى فاتقبحم ذلك الملك السابع الى ذواتهم صغيرة منحوطها دائرة الاسلام وتربطها رابطة التوحيد دون غيرها (١)

دفنوها ولم يبقوا منها باقية ولم يحفظوا من آثارها ما يجوز ان يستعينوا به على فهم بعض المسائل التاريخية أو اللغوية او ما شاء كل ذلك وبالجملة فقد انتهى امر المسلمين في العبادات بترك المأمور به وارثكباب المهسي عنه كما آل امرهم في العقيدة الى الزيف والاضطراب والتردد بين كل هذه الافكار المختلفة المتناقضة المتنافرة

(١) بقيت الممالك الاسلامية ، بفضل الطبائع البشرية والفرائز القطرية ، تنازع الملك وتزاحم على السباطان خيماً يأخذ منها النهم مأخذه فيتابع بعضها البعض ويستولى ذو البأس على الضعفاء بفضل حوله وقوته وحينئذ تعدد التخممة بندي الجشع بعد ان يتلىء بطنه الكبير فتأخذه سنة أو نوم لا يفيق منها الا والساھر الحذر قد ارتفع مكانه وتدعمت اركانه . وبهذه المثابة اصبح الاسلام وهو مبدأ التوحيد مظهر الكثرة والتعدد بما لكه المختلفة التي تزداد يوماً فيوماً بين خلافة ودولة وامارة وخانينة وغير ذلك من الانساب وما اصدق الشاعر حين يقول :

وتفرقوا شيعاً فكل محلة فيها امير المؤمنين ومنبر

وصل الحال بطلاب الملك الى اتخاذ اوهى الاسباب لادعاء الاحقية في الخلافة وكان ما كان من امر الجمعيات السرية الداعية الى مبايعة بقايا اهل البيت لارجاع السيطرة والسيطان الى ابناء الفرس . فقد قام العجم بنصرة افراد من بيت النبوة وأسسوا بواسطتهم ملك ودولا وكان ظاهر دعواهم رد الخلافة لاصحابها الشرعيين وباطنهم اجياد مجد المرس واسترداد ملكهم الذي استولى عليه الاسلام . والدولة العباسية نفسها ا كبر دليل على ما اقول فانها نهضة فارسية بدعوى اسلامية . وفي هذا المثال أيضا كان الدين طريقا لطلب الملك واذا استعرضنا الممالك التي عرفها الاسلام واستنظت بظله الى أيام ابى الطيب رأينا اسما عجيبة من أمثال دولة الادارسة العلوية في الغرب ودولة الاغالبة

والتاريخ كقيل باثبات ما تقدم لمن شاء اقامة الحجة فنيبه تستعرض دول
وأمارات تقوم ونسقط وخلفاء تتولى بالأمر ثم تسقط في الغد ووزراء يسرون
الخلفاء حسب اهوائهم وخدم يتدخلون في شؤون الملك ونساء تتحكم في مقدور
الأمة ومصيرها الى غير ذلك من دواعي التفريق والاضمحلال
فلا عجب ان ظهر في مثل هذه الظروف متبؤون ومتألهون يطالبون الملك من
وراء هذه المظاهر كبابك الخرمي والمقنع الخراساني وصاحب الزنج والقرامطة
وغيرهم ()

في تلك البلاد أيضا والدولة العلوية في طبرستان والدولة الصفارية في هرات
وغيرها والدولة الطولونية في مصر والشام والدولة السامانية في خراسان ودولة
بنو حمدان في الموصل وحلب والدولة الأخشيدية بمصر والشام والحجاز وملك
بنو بويه في بغداد ، هذا عدا الإمارات الصغيرة التي لم يزل عهدا ، وكذا
الدولة الأموية في الأندلس التي انقسمت الى إمارات صغيرة وادى بها هذا
الانقسام الى الاندثار شيئا فشيئا حتى سقطت بأكملها في أيدي المسيحيين
(١) ان اصحاب البدع من المتنبئين والمتألهين لم ينقطع ظهورهم من حين
انتقال المصطفى صلى الله عليه وسلم الى الرفيق الأعلى حتى ايامنا هذه فكان
في مقدمتهم مسيلمة الكذاب وسجاح ولكنها لم يفلحوا في الدعوة لقرب عهد
المسلمين بنبيهم وثبات ايمانهم وقوة يقينهم ولتشديد الخلفاء على الرعية في أمر
الدين والعبادات وعدم انتشار الجدل والمباحثات فلما كثر دخول الامم
المختلفة بين نصارى ويهود ومجوس وصابئة في الملة الاسلامية مزجوا معتقداتهم
بالدين الحنيف واخذت قوة الأيمان تنزع في قلوب الناس خصوصا وقد
بعد عهدهم عن الرسول الامين واصحابه والتابعين واستحال الدين من
عقيدة وایمان الى علم وصناعة .

ولما ازداد الفساد في بغداد بانتشار المدنية والحضارة قام رجال من اولى
النخوة الدينية سنة ٢٠١ هـ والفوا طائفة اطاقت على نفسها اسم « المتطوعة »
للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

الا أن الأدب قد أحاط بكثير من هذه الحوادث لما حواه من الأقوال

وقام بمثل هذا العمل جماعة الحنابلة سنة ٢٢٣ هـ لما راوا شيوع المنكرات وظهور الفساد في الأرض بما كسبت أيدي الناس فانهم كانوا يهاجمون بيوت الرؤساء والعامّة فاذا وجدوا مسكراً أراقوه أو مغنية ضربوها وكسروا أدوات الطرب الى غير ذلك .

وفي ذكر هذين المثالين اوضح دليل على ما وصل اليه الناس من ضعف الدين . من اجل ذلك سهل على اصحاب البدع اكتساب الاعوان والانصار والسير في الدعوة بطرق منتظمة . واثى مورد حديث بعض هؤلاء بكل الجواز على سبيل التمثيل :

المقنع — ظهر في خراسان في خلافة المهدي العباسي حوالي سنة ١٦٠ رجل من أهل مرو اسمه «حكيم» ادعى الألوهية وكان يضع على وجهه قناعاً ذهبياً شبيهاً بما يلبسه الأفرنج في اعياد المرافع «الكارنافال» ولذا سمي المقنع ولعله كان يضع ذلك القناع على وجهه ليخفي عينيه العوراء . وكانت عاقبة أمره ان تناول السم هو واهله عندما حاصره جيش الخليفة والى بنفسه هو واصحابه في النار ليعرجوا منها الى السماء .

بابك — وفي خلافة المأمون سنة ٢٠١ ظهر بابك الخرمي المجوسي واستولى على طبرستان واستفحل أمره الى أيام المعتصم . وقد قبض عليه بطبرك الارمن وهو هارب باهله الى بلاد الروم . فاستحضر الخليفة سيف بابك نفسه وأمره بقتل مولاه ثم ارسل رأسه الى خراسان وصاب جسمه في سامرا وكان ذلك سنة ٢٢٣ .

صاحب الزنج — وفي خلافة المهدي سنة ٢٥٥ ظهر صاحب الزنج بالبصرة والتف حوله ارنوج لأن مقرهم كان في تلك البقعة وادعى علم الغيب وشايعة خلق كثير ولم تسترح البلاد من أعماله الا في أيام المعتمد سنة ٢٧١ حيث اقتصر عليه اخو الخليفة وقتله وأرسل رأسه الى بغداد

القرامطة — وفي خلافة المعتمد سنة ٢٧٨ ظهر امر القرامطة في سواد الكوفة وهم من الباطنية الحلوية ورأسهم حمدان قرميته فعاثوا في الأرض

المحفظة نظماً ونثراً فهو من هذه الناحية يفتات على التاريخ أو على الأقل يزاخه

فسادا وظهرت لهم اعمال منكورة في ايام المعتمد سني ٢٨٦ و ٢٨٧ و ٢٨٩ .
ابو الفوارس — وفي هذه السنة الاخيرة قبض على أحد زعمائهم المسمى
ابا الفوارس الذي جرت بينه وبين المعتمد محاوراة مشهورة في احقية الخلافة
للعباسيين . واني ذاك طرفاً منها على سبيل الاستطراد . قال ابو الفوارس
مخاطباً الخليفة : ان النبي صلى الله عليه وسلم مات وابوكم العباس حي فهل
طاب الخلافة ؟ ام هل بايمه احد من الصحابة على ذلك ؟ ثم مات ابو بكر
واستخاف عمر وهو رى موضع العباس ولم يوص اليه . ثم مات عمر وقد جعلها
شورى في ستة أنفس ولم يوص الى العباس ولم يدخله فيهم فماذا تستحقون
الخلافة وقد اتفق الصحابة على دفع جدك عنها ؟ فامر به الخليفة فقتل شر
قتله .

صاحب الشامة — وفي ايام المكتفي سنة ٢٩٠ ثار القرامطة في دمشق
فقتل الجنيد زعيمهم المعروف بالشيخ فرأس القرامطة اخاه الذي سمي نفسه
« احمد » واظهر شامة في وجهه وادعى انها آية وتسمى بالمهدى امير المؤمنين
المدثر — وجعل صاحب الشامة ولاية عهده الى عمه عبد الله ولقبه بالمدثر
مدعيانه هو المشار اليه في القرآن الكريم . ثم دارت الدائرة على القرامطة
وانتهى الأمر بقطع رأس صاحب الشامة وطيف بها في اسواق بغداد .

ذكرويه — وفي سنة ٢٩٤ هجم القرامطة على الحجاج في طريق العراق
فقتلوا زهاء عشرين الفا ونهبوا اموالا كثيرة فقَاتلهم الخليفة المكتفي واصر
زعمبهم ذكرويه جريحاً فمات بعد ايام وارسل الخليفة رأسه الى بغداد حيث
طيف بها في الاسواق .

الحجر الاسود — وزادت فتنة القرامطة في خلافه المقتدر سنة ٣١٢
وسنة ٣١٧ فامتنع عدد عظيم من المسلمين عن اداء فريضة الحج سنوات
متواليات وارتكب القرامطة من الفظائع ما تقشعر من هولته الابدان فقتلوا
الحجاج في بيت الله الحرام يوم التروية ورموا القتلى في بئر زمزم واقْتلع ابو
ظاهر زعيم القرامطة الحجر الاسود ونقله الى هجر حيث بنى نيفاً وعشرين

في بحاله ففيه أشعار الخلفاء الذين ذاقوا غضاضة الأسر في قصورهم وليس لهم إلا
أسماء تذكر على المنابر . وخير من ذلك أو شر منه ان شئت تعريض الشعراء ببعض
الخلفاء ومصادقه أشعار دعبيل الخزاعي « شتام الخلفاء » في ابراهيم بن المهدي (١)

سنة ولم يرجع الى مكانه الا في خلافة المطيع سنة ٣٣٩ وقال القرامطة يومئذ
« انا قد اخذناه بأمر ورددناه بأمر . وكانوا اقتسموا كسوة الكعبة فيما
بينهم . هذا مختصر ما كان من امر اصحاب البدع ذكرته على حد قول ابي الطيب
« اعدت منها ولا اعددها »

(١) ان اشتغال الخليفة بالشعر والموسيقى قد أغرى به الشعراء حتى ظنوه
من نظرائهم وتلاشت من امام اعينهم صورة الخلافة وهيبة الحكم والسلطان
« بولع ابراهيم بن المهدي ببغداد وقد قل المال عنده وقد لجأ اليه الاعراب
من السواد وغيرهم من الأوغاد فاحتبس عليهم العطاء فسوتفهم ابراهيم وهم
لا يرون تسويتهم حقيقة حتى خرج رسوله اليهم يوما وقد اجتمعوا وضجوا فصرح
لهم بأنه لا مال عنده . فقال غوغاء بغداد اخرجوا اليها خليفة متناينى لأهل هذا
الجانب ثلاثة أصوات فيكون عطاهم ولأهل ذلك الجانب مثاها فانشد دعبيل :

ياممشر الأجناد لا تقنطوا	وارضوا بما كان ولا تسخطوا
فسوف تعطون حنينية	ياتيها الامر والاشط
والمبديات لقوادكم	لا تدخل الكيس ولا تربط
وهكذا يرزق قواده	خليفة مصحفه اليربط

(حنينية : نغمة، أنشودة - المبديات : أصوات معبد المغنى - اليربط : العود)

ويقول دعبيل ايضا في ابراهيم بن المهدي

نمر ابن شكلة، بالمراق واهله	فمنا اليه كل اطلس مائق
ان كان ابراهيم مضطامسا بها	فالتصلحن من بعده لمخارق
ولتصالحن من بعد ذلك لزلزل	وانصالحن من بعده للمارق
اني يكون وليس ذلك بكان	يرث الخلافة فاسقا عن فاسق

(شكلة : اسم أمه - مخارق وزلزل والمارق : مخنون) - نقل عن

مؤاسم الأدب ، وه ابن خالكان

والمأمون (١) وفي الأُدب أيضاً ترى شكوى الوزراء من الخلفاء كقول ابن مقلة (٢) وشكوى
الادباء من الوزراء كالصولي من ابن الزيات واقوال اخرى فيمن تجاوزوا حدودهم (٣)

(١) أيسومني المأمون خطة جاهل ؟ أو مارأى بالامس رأس (محمد) ؟
انى من القوم الذين سيفهمهم شادوا بذكرك بعد طول خوله
قنات أخاك وشرفتك بمقعد واستنقذوك من الحضيض الاوهد
(محمد الامين أخو المأمون)

(٢) قال ابن مقلة بعد ان قطعت يمناه «و يد خدمت بها الخلفاء وكتبت
بها القرآن الكريم دفعتين تقطع كما تقطع أيدي اللصوص»، وقال :

ما سئمت الحياة لكن توتة ت بأيمانهم فيبانت يميني
بعث ديني لهم بدنيائي حتي حرموني دنياهمو بعد ديني
ولقد حطت ما استطعت بجهدى حفظ أرواحهم فما حفظوني
ليس بعد اليمين لذة عيش يا حياتي بانت يميني فيبيني

(٣) محمد بن عبد الملك الزيات توزير للمعتصم والواثق واخترع آلة للتعذيب
(هى تنور من حديد داخله مسامير مثبتة يوضع فيها المذنبون) وعندما كان
يسمع استغاثة المعذبين يستمطرون رحمة كان يجيبهم بقوله « الرحمة خور
فى الطبيعة»، فلما تولى المتوكل الخلافة وكان بينه وبين ابن الزيات شيء فى
الصدور نكب ابن الزيات وصادر أمواله وأمر بتعذيبه فى تلك الآلة المشؤومة
وقيل له وهو يستغيت « الرحمة خور فى الطبيعة»، وابن الزيات هذا هو
الذى يقول فيه ابراهيم بن العباس الصولى الكاتب المشهور وكان ابن الزيات
قد تغير عليه لما وزير

وكنت أخى باخاء الزمان فلما نبا صرت حربا عوانا
وكنت اذم اليك الزمان قاصبت فيك اذم الزمانا
وكنت اعدك للنائبات فها أنا اطلب منك الأمانا

مثال آخر - وزير المقتدر ابو على محمد بن يحيى بن خاقان الذى تحكم فيه
أولاده وسيروه كما شاءت أهواؤهم وكانت الرشوة هى الشفيح المشفع لديه
فى الدوايه والعزل وما اصدق قول النعاير فيه

وكذلك ترى فيه صورة الحرب الشمواء بين ظلال الخلافة وفي شعر أبي
فراس الحمداني ما يمثل الشتام التي كانت تهدي الى الخلفاء جهارا نهارا (١)

وزير قد تكامل في الرقاعة يولي ثم يعزل بعد ساعة
إذا أهل الرشي اجتمعوا عليه فخير القوم او فرهم بضاعة
وبهذه المثابة افتات الوزراء على حقوق الخلفاء الذين تركوا حبل
الامور على غاربها واستسلموا الى اهواء انفسهم اما اتكالا على وزراءهم وكان ذلك
في أول الامر واما خوفهم فكان ذلك ودد الامر مدبره، ولو تسامحنا قليلا مع ابي
بن برد رأينا له بعض الحق في قوله في الخليفة المهدي ووزيره يعقوب بن داوود
بن امية هبوا طال نومكمو ان الخليفة يعقوب بن داوود
ضاعت خلافتكم يا قوم فالتمسوا خليفة الله بين الزق والعود
وهذا ينطبق على الحالة الاولى حينما كانت الامور تجري تحت اشراف
الخلفاء أما الحالة الثانية التي نخضع فيها الخلفاء مرغمين فصدقا قول الشاعر

خليفة في قصص بين وصيف وبنينا
يقول ما قال له كما تقول البينا

وقيل هذا الشعر في الخليفة المنتصر بن المتوكل الذي كان قد عقد
ولاية المهدي من بعده لاختوبه المديز والمؤيد ولكن وصيفا وبنينا القائدين
المشهورين اللذين كانت لهما الزعامة والسيادة طلبا الى الخليفة خلعهما وتولية
ابنه فامتنع في أول الامر ولكنه اذعن لارادة قائديه على كرهه، ثم أوبى بالاحرى
خوفا منها فدعا اليه أخويه وقال لهما "ترباني خلعكما طمعا في أن أعيش
حتى يكبر ولدي وأبايع له . والله ما طمعت بذلك ساعة قط ولكن هؤلاء
(واشار الى مواليه) الحوا على في خلعكما،"

(١) ابو فراس يرد على قصيدة لابن سكرة الهاشمي . وكلامهما من معاصري
المتنبي . أنتصاراً لبني عليّ على بني العباس

بالرجال اما لله منتصر من الطغاة ولا للدين منتقم
بنو عليّ رعايا في ديارهم والأمر تمامك النسوان والخدم

ففي الأدب والتاريخ مما نرى صورة العصر الذي ظهر فيه أبو الطيب وليس
بمستغرب أن تكون . طامع شاعرنا جهال هذه الصورة قد طوعت له الخروج فظن أن
النبوة أقل يؤنة وأن تأثيرها أفضل في النفوس فكان من أمره ما كان

نبوة أبي الطيب في كتب الأدب

ورد في كتب الأدب والتراجم عن نبوة أبي الطيب كلام مضطرب ، مثلت
لا يستطيع المطلع عليه ان يخرج منه برأى قطعي . فقد جاء في ابن خلكان ما نصه
« وأما قبل له المتنبّي لأنه ادعى النبوة في بادية السماوة (١) وتبعه خلق كثير من

بنو علي مواليهم وان راعوا	لا يطفين بنى العباس ماكمهم
حتى كأن رسول الله جدمكم	اتقخرون عليهم لا ابالكم
وكم دم رسول الله عندكم	كم غدرة لكم في الدين واضحة
اظفاركم من بنيه الطاهرين دم؟	هأنتم آله فيما تزون وفي
وغيركم أمر فيهن محتكم؟	أى المفاخر أضحى في منابركم
وفي الخلاف عليكم يخفق العلم؟	وهل يفيدكم من مفخر علم
عند السؤال وعمالين ان عاموا	خلوا الفخار لعلامين ان سئلوا
ولا يضيغون في حكم اذا حكوا	لا يفضبون لغير الله ان غضبوا
ومن بيوتكم الا وتار والنغم	تبدو التلاوة من اياتهم أبدأ
« قف بالديار التي لم يعفها قدم »	اذا تلوا آية غني امامكم
شيخ المغنين « ابراهيم » أم لكم؟	منهم « عليه » أم منكم؟ وهل لهم
ولا بيوتهم للشمر معتصم	ماني بيوتهم للخمر معتصر

(١) السماوة — « . . . انما سميت السماوة لأنها أرض مستوية لا حجر
بها — والسماوة مائة بالبادية وكانت ام النعمان سميت بها فكان اسمها ماء
فسمتها العرب ماء السماء — وبادية السماوة بين الشام والكوفة — وقال السكري
السماوة مائة لكاب » (نقل عن معجم البلدان لياقوت)

والمشهور في كتب المتقدمين عن نبوة أبي الطيب أنها كانت في بادية

بني كلب (١) وغيرهم فخرج اليه اوقاف امير حمص نائب الأختبديبة فاسره وتفرق اصحابه وحبسه طويلا ثم استتابه واطلقة وقيل غير ذلك وهذا اصح ، (٢)
وجاء في مقدمة ديوان ابي الطيب المطبوع بمصر سنة ١٨٩٨ ميلاديه « وانما لقب بالمتنبي لانه ادعى النبوة في بادية السماوة وهي ارض بحمال الكوفة مما يلي الشام » وجاء في كتاب تاريخ آداب اللغة العربية تأليف جورجى زيدان
فطلب السيادة بالفتح فدعا الى بيته قوما من مريديه من ابناء سنة فبايعوه (ابن ومي ؟) وحين كاد يتم امر دعوته وصل خبره الى والى البلدة (اى بلدة ؟)

الهماوية ولكن الاستاذ هوار (Huart) الفرنسى مؤلف آداب اللغة العربية بالفرنسية يقول عن المتنبي « واسس ديناً جديداً في السهول المجاورة لمدينة « سماوة » الصغيرة الواقعة على شاطئ الفرات »

ويقول المكبرى في شرحه « والسماوة فلاة بين الشام والعراق »
وجاء ذكر السماوة في شعر المتنبي عند قوله

تركنا وراء العيس نجداً ونكبتنا السماوة والعراقا

وقال المتنبي ايضا في قصيدة يذكر فيها فتنة قام بها الاعراب ويشير الى

الحرب التي جرت ويمدح سيف الدولة

فذكرهم بالماء ساعة غربت سماوة كلب» في انوف الحزائق

(١) « بنو كلب » بطن من بجيلة من انمار بن اراش منهم الازد منهم الحجاج بن ذى العنق كان شريفاً في قومه وبطن من خثعم من انمار بن اراش وبطن من قضاة كان له من الولد ثور وكلداء وابو حباب قال ابن سعيد وبقيت كلب الآن في خلق عظيم على خليج قسطنطين منهم نصارى ومسلمون -
وبنو كلب بطن من العرب بنواحي منفوط مختلف فيهم - (نقلا عن كتاب : « مايعول عليه في المضاف والمضاف اليه »)

فالظاهر ان بنى كلب الذين قام فيهم المتنبي بالدعوة هم اصحاب المائة

المسماة بالسماوة كما يقول السكرى ويشير اليها المتنبي بقوله « سماوة كلب »

(٢) مقدمة المكبرى .

فقبض عليه وحبسه ولما فرغت يده من الفتح طلب ما هو ابعد منه فزعم انه
 نبى اعتمادا على بلاغة اسلوبه فخرج الى بنى كلب (ابن ؟) واقام فيهم وادعى
 انه علوي ثم ادعى النبوة وقال انه اظهر دعوته هذه اولاً في بادية سماوة ونواحيها . . .
 فلما شاع امره بين الناس خرج عليه لؤلؤ امير حمص من قبل الاخشيدية . . . (١) «
 ويغلب على ظني ان الخطاط او الغموض انما تسبب عن عدم معرفة الحوادث
 التاريخية مرتبطة متسلسلة وبعبارة اخرى معرفة السابق منها والمسبوق هذا من
 جهة . ومن جهة اخرى فقد ورد ذكر البادية غامضا او مكررا فتارة يقال بادية
 سماوة (السماوة) بالكوفة وتارة بادية بنى كلب بالشام . وجاء في الصبح المنبي
 عن حبيبة المتنبى مانصه « قال ابو الحسن محمد يحيى العلوي : كان ابو الطيب
 وهو صبي ينزل في جوارى بالكوفة وكان محباً للعلم والادب . فصحب الاعراب
 في البادية وجاءنا بعد سنين بدوياقحاً وكان تعلم الكتابة والقراءة . . . » (٢)
 والمشهور في كل التراجم ان ابا الطيب قدم الشام وهو صبي مع ابيه . والى
 الشام ينسب لانه تأدب بها وتعلم . ثم خرج الى البادية . فهذه البادية لا تكون
 بالطبع الا بادية الشام و يظهر ان جورجى زيدان ومن اخذ عنهم ارادوا ان يجمعوا
 بين الأقوال المختلفة ولكنهم لم يوفقوا الايضاحا وامل ابا الطيب قام بحركتين الاولى
 في بادية السماوة بالكوفة والاخرى في بادية بنى كلب بالشام اولعل الحركتين كانتا
 في الشام اولعله كان يعلن دعوته على طول الطريق بين الكوفة والشام . وهذا
 ما يفهم من القول المتقدم « ثم ادعى النبوة وقال انه اظهر دعوته هذه اولاً في بادية
 سماوة ونواحيها »

وقد اورد صاحب كتاب الصبح المنبي حكايات عن نبوة ابي الطيب يحسن
 ذكرها في هذا المقام . (٣) قال ابو عبدالله معاذ بن اسماعيل اللاذقي : قدم ابو

(١) ص ٢٤٥ ج ٢

(٢) ص ٦ ج ١

(٣) ص ٢٥ - ٣٢ ج ١

الطبيب المتنبى اللاذقية في سنة ٣٢٠ وهو لا عهد له وله وفرة الى شحمى اذنيه
فا كرمته وعضامته لما رأيت من فصاحته وحسن سمته فلما تمكن الأوس بيني وبينه
وخلوت معه في المنزل اغتنما لمشاهدته واقبسا من أدبه قلت له والله انك لشاب
خطير تصالح اناذمة ملك كبير . فقال ويحك أتدرى ما تقول ؟ أنا نبي مرسل . فظننت
أنه يهزل ثم تذكرت انى لم اسمع منه كلمة هزل قط منذ عرفته فقلت له ما تقول ؟
فقال أنا نبي مرسل . فقلت له مرسل الى من ؟ فقال الى هذه الأمة الضالة . قلت
تفعل ماذا ؟ قال املاء الدنيا عدلا كما ملئت جورا . قلت بماذا ؟ قل بادرار الارزاق
والثواب العاجل والآجل لمن أطاع وانى وضرب الالذق لمن عدى وأبى . فقلت له
ان هذا أمر عظيم أخاف منه عليك ان يظهر وعذله على ذلك فقال بديها

أيا عبد الآله معاذ انى	خفى عنك فى الهيجا مقامى
ذكرت جسم مطأى وانى	أخاطر فيه بالهيج الجسم
أمثلى تأخذ النكبات منه	ويجزع من ملاقاة الحمام
ولو برز الزمان الى شخصا	نلخصب شهر مفرقه حسامى
اذا امتلأت عيون الخليل منى	فويل فى التيقظ والمنام

فقلت ذكرت أنك نبي مرسل الى هذه الأمة افبوحى اليك ؟ قال نعم . قلت
فأنت علي شيئا مما أوحى اليك . فأتاني بكلام ما مر به منى أحسن منه فقلت وكم
أوحى اليك من هذا ؟ فقال مائة عبرة واربعة عشر عبرة . قلت وكم العبرة ؟ فأتى
بمقدار أكبر الآسى من القرآن . قلت فى كم مرة أوحى اليك ؟ قال جملة واحدة
قلت اسمع فى هذه العبارات ان لك طاعة فى السماء فمأى ؟ قال اجلس المدرار
لقطع أرزاق العمدة والفجار . قلت أتمجس فى السماء مطرها ؟ قال أى والذى فطرها
أما هى . معجزة ؟ قلت بلى والله . قال فان حبست المطر عن مكان تنظر اليه ولا
تشك فيه هل تؤمن بى وتصدقنى على ما أتيت به من ربى ؟ قلت أى والله . قال
سأفعل ولا تسألنى عن شىء بعدها حتى آتيتك بهذه المعجزة ولا تظهر شيئا من هذا
الأمر حتى يظهر بانتظار ما وعدته من غير أن تسأله . ثم قل لى بعد أيام أتمجس أنى

فخطر المعجزة التي جري ذكرها ؟ قلت أي والله . فقال لي اذا ارسلت اليك هذا العبد فاركب ولا تأخر ولا يخرج معك أحد . قلت نعم . فلما كان بعد أيام تغيبت السماء في يوم من أيام الشتاء واذا عبده قد اقبل فقال يقول لك سيدي اركب للموعد . فبادرت اني الركوب معه وقلت أين ركب مولاك قال الى الصحراء . وأشدت وقع المطر فقال بادر بنا حتى نستتر من هذا المطر مع مولاي فانه ينتظرنا بأعلي تل لا يصيبه فيه المطر . قلت وكيف عمل ؟ قال اقبل الى السماء أول ما بدأ السحاب الاسود وهو يتكلم بما لا افهم ثم أخذ السوط قادراً به في موضع مستنظر اليه واذا هو على تل بعيد عن البلد نصف فرسخ فأتيت اليه فاذا هو على تل ولم يصبه من ذلك المطر شيء وقد خضت في الماء الي ركة الفرس والمطر في أشد ما يكون ونظرت الى نحو مائتي ذراع في نحوها من ذلك التل ما فيه قطرة مطر فسلمت عليه فرد علي السلام فقلت أبسط يدك اشهد أنك رسول فبسط يده فبايعته بيعة الاقرار بنبوته فقال :

أي محل ارتقى ؟ أي عظيم اتقى ؟
 وكل ما خاق الله وما لم يخاق
 محتر في همتي كشجرة في مفرقي

وأخذت بيعة لاهلي ثم صبح بعد ذلك ان البيعة عمت كل مدينة في الشام وذلك بأصفر حيلة تعلمها من بعض العرب وهي صدحة المطر يصر فبهها عن أي مكان أحب وقد رأيت كثيراً منهم بالسكون وحضرموت والسكاسك من اليمن يفعلون هذا ولا يتعاضدون حتى أن أحدهم يصدح عن غنمه وابله وعن القرية لا يصيبها شيء من المطر وهو ضرب من السحر - وسألني المثني بعد ذلك هل دخلت السكون . قلت نعم . قال أما سمعت قولي

ملث القطر اعطشها ربوعا والا فامسها السم النقيما
 أمنسيفي السكون وحضر موتا ووالدني وكندة السيعا (١)

(١) و السكون : المذكورة في هذا البيت وردت في بعض نسخ الديوان والشرح بألفظ (الكاس) اسم محلة بالكوفة

فقلت من ثم استفاد ماجوزه علي طعام أهل الشام : — اه وعن الصبح المنبي
أيضاً « ومما كان يخرق به علي أهل البادية انه كان مشاءاً قوياً علي السير يسير
سيراً لا غاية بعده . وكان عارفاً بالفلوات ومواقع المياه ومحال العرب بها وكان يسير من حلة
إلى حلة بالبادية وبينهما مسيرة أربعة أيام فيأني ماء فيغسل يديه ورجليه ووجهه ثم يأتي
أهل تلك الحلة فيخبرهم بما حدث في الحلة التي فارقها ويوم أن الأرض تطوى له » —
هذه بعض حوادث معروفة رواها الناس أو علي الأقل تناقلها المتأدبون حتى لم
يبق شك في أن أبا الطيب ادعى النبوة بشكل ما . فلا معنى إذاً لمغالطات أهل
الأدب وحكاياتهم المخترعة عن نبوة أبي الطيب مثل قولهم قيل لأبي الطيب علي
من تنبأت ؟ قال علي الشعراء . قيل لكل نبي معجزة فما معجزتك ؟ قل هذا البيت
ومن نكد الدنيا علي الحر أن يرى عدواً له ما من صداقة بدت

وقالهم عن أبي الطيب أنه قال إنما لقبتم بالمتنبي لقولي

أنا ترب الندي ورب القوافي وسهام العدى وكيد الحسود

أنا في أمة تداركها الله غريب كصالح في ثمود

ما مقامى بأرض نخلة إلا ك مقام المسيح بين اليهود

حتى لكان أبا الطيب لم يقم بدعوة ما ولم يجتمع الناس حوله .

وهذه رواية أخرى مشهورة في كتب الأدب — والشعر المذكور في الحكاية

لم يرد في شرح العكبري وإنما ورد في آخر الديوان مع ذكر الحادثة : —

« ولما اشتهر أمر المتنبي وشاع ذكره بأرض « سلمية » من عمل حصن في بني عدى

قبض عليه ابن علي الهاشمي في قرية يقال لها كوتكين وأمر النجار أن يجعل في رجله

وعنقه قرمتين من خشب الصفصاف . قال المتنبي

زعم المقيم بكوتكين بأنه من آل هاشم بن عبد مناف

فاجبته مذ صرت من ابنائهم صارت قيودهم من الصفصاف (١) »

(١) وجاءت الشطرة الأولى من البيت الثاني برواية أخرى « مذ صرت

في ابنائهم متنبياً »

وهنا يجب أن تتساءل عما إذا كان الهاشمي هذا قد قبض على أبي الطيب من قبل لؤلؤ أمير حمص أو ان هذه حادثة أخرى خلاف التي تقدم ذكرها . أو لعل شاعرنا كان من أصحاب السوابق والمثردين يقضى كل يوم في سجن وقد تلقيت من أفواه من أثق بهم في هذا الفن وهم أساتذة في الأدب أقوالاً ظنية وكأها ترمى الى تبرئة أبي الطيب مما ينسب اليه وانه لم يدع نبوة ماولكن قوماً ادعوا عليه زورا وبهتاناً

وللاستاذ الاسكندري مثل هذا الرأي في نبوة أبي الطيب قال في كتابه «تاريخ آداب اللغة العربية في العصر العباسي» :

« ورأى أبو الطيب أن استتمام علمه باللغة والشعر لا يكون الا بالمعيشة في البادية فخرج الى بادية بني كلب وهو بعد فتي لا يزيد عمره على عشرين سنة فاقام بينهم مدة ينشدهم من شعره ويأخذ عنهم اللغة اذ كانت لانزال صحيحة بالبادية فعظم شأنه بينهم ونفذ أمره فيهم وكان الضاربون بمشارف الشام شديدي الشغب على ولائها فوشى بعضهم الى لؤلؤ أمير حمص من قبل الاخشيدية بان أبا الطيب ادعى النبوة في بني كلب وانه تبعه خاق كثير بحيث يخشي على الشام منه . فخرج لؤلؤ وحارب بني كلب وقبض على أبي الطيب وسجنه طويلاً ثم استتابه وأطلقه

« وهذا ما أراه ، وهو المقبول . . . الخ ، (٢)

قرآن أبي الطيب

يظهر أن أبا الطيب لم يكن أعد لتحقيق آماله غير اسانه فانشأ تلك العبر التي هدتها مائة عبرة وأربع عشرة عبرة — اذ اصححت رواية اللاذقي التي تقدم ذكرها — ولكنه لم يصلنا منها الا بضعة أسطر مسجوعة قد حكم عليها الأستاذ الاسكندري حكماً علي قدرها فقال « . . . ان أقل صملوك في بني كلب يرتجل خيراً منها » (٣)

وهذه هي : « والنجم السبار والفلك الدوار . والليل والنهار . ان الكافر لي اخطار .
امض علي سنتك . واقف اثر من كان قبلك من المرسلين . فان الله قانع بك زيغ من
الحد في الدين ، وضل عن السبيل » (١)

واني ارجح ان هذا القرآن من اختراع اهل الادب الذين يريدون السخرية
من كل مدعى النبوة . ولعل قرآن أبي الطيب من قبيل قرآن مسيلة الكذاب
وغيره ومن قبيل ما نقل الينا من الحكايات التي تروى بنص واحد عن اشخاص
مختلفين كقولهم دخل صبي على فلان مدعى النبوة وهو في محبسه فقل له « اصبر
كاصبر اولو العزم من الرسل » او قولهم ادعى فلان النبوة وقال ان النبي صلى الله
عليه وسلم بشر بنبوتى في قوله « لانبي بعدى » واسمي لا
واني ارى ان كل هذا تهكم وطمز يروى علي سبيل الفكاهة والمباينة

خرجنا من كل ما تقدم من الاخبار والروايات بصورة غامضة عن نبوة أبي
الطيب ولكننا خرجنا بشئ في الجملة « وشئ خير من لاشئ » فعرفنا ان أبا
الطيب ادعى نبوة مبهمه ، في جهة مجهولة ، بين قوم مشكوك فيهم وجاء بقرآن
لا نعلمه ، وقبض عليه ناس لا نعرفهم — والله اعلم !

ابو الطيب في سجنه

قد تفتن اهل القرون الماضية بلا استثناء في اختراع طرق تعذيب المذنبين
وأدوات الترويع في قاعات السجون والمطابق المظلمة ويعرف ذلك من تاريخ
أهل البيت والعلويين وما أصابهم من المحن ناهيك بتنوير ابن الزيات وما يروى
عنه ولكن البيان على كل حال غير كاف للوقوف علي معاملة المسجونين . وتاريخ
السجون في الدول الاسلامية المتقدمة غامض وقد حاولت ان اظفر بشئ من ذلك

(١) ورواية جورجى زيدان عن أبي علي بن حامد تختلف في آخر هذه

الفقرة « من الحد في دينه وضل عن سبيله »

ولكني مع الأصف الشديد لم اوفق الى ما يستحق الذكر

ان كتب الأدب والتراجم لا نحتوى كـ برشيء عن حبس ابي الطيب فلا
تجد فيها وصف قاعة سجنه ولا تفاصيل حياته ايام حبسه بل ولا تعرف المدة
التي قضاها في ذلك الاسر. على ان غالب من كتب في الموضوع قال «ولبت ابو
الطيب في سجنه طويلا» أو «زمانا» وجاء في كتاب جورج زيدان «تاريخ آداب
اللغة العربية» عند كلامه علي أبي الطيب « وخرج لؤلؤ... قتلته... وحبسه في
السجن دهرا طويلا » (١)

والظاهر أن ابا الطيب لم يمكث في السجن « دهرا طويلا » بحسب ما يفهم
من مدلول اللفظ . لأن الواقع غير ذلك فانه دخل السجن وهو شاب وخرج منه
عقب انشاده القصيدة التي استهطف بها الوالي ويفهم من قوله فيها انه كان لا يزال
فتي (بل لم تكن تجب عليه الصلاة بعد !) - واستشفع بأمه وبكاتها عليه في يتين
اخرين - كل ذلك من كلام الاطمان . هذا من جهة . ومن جهة أخرى فان تاريخ
حياته يمكن تقسيمه الى ادوار محدودة معينة بعد أن قصد رحاب الامراء المعروفين
أو اتصل بهم

فبعد أن خرج من السجن التجأ الى كثير من الامراء حتى وصل الى بدر بن
عمار سنة ٣٢٨ واذ عرفنا انه ولد حوالي سنة ٣٠٣ ثبت لنا انه كان يبلغ من العمر
عند التحاقه بذلك الامير ٢٥ سنة تقريبا والمشهور أنه حبس وهو في العشرين
من عمره قضى ما يقارب خمس سنوات بين السجن وبين ترده على امراء متعددين
مدحهم واقام في ذراهم

هذا ولو كان ابو الطيب قد مكث طويلا في السجن لكان قال كثيراً من
الشعر في هذا الباب لان الشعر اكثر ما يجيش به الصدر في مثل هذه الاحوال وخير
الشعر ما قاله صاحبه وهو مدفوع اليه من نفسه فتوحيه الروح المذبذبة الشاكية من

(١) من ٢٤٩ ج ٢ - هل دخل السجن طفلاً وخرج منه شيخاً ؟

ألم الأسر وظلمة الحبس وهي مشوقة إلى نعيم الحرية نحل بملاذها وتقديرها أحياناً
بأكثر مما تستحق

وما يتداول من شعر أبي الطيب الذي قاله في سجنه شيء لا يذكر : قطعة
قصيدة في أربعة آيات وقصيدة استعطاف إلى الوالي لا تبلغ الثلاثين بيتاً وقطعة
من أربعة آيات في استرحام الوالي أيضاً - فهل كان وجدانه محبوباً مثله ؟
وقد يجوز أن يكون الشاعر قال كثيراً من الشعر وهو في السجن ولكنه نفاه
من ديوانه لأنه خجل منه فيما بعد

الآن هذا القول لا يحتمل ما يوجه إليه من الاعتراض . فإذا كان الشاعر أراد
أن ينفي ما قاله بمناسبة حبسه لكان استبعد كل شعره في هذا الموضوع ولم يبق
منه هذه القطع الثلاث . هذا من جهة . ومن جهة أخرى فإن كل شاعر حريص
على شعره ولو كان سقياً . نعم أنه يخجل منه ويتلم من نسبه إليه ولكن يظهر أن بين
الشعر والشاعر صلة عصبية أو لحمية نسب لا يستطيع الشاعر أن يقطعها أو أن يفصمها
فمثل الشعر الرديء ، بالنسبة لقائله كمثل الولد السوء ، بالنسبة لأبيه يتأذى منه كلما رآه
ولكنه لا يقدر على التخلص منه

لعل القائلين بأن أبا الطيب لبث في الحبس « دهرًا طويلًا » يريدون بذلك
المبالغة أو أنهم نقلوا العبارة فزادوا عليها لفظة « دهر » ، وبهذه الزيادة أشبه الأمر
وأوقات الضيق أيًا كان نوعه تظهر لصاحبها طويلة مؤلمة كليل الشعراء
وساعات الانتظار وجلسات الثقلاء وما أشبه ذلك يتخيلها الأناس كأنها الدهر
لا أول له ولا آخر

يفهم من قصيدة الاستعطاف التي كتبها أبو الطيب وهو في السجن وبعث بها
إلى الوالي أن أبا الطيب كان معذباً في السجن وأنه كان موقوف الرجلين بقيد من
الحديد وكان مع جماعة من المجرمين فقد جاء في القصيدة قوله

أمالك رقي ومن شأنه هبات اللجين وعتق العبيد
دعوتك عند انقطاع الرجا ، والموت مني كحبل الوريد

فَعَوْتُكَ لَمَّا بَرَأَى الْبَلَاءَ وَأَوْهِنَ رَجُلِي ثَقُلَ الْحَدِيدُ
 وَقَدْ كَانَ مَشْبَهُمَا فِي النِّعَالِ فَقَدْ صَارَ مَشْبَهُمَا فِي الْقَيْوَدِ
 وَكُنْتُ مِنَ النَّاسِ فِي مَجْمَلٍ فَهَا أَنَا فِي مَجْمَلٍ مِنْ قُرُودِ
 وَلَا أَعْتَقُهُ أَبُو عَلِيٍّ الْهَاشِمِيُّ فِي قَرْيَةٍ (كَوْتَكِين) جَمَلٍ فِي رِجْلِهِ وَعُنُقِهِ خَشْبَتَيْنِ
 مِنْ خَشَبِ الصَّنِصَافِ

ويظهر أيضا أن حياة المسجونين في ذلك الوقت كانت حياة حرمان. أعني
 أن السلطة الحاكمة لم تكن تقوم بشؤون المجرمين كما تفعل الحكومات الآن
 ويقتضيه هذا من قول أبي الطيب الذي أرسل به إلى أبي دلف بن كنداج عند ما
 أهدى إليه هدية وهو في السجن وكان قد بلغه أنه ثلثه عند الوالي الذي اعتقله
 غير اختيار قبلت برك بى والجوع يرضى الأسود بالجيف

ومن هذه القطعة يتضح أيضا أن أبا الطيب كان يستغف بالسجن في أول
 هجده به ويوطن نفسه على عذابه فقال كما قال الشعراء من قبله في الصبر على الحبس (١)
 أهون بطول الثواء والتلف والسجن والقيود يا أبا-دلف
 كن أيها السجن كيف شئت فقد وطنت للموت نفس معترف
 لو كان سكناي فيك منقصة لم يكن الدر ساكن الصدف

وتلك نزعة من نزعات الشباب لا تلبث أن تهدأ وتزول شدتها حتى تضمحل
 وتفتى وتمحل مجازها الضراعة والاستغاثة والاستعطاف والاسترحام كما فعل شاعرنا
 في قصيدته التي وصف فيها عذاب السجن وختمها بطالب العفو بعد أن دافع عن
 نفسه دفاعا هو أشبهه بـ بطالب الرأفة، في اصطلاح هذه الايام فاعتذر بصغر سنه
 وبالغ وأغرق فقال انه لم يجب عليه الصلاة بعد فكيف يقام عليه الحد وزاد علي
 ذلك أنه وليد لا يحسن التعمود

(١) في كتاب المحاسن والاحداد للجاحظ فصل موجز بعنوان محاسن
 الصبر على الحبس كله مختار وإهم ما فيه قصيدة علي بن الجهم

تعجل في وجوب الحدود وحدي قبل وجوب السجود
 وقيل عدوت على المسلمين بين ولادي وبين القعود
 على أنه قد اعترف في هذه التصيدة بأنه نوى الفعل ولكنه لم يتم بتنفيذه فقال
 وكن فارقاً بين دعوى « اردت » ودعوى « فعلت » بشأ وبعيد
 ولما رأى أبو الطيب أن هذه القصيدة لم تجده نفعاً كتب إلى الوالي ثانية يستعطفه
 ويتوب على يديه ويسترحه بأنه غريب وبأن أمه تذوب عليه حزناً
 بيدي أيها الأمير الأريب لا لشيء إلا لأني غريب
 أو لام (١) لها إذا ذكرتني دم قلب في دمع عين يذوب
 ان اكن قبل ان رأيتك اخطأ ت فاني على يدك اتوب
 عائب عابني لديك ومنه خلقت في ذوى العيوب العيوب

انتهى هذا الدور المخجل من حياة أبي الطيب بان قبل الوالي ضراسته واستتابه
 واطاق سراحه فخرج من السجن وقد لصق به لقب المتنبي مع كراهته له وشدة
 جحوده وانكاره ما نسب إليه (٢)

أبو الطيب عند أمراء الشام

أقصد بهذا الفصل القصير أن أشير إلى أشهر من قصدهم أبو الطيب من
 أمراء الشام وعظماؤها إلى أن التحق بسيف الدولة . وبعد ذلك اعقد فصلاً خاصاً
 لسيف الدولة لأنه أولى الناس بابي الطيب وقد قضت الأجيال الماضية لكل منهما
 بحق الانتساب إلى الآخر فقال أهل الأدب سيف الدولة ممدوح المتنبي كما قالوا
 المتنبي شاعر سيف الدولة حتى لا يكاد الانسان يتصور احدهما حتى يقوم في ذاكرته
 خيال الآخر

(٢) لعل هذه الام هي جدته لأمه التي رثاها ؟ (ملاحظة) تقدم هذا
 البيت في ص ٩٠ معرفة فإزم التنبيه

(٢) الاسكندري - تاريخ أداب اللغة العربية في العصر العباسي ص ٢٧٧

ورؤوس القصائد في ديوان أبي الطيب تحمل أسماء كثيرين ممن قصدهم شاعرنا ولكن بعضهم أو بعبارة أصح السواد الأعظم منهم لم يكن لهم نصيب وافر منه بينما البعض الآخر - وهم قليلون - قد نالوا من مداح أبي الطيب وأشعاره المتنوعة في مناسبات مختلفة قدرا لا يستهان به

ويظهر أن أبا الطيب لم يتردد على كثير من بلدان الشام فإن غاية ما يعرف عن تنقلاته بحسب ما جاء في أشعاره أنها كانت بين طبرية والغور (اللاذقية) والرملة وانطاكية ويلاحظ المطالع علي ما كتب عن المتنبي أن هذه النقطة في تاريخ شاعرنا مختصرة كل الاختصار حتى أن كثيراً من المؤلفين يرون عليها سراعا ولا يعيرونها أقل التفات فينتقلون دفعة واحدة من ذكر سجن المتنبي إلى ذكر اتصاله بسيف الدولة مع أن هذا القسم من حياة شاعرنا يستغرق نصف شعره تقريبا وقد جاء فيه بكل طريقة وعجبية ولكنه كان إذ ذاك لا يزال حامل الذكر مجهول الفضل وكذلك لم يكن الأمراء الذين اتصل بهم ممن لهم شهرة واسعة أوصيت ذائع يساعد على ترويج شعر أبي الطيب في سوق الأدب ولكنه بعد أن اتصل بسيف الدولة شاع ذكره بفضل مكانة سيف الدولة

قال الثعالبي في « ينمية الدهر » (١) عند الكلام على أبي الطيب: « وكان قبل اتصاله بسيف الدولة يمدح البعيد والقريب ويصطاد ما بين الكركي والعندليب ويحكى أن علياً بن منصور الجاجب لم يعطه علي قصيدته فيه التي أولها

« بأبي الشموس الجانحات غواربا » ومنها

« حال متى علم ابن منصور بها عاد الزمان إلى منها تائباً »

« لا ديناراً واحداً فسميت الدينارية »

أما أمراء الشام وعظماؤها الذين طالبت إقامة أبي الطيب في ذراهم وكثرت أشعاره فيهم فأخص بالذم منهم الثنوخيين وبندر بن عمار وابن طفج وأبا العشائر بن حمدان.

أما التنوخيون فقد خلد ذكرهم وذكر الالاذقية بمرائيه التي قالها في محمد بن اسحق
وفي احداها الوصف المشهور « ما كنت احسب قبل دفنك في الترى »، الى أن يقول
« وحفيف اجنحة الملائك حوله وعيون أهل والالاذقية، صور » (٢)

وسأعرض لهذه القصيدة عند الكلام على شاعرية أبي الطيب . وقال في قصيدة أخرى
لك الخبير اغبري رام من غيرك الفنى وغيرى بنغير الالاذقية لاحق
هي الغرض الاقصى ورؤيتك المنى ومنزلك الدنيا وانت الخلائق

وأما بدر بن عمار الذي كان يتولى حرب طبرية من قبل ابن رائق سنة ٣٢٨
قد أكثر أبو الطيب من القول فيه وعلى الاخص في منادته على الشراب وشرب
معه وهي من المرات المعدودة التي شرب فيها أبو الطيب الخمر .

وكانت مدة اقامته عند الامير أبي الحسن بن عبدالله بن طنج بالرملة أشبه
أبالمنادمة وقد شرب فيها أبو الطيب الخمر وهي أيضاً من المرات المعدودة عليه . ومن
وجل ابن طنج فقط تفضل أبو الطيب بمدح القاسم طاهر بن الحسين العلوى .
سيجيء الكلام على هذه الحادثة في كبرياء أبي الطيب

أما أبو العشاء الحس بن على بن الحسين بن حمدان العدوى فكان د خاتمة
المطاف وفاتحة الالطاف ، كما يقول الحريرى . فم الذي بسر له سبيل الاتصال
بسيف الدولة وفتح له باب السعادة والشهرة . وكان أبو العشاء وقتئذ والى انطاكية
من قبل سيف الدولة

والحق أن أبا الطيب قد أجاد في مدح أبي العشاء وله في القصيدة المشهورة
الى مطعمها

اتراها لكثرة العشاق نحب اللمع خلقة فى الماني

ولا أبلغ اذا قلت ان هذا المطاع وحده يعدل ما أداه أبو العشاء لأبي الطيب

(١) جمع اصور : مائل الى الشيء لا يتعداه وفيها تورية مع اسم مدينة صور

من الجميل والمعروف . هذا عدا المدائح الأخرى التي لا تقل قيمة عن هذا المطلع
وانى أشير الى قطعة صغيرة تعد من حسنات أبي الطيب قالها في ابى العشائر وهو
قائم الى سفر :

الناس مالم يروك اشبهاء والدهر لفظ وانت معناه
والجود عين وانت ناظرها والبأس باع وانت يمناه
تنشد اثوابنا مدائحهم بالسن ماهن افواه
اذا مررنا على الاصم بها اغتته عن مسميه عيناه
ياراحلا كل من يودعه مودع دينه وديناه
ان كان فيما نراه من كرم فيك مزيد فزادك الله

ولاغرو ان يجيد أبو الطيب في مدح أبى العشائر فانه لا يقول لأحد من
الأمراء الأعاجم الذين لا يعرفون مكان الحسن في الشعر بل أنه يخاطب شاعراً
عربياً من الشعراء المجيدين

وقد وفي شاعرنا لهذا الأمير وفاء جميلاً بمقال طيب يجدر بي ان أشير اليه في
هذا المقام : في ديوان أبى الطيب قطعة شعرية صغيرة رأيت لها عنوانين مختلفين . وجدت
في طبعة ديوانه المتداوله « وكان ابو العشائر قد غضب على أبى الطيب فارسل
خلما ناله ليوقعوا به فاحقوه بظاهر حلب ليلا فرماه أحدم بسهم وقال خذه وانا غلام
ابى العشائر فقال ابو الطيب «...» ولكنى أرجح العنوان الآخر الذى وجدته في
شرح العكبرى ويفهم منه أن الحادثة وقعت عقب خروج ابى الطيب من مجلس
صيف الدولة ، بعد انشاده قصيدة « وأحر قباها »

وعلى كل حال فسواء كانت الحادثة عقب غضب ابى العشائر أو غضب سيف
الدولة فان المقام كان يدعو أبا الطيب الى الانفعال الفضى وبلغته الي العيب في
حق ابى العشائر ولكنه تقبل الأساءة بالاحسان على غير عاداته وهذا غريب جداً
من أبى الطيب ، أما الأيات فمنها ما يأتي : —

ومنسب عندي الى من أحبه وللنبل حولي من يديه حفيف
 فبيح من شوقي ومامن مذلة حننت واسكن الكريم ألوف
 فان يكن الفعل الذي ساء واحدا فافعله الآتي سررن الوف
 ونفس له . نفسي الغداء لنفسه واكن بعض المالكين عنيف
 فان كان يعني قتلها بك قاتلا بكفه فاقتل الشريف شريف

اشرت فيها تقدم الي بعض اعيان الشام الذين كانت لهم مع ابي الطيب صلة
 طويلة واغفلت غيرهم ممن يعدون بالمشرات وهم بين امراء ووجهاء وكتاب وقضاة
 واشراف ولكن لم تطل صلته بهم. ولو أن القصائد كانت تبقى معها فكري الاشخاص
 الذين قيلت فيهم لخلدت اسماء كثيرين من الناس . فكل منسب الي الأدب لا
 يجمل بيت ابي الطيب

وإذا أتتك مذمتي من ناقص فهي الشهادة لي بأني كامل
 من قصيدة المشهورة التي مطلعها « لك يامنزل في القلوب منازل » ولكنه
 لا يحفظ اسم القاضي الانطاكي الذي قيلت فيه هذه القصيدة - من أجل هذا
 يزعم كثير من الأدباء اذا سمعوا شيئاً حسناً من ابي الطيب أنه قيل في سيف
 الدولة خصوصاً اذا رأوا فيه ذكر السيف أو الحرب والحقيقة أن ذلك الشعر
 يكون قد قيل في غيره من اعيان الشام وامرائها . وانما جاء هذا الخلط من أن الأدباء
 قصروا شعر ابي الطيب تحمكاً وعناداً على شخص سيف الدولة وكافور فان رأوا
 مدحا قالوا هذا في سيف الدولة وان رأوا ذمما قالوا هذا في كافور مع أن ابا الطيب
 مدح كثيرين وذم كثيرين فيجب الرجوع الي ديوانه لاجتناب مثل هذا اللبس

وقبل أن نشرع في الكلام علي ابي الطيب في حاشية سيف الدولة ندع شاعرنا
 يحدثنا بنفسه عن نفسه ويصف حالة بؤسه ويأسه وتشرده في البلاد وسعيه وراء
 الرزق من هنا ومن هنا فنسوق شيئاً من اشعاره العكثيرة التي تفيض كآبة وشكوى

وحزنا وعتبا على الأيام وحقدا على الأقدار وطعنا في الناس الي غير ذلك مما يصدر
 عن انظارهم البلاد وضائق في وجوههم سهل الفوز في الحياة
 ضاق صدرى وطال في طاب الرزق قى قيامى وقل فيه قعودى
 ابدا اقطع البلاد ونجمى في نجومى وهمتى في سعوى

كأنى من الوجناء في ظهر موجة رمت بي بحارا ما لمن سواحل
 ينجل لى أن البلاد مسامى وأنى فيها ما تقول العواذل

لم اللبالي التى أخذت على جدنى بركة الحال واعذرتى ولا ألم

فمرت نيموك لا الوى على أحد احث راحتى القمى والأدبا
 اذاقى زمنى بلوى شرقت بها لو ذاقها البكى ما عاش واتعجا
 فالموت اعذرتى والصبر اجمل بى والبر أوسع والدنيا لمن غلبا

اظمتنى الدنيا فلما جئتها مسنقيا مطرت على مصائبها
 وحببت من خوص الركاب باسود من دارس ففدت امشى را كبا
 وجاء بنفس المعنى فى موضع آخر ينمت لعله بانها ناقة، وجاء بالثشبيه مفصلا فى الجزئيات :

لا ناقتى تقبل الرديف ولا بالسوط يوم الرهان أجهدها
 شراكها كورها ومشفرها زمامها والشسوع مقودها

ومهمه جبهه على قدمى تعجز عنه العرامس الذال
 بصارمى مرتد، بمخبرتى مجتزىء بالظلام مشتمل
 ادا صديق نكرت جانبه لم تعينى فى تركه الخيل
 فى سعة الخاقين مضطرب وفى بلاد من أختها بدل

عرفت نوائب الحدثان حتى لو انسبت لكنت لها قيبا

الفت ترحلى وجهات أرضي فتودبي والأريري الجلالا
فما حاولت في أرض مقاما ولا أزمعت عن أرض زوالا
على قاتي كأن الربيع نحتي أوجهها جنوباً أو شمالا

الله حال أرجبها وتخطني وأقتضي كونه دهرى وتمطلني
وكنت اذا بعت أرضاً بعيدة يبريت فمكنت السر والليل كأنه

أبو الطيب عند سيف الدولة (٣٣٧ - ٣٤٦)

لا ينسج المجال هنا لان أجيء على تاريخ سيف الدولة مفصلاً تفصيلاً ولكن
الانام يضطرنني لان أشير بالابحاز الى الامير العربي الشاعر الذي ظهر في دولة الاعاجم
وكثر وقائمه مع الروم وكان في نضاله مع المسيحيين وصد غاراتهم أشبه الناس
بصلاح الدين الأيوبي كما كانت غزواته أشبه الوقائع بالحروب الصليبية
ظهر بنو حمدان بالسيادة في الموصل وحلب الا أن سيف الدولة كان أشهرهم
بالنسبة لمقر أمارته في حلب وجواره للمملكة الرومية ودفاعه عن العواصم وانتسابه للأدب
« وكان سيف الدولة من أكثر الملوك حباً في الجهاد وله الفزوات الكثيرة في
أرض الروم وكان جمع ما وقع عليه من غبار الوقائع واوصى بأن تصنع منه لبنة يوضع
عليها رأسه في القبر، (١)

هذه الحكاية أقرب ما يكتب في الأدب عن التاريخ كما أنها خير ما ينتخب
من التاريخ المكتوب على أسلوب أهل الأدب وفيها صورة سيف الدولة التي تتراعى
على الدوام من خلال أشعار أبي الطيب

« كان أبو العشائر والى انطاكية من قبل سيف الدولة ولما قدم سيف
الدولة انطاكية قدم المتنبى اليه واثنى عنده عليه وعرفه منزلته من الشعر والأدب

(١) محول البلاغة - للسيد توفيق البكري - ورواية ابن خلكان : لبنة

بقر الكعب ... بوضع خده عليها في لحده فنفذت وصيته (ص ٥٢٢ ج ١)

« واشتراط على سيف الدولة أول اتصاله به انه اذا أنشده مدبجه لا يثبده
الا وهو قاعد وانه لا يكلف تقبيل الأرض بين يديه فنسب الى الجنون . ودخل
سيف الدولة تحت هذه الشروط وتطعم الى ما يرد منه وذلك في سنة ٣٣٧
ووحسن موقعه عنده فقر به وأجاز له الجوائز السنوية ومالت نفسه اليه وأحبه
فصلبه للرعايا فعملوه الفروسية والطاراد والمثاقفة ()

أني أكنى بهذه الأفعال الموجزة في الكلام عن اتصال أبي الطيب بسيف
الدولة وأرجم الى ديوان شاعرنا لأرى منه صورة هذا الأبروصلة بشاعره
في شعر أبي الطيب عن غزوات سيف الدولة روح دينية حربية تشابه روح
الشعر الذي قيل في عصر التوح الإسلامية الأولى . وهو كما أراد أن يتكلم عن
الروم وحلفائهم وعداوتهم لسيف الدولة صور النزاع قائما بين المسيحية والاسلام
وقل أن يذكر الدين والحرب منفصلين ولذلك فأنى سأذكر بعض ما قاله بدون
أن أجعل فاصلا بين شعره الديني وشعره الحربي في هذا الامر

انت طول الحياة للروم غاز فتي الوعدان يكون القفول ؟
وسرى الروم خلف ظهرك روم فلي أي جانبك تميل ؟

أبا الفمرات توعدنا النصرارى ونحن نجومها وهى البروج
وقينا السيف حملته صدوق اذا لاقى وغارته لجوج

أخا الحرب ! قد اتعبتها فإله ساعة ليغمد نصل او يحل حزام
وان طال أعمار الرماح بهدنة فان الذى يعمرن عندك عام
ومازات تفتى السمر وهى كثيرة وتفتى بهن الجيش وهو هام
متى عاود الجالون عاودت أرضهم وفيها رقاب للسيوف وهام
وربوا لك الاولاد حتى تصيبها وقد كعبت بنت وشب غلام

وكيف ترجى الروم والربس هدمها (١) وذا الطعن آسأس لها ودعائم
وقد حاكموها والمنايا حواكم فما مات مظلوم ولا عاش ظالم
واست مليكا هازماً لنظيره ولسكنك التوحيد للشرك هادم
والماء بين عجبتين مخلص رخص الامير وكالاجين حبابه
وتغرفان به وتجتهمان وثى الاثمنة وهي كالعقبان
قتل الحبال من الغدائر فوقه وبني السفين له من الصلبان
خضعت لمنصلك المناصل عنوة وأذل دينك سائر الأديان
وعلي الدروب وفي الرجوع غضاضة والسير ممتنع على الامكان
والطرق ضيقة المسالك بالفنا والدفر مجتمع على الايمان
سرايك تترى والدستق (٢) هارب واصحابه قلى وامواله نهبي
مضى بعدما تلف الرماحان ساعة كما يتاق الهدب في الرقدة الهدبا
ولكنه ولي وللطعن سورة اذا ذكرتها نفسه لمس الجنبيا
وخلى العذارى والبطاريق والقري وشعث النصرارى والقرايين والصلبا
لا يعتقي بلد مسراه من بلد كالوت ليس له رى ولا شعب
حتى اقام علي ارباض خرسنة تشقى بها الروم والصلبان والبيع
للسبي مانكحوا واقتل ما ولدوا والنهب ما جمعوا والنار ما زرعوها
مخلى له المرج منصوبا بصارخة له المنابر مشهودا بها الجمع
يطمع الطير فيهم طول اكلمهم حتى تكاد على احبائهم تقع
ولو رآه حوار يوم لبسوا على محبته الشرع الذي شرعوا
وفي الروم وحلفائهم :

يجمع الروم والصلقالب والبلغار فيها (٣) وتجمع الآجالا

(١) يشير الى مرعش (٢) قائد الروم (٣) في ثغر الحرث

وفي بعض المواضع نراه قد زاد في نعمته المعتادة ودخل الى تقد عقائد أعداء أميره في أمم بقطة وهي صاب المسيح عليه السلام والوهيته.

ويستنصران الذي يعبدان وعندهما انه قد صلب
ليدفع ماناله عنهما فيا للرجال لهذا العجب!

وفي هذه القصيدة انتقل الى مخطبة سيف الدولة وبقية قوله تدور حول المعنى الديني وتمجيد قوة اليقين مع التعريض بعبادة الأب والابن

أرى المسلمين مع المشركين اما لعجز واما رهب
وأنت مع الله في جانب قليل الرقاد كثير العطب
كأنك وحدك وحدته دان البرية بان واب

وفي موضوع اخر قال يهكم على امير الروم عند ما غلبه سيف الدولة فالتجأ الى الدير يتعبد وترك الحروب والفتارات

فاصبح يجتاب المسوح مخافة وقد كان يجتاب الدلاص المسردا
ويمشي به العكاز في الدير تائباً وما كان يرضى شئ اشقر اجردا
وما مات حتى غادر الكر وجهه جريحا وخلي جفنه النقم اهدا
فلو كان ينجى من علي زهب ترهبت الاملاك شئى وه وحدا
وكل امرى في الشرق والغرب بعدها يتد له نوباً من الشعر اسودا

قال ابو الطيب عند سيف الدولة حفوة عظامي اثارته عليه حسد زملائه من حاشية الامير و « كل ذي نعمة محسود » وقد اكثر ابو الطيب من ذكر ذلك المركز العالى الذي ناله لدى اميره كما اكثر من ذكر حساده والاستعداد بالامير في رد كيدهم عنه لانه هو الذي جلب عليه حقد هؤلاء الحساد ففي ذلك يقول

ازل حسد الحساد عنى بكتبهم فانت الذي صيرتهم لي حسداً

بلغت بسيف الدولة النور رتبة اوت بها ما بين غرب وشرق

إذا شاء أن يلهو بلحية أحق أراه غباري ثم قال له الحق
وما كد الحساد شيئاً قصده ولكنه من يزحم البحر يفرق
وما لكلام الناس فيما يرينى أصول ولا للقائليه أصول
اعادى على ما يوجب الحب للفتى وأهدأ والافكار فى تجول
سوى ومع الحساد داو فانه اذا حل فى قلب فليس يحول
ولا نطمئن من حاسد فى مودة وان كنت تبديها له وتنبيل
وقوله فى المتشاعرين

افى كل يوم تحت ضبى شوبير ضريف يقاوينى قصير يطاول ؟
لسانى بنطقى صادت عنه عادى وقابى بصمتى ضاحك منه هازل
واتعب من ناداك من لا تجيبه وانغيط من عاداك من لا تشاكل
وما التبه طبى فهم غير انى بغيض الى الجاهل المتعاقل
واكبر تهبى انى بك واثق واكبر مالى انى لك آمل
لعل لسيف الديلة القرم هبة يعيش بها حق ويهلك باطل

والظاهر ان ابا الطيب كان يحس من نومه بعلوم مكانته عند اميره وكان يشفق
بعض اشفاق على حساده ويلتمس لهم العذر فى حقدم عليه فى قوله
ولاحساد عنذران يشجروا على نظري اليه وان يندوبوا
فانى قد وصلت الى مكان عليه تحسد الحديق والقلوب

والمتنبى بيت جميل ضمن قصيدة قصيرة قالها فى سيف الديلة يستأذنه وقد خرج
الى اقطاع اقطعه اياه بناحية معرة النعمان . وفى هذا البيت اعتراف بأنواع مختلفة
من الخيرات التى كانت تدرّ عليه من اميره — قال
اسير الى « اقطاعه » فى « ثيابه » هلى « طرفه » من « داره » « بحسامه »

وهذا لا يمكن التوفيق بينه وبين قوله فيما بعد عندما غضب على اميره
وأنتكم لا يصون العرض جاركم ولا يدرك علي مرعاكم اللهن

وسرى شيئا من ذلك عند الكلام على اخلاق ابي الطيب
وبالجملة فقد قضى المتنبي عشر سنوات تقريبا في حاشية سيف الدرة وليس
في عصره من الشعراء من يدانيه في الفضل — كما يقول ابن رشيق صاحب كتاب
العمدة (١) — الا ابو فراس الحمداني احدا قربا بسيف الدولة — والظاهر ان ابو فراس
هو سبب الوحشة التي وقعت بين الامير وشاعره وكدرت ما بينهما من الصفاء
مدة من الزمان . واليك رواية الصبح المنبي في هذا الشأن :

« قال ابن الدهان في المآخذ الكندية من المعاني الطيبة قال ابو فراس لسيف
الدولة ان هذا المنسى كثير الادلال عليك وانت تعطيه كل سنة ثلاثة الآف
دينار على ثلاث قصائد ويمكن ان تفرق مائتي دينار على عشرين شاعرا يأتون
بما هو خير من شعره فتثر سيف الدولة من هذا الكلام . . . وكان المتنبي
غائبا وبلغته القصة فدخل على سيف الدولة وانشد

الا ما لسيف الدولة اليوم عاتبا	فداه الوري امضى السيف مضاربا
ومالي اذا ما اشتقت ابصرت دونه	تنائف لا اشتاقها وسبابا
وقد كان يدني مجامى من سمائه	احادث فيها بدرها والكواكبا
هذانيك مسؤولا اولىك داعيا !	وحسبي موهوبا ! وحسبك زاهيا !
اهذا جزاء الصدق ان كنت صادقا ؟	اهذا جزاء الكذب ان كنت كاذبا ؟
وان كان ذنبي كل ذنب فانه	عما الذنب كل المحوم جاء تائبا

فاطرق سيف الدرة ولم ينظر اليه كما دت فخرج المتنبي من عنده متفيرا وحضر
ابو فراس وجماعة من الشعراء فبلغوا في الوقعة في حق المتنبي واتقطع بعمل القصيدة
التي اولها

وأحرّ قلباه ممن قلبه شيم ومن يجسسى وحالي عنده سلم
وانشدتها وجعل يتظلم فيها من التقصير في حق كقولها

مالي اكرم حبا قد بري جسدي وتدعي حب سيف الدولة الامم
ان كان يجمعنا حب لفرته فليت الا بقدر الحب تقسم
قد زرته وسيوف الهند فهدية وقد نظرت اليه والسيوف دم
لهم جماعة بقتله في حضرة سيف الدولة لشدة ادلاله واعراض سيف الدولة
عنه فلما وصل في انشاده الى قوله

يا عدل الناس الا في معاني فيك الخصام وانت الخضم والحكم

فقال ابو فراس مسخت قول دعبل وادعيته وهو
ولست أرجو انتصافا منك ما ذرفت عيني دموعاً وانت الخضم والحكم
فقال المتنبي

أعيذها نظرات منك صادقة أن نحسب الشحم فيمن شحمه ورم
فعلم ابو فراس أنه يعنيه فقال: ومن انت يادعي كندة حتى تأخذ اعراض
أهل الا بر في مجامعهم؟ فاستمر المتنبي في انشاده ولم يرد عابه الى ان قال

سيعلم الجمع ممن ضم مجلسنا بأنني خير من نسعي به قدم

انا الذي نظر الأعمى الى أدبي وأسمعت كلماتي من به صم

فزاد ذلك غيظا في أبي فراس وقال سرقت هذا من عمرو بن عروة بن العبد

في قوله

أوضحت من طرف الآداب ما اشتكات دهرنا وأظهرت اغرابا وابداعاً

حتى فتحت باعجاز بخصصت به للعمى والعم أبصارا وأسماعاً

ولما وصل الى قوله

الخيل والليل والبيداء تعرفني والحرب والضرب والقرطاس والقلم

قال وما اقيت للأمبر اذا وصنت نفسك بالشجاعة والفصاحة والرياسة
والبهاجة؟ تدح نفسك بما سرقت من كلام غيرك وتأخذ جوائز الأمبر؟ اما سرقت هذا
من قول المهيم بن الأسود النخعي الكوفي المعروف بابن العريان العماني

اعاذتني كم مهميه قد قطعته اليك وحوش ما كنا غير هائب
 انا ابن الفلا والظمن والضرب والسرى وجود المداكي والقنا والفواضب
 حلیم وقور في البلاد وهبتي لها في قلوب الناس بطش الكتائب
 قال المتنبي

وما انتفاع اخي الدنيا بناظره اذا استوت عنده الأنوار والظلم
 قال ابو فراس وسرقت هذا من قول معقل العجلي
 اذا لم اميز بين نور وظلمة بعيني فالعينان زور باطل

ولمحمد ابن احمد بن ابي مرة المكي مثله
 اذا المرء لم يدرك بعينه ما يرى فما الفرق بين العمى والبصراء
 وغضب سيف الدولة من كثرة مناقشته في هذه القصيدة وكثرة دعاويه فيها
 وضربه بالدواة التي بين يديه فقال المتنبي في الحال
 ان كان سرکم ما قال حاءنا فما لجرح اذا ارضاكم ألم
 قال ابو فراس اخذت هذا من قول بشار
 اذا رضيتم بان نجني وسرکم قول الوشاة فلا شكوى ولا ضجر
 ومثله لابن الرومي

اذا ما انفجائع اكسبني رضاك فا الدهر بالفاجع
 فلم ياتفت سيف الدولة الى ما قال ابو فراس واعجبه يدت المتنبي ورضي عنه في
 الحال وادناه اليه وقل رأسه واجازء بان دينار ثم اردفها بانف اخرى فقال المتنبي
 جاءت دنانيرك مخزومة عاجلة الفأ على الف
 اشبهها فملاك في فيلق قلبته صفا على صف (١) ء

ويظهر ان بني حمدان او بعضا من اتباعهم كانوا قد تأمروا على ابي الطيب

(١) الصبح المنبي ص ٦٥ وما بعدها ج ١ - راجع العرف الطيب ليازجي
 في شرح قصيدة (واخر قلباه من قلبه شيم) واعتراضه على ما تقدم

وأرادوا اغتياله . وقد ظهر العدا . الصريح من أبي فراس الشاعر في المجلس الذي
نقدم وصفه .

وعقب انصراف المتنبي من ذلك المجلس ربما شخص بسهم . يقال خذه وأنا غلام
أبي العشائر ، هذه رواية المكبري . والرواية الأخرى ، المذكورة في طبعة الديوان
أقول بأن أبي العشائر كان غضب علي أبي الطيب فأرسل غلاماً له ليوقعوا به فلهذا
بظاهر حاب فرماه أحدهم بسهم وقال خذه وأنا غلام أبي العشائر .

وإني أرجح رواية المكبري لأن الصلة متينة بينها وبين الحكاية المقدمة
خصوصاً قول أبي فراس « ومن أنت يا دعى كعدة حتى تأخذ أعراض أهل
الأمير في مجامع ؟ » فاعل هذا القول هو الذي أثار غضب أحد الأنبياء ففعل ما فعل
هذا وإن غضب أبي العشائر على المتنبي غير معروف ومن الحكاية التي
سأسردها بعد يتضح أن أبا الطيب كان مدلاً على أميره وهذا الأدلالي غير مأمون
العاقبة خصوصاً إذا كان المدل كثير الحساد .

حكى أبو الفرج قال : كان أبو الطيب يأنس بي ويشكو من سيف الدولة
يأمنى على غيبتة له وكان بيني وبينه عامر دين باقي الشعراء . وكان سيف الدولة
يتناظر من تعاضمه ويحتمو عليه إذا كاهه والمتنبي يجيبه في أكثر الأوقات ويتفاضى
بعضها (١)

ويظهر أن الجفاء قد زاد شيئاً فشيئاً بين الأمير وشاعره وبذل على ذلك
الحكاية الآتية قال عبد المحسن بن علي بن كبوجك أن أباه حدثه قال كنت
بضرة سيف الدولة وأبو الطيب اللغوي وأبو الطيب المتنبي وأبو عبد الله بن خالويه
نحوي وقد جرت مسألة في اللغة تكلم فيها بن خالويه مع أبي الطيب المتنبي وضعف
يل بن خالويه فأخرج من كفه مفتاحاً حديداً ليحكم به المتنبي فقال له المتنبي اسكت
بحك فأزبك أعجمي وأصلك خوزي فمالك وللمربية فضرب وجه المتنبي بالمفتاح

فأسأل دمه على وجهه وثيابه ففضب المنبي من ذلك إذ لم يتصر له سيف الدولة لا قولاً
ولا فعلاً فكان أحد أسباب فراق سيف الدولة (١)
ومن نهاية هذه الحكاية أيضاً يتضح ان لهذا الفراق أسباباً كثيرة أحدها
هذه الحادثة الاخيرة التي يذكرها غالب مترجى الأديباء دون غيرها
وبالجملة فقد وقع بينهما من الخلاف ما أدى الى انفصال الشاعر عن أميره وانشي
الاصبان سار المنبي الى مصر والتحق بمحاشية كافور الاخشيدى
وكان المنبي يرى أن سيف الدولة هو الذي فرط في ولائه . قال ابو الفتح بن جني
كنت قرأت ديوان المنبي عليه فها وصلت الى قوله
أغالب فيك الشوق الخ : . .
إذا ترك الإنسان أهلاً ووراءه وبهم كافوراً فما يتغرب
فقلت له بعز علي ، كيف يكون هذا الشعر ويهدح به غير سيف الدولة . فقال
حذره وأنذرناه فما نفع فيه الحذر است القائل فيه
أبا الجود أعط الناس ما أنت ملك ولا تعطى بن الناس ما أنا قائل
فهو الذي أعطاني لكافور بسوء تدبيره وقلة تمييزه ،
هذه الحكاية تشهد بكبرياء أبي الطيب وغروره كما أنها تدل على مقدار حقه
على سيف الدولة ذلك الحد الذي تراه مجسداً في قصائده التي قالها في مصر عندما
التحق بكافور خصم سيف الدولة ومزاحمه على الملك - الا انه ندم من الندم على فراق
سيف الدولة . ثم زالت الوحشة التي كانت بينهما وراسل كل منهما صاحبه أيام كان
المنبي في الكوفة بعد سنة ٣٥٠ ونظم أشعاراً كثيرة تذكر فيها ماضى عهده عند
سيف الدولة ، جئنا بشيء منها في باب الأخلاق ، ونذكر هنا بيتين يعترف فيهما
ابو الطيب بغلطته وبمكانة سيف الدولة وهما من قصيدة قالها في كافور
ولله سيري ما أقل تشبته عشية شرق الحدالي وغرب

عشية أحفي الناس بي من جفوته واهدى السيلين التي انجذب
وانفذ اليه سيف الدولة ابنه من حلب الى الكوفة ومعه هدية وكان ذلك بعد
خروجه من مصر ومفارقته لكافور فكتب اليه من الكوفة سنة ٣٥٢ تصيدة ظهر
فيها آروجدانه الحى وفيها يقول

.. كلما رحبت بنا الروض قلنا حلب قصدنا وانت السيل
والمسمون بالأمير كبير والأمير الذي بها المأمول
الذي زلت عنه شرقاً وغرباً ونداه مقابلي ما يزول
من عبيدي ان عشتلى الف كافور ولى من نذاك ريف ونيل
ولما توفيت أخت سيف الدولة بميفارقين وورد خبرها الى الكوفة رثاها
أبو الطيب بقصيدته المشهورة التي مطلعها : « يا أخت خير أخ يا بنت خير أب »
وفيها أيضا كان وجدان الشاعر متأثرا على خلاف عادته مما يدل على أنه كان
يتألم لألم أميره القديم ويرثى حقيقة لمصابه

وأنفذ اليه سيف الدولة كتاباً بخطه انى الكوفة يسأله المسير اليه فاجابه بقصيدة
فيها عنب جميل واعتذار عن التخلف يقول فيها
وما عاقنى غير خوف الوشاة وأن الوشايات طرق الكذب
وتكثير قوم وتقليلهم وتقريبهم بيننا والخب
وقد كان ينصرهم سمه وينصرفى قلبه والحب
امام هذه الأقوال المؤثرة يفتخر الناقد كل ما صدر عن أبي الطيب في
حق سيف الدولة ويتناسى تلك الأقوال الجارحة بل القاتلة التي سنراها في
باب الأخلاق

أبو الطيب عند كافور الأخشيدي (٣٤٩ - ٣٥٠)

هذا الأمير هو الذي يقول فيه المتنبي :

يدثر الأمر من مصر الى عدن الى العراق فارض الروم فالنوب
اثارة الى اتساع ملك مصر بامتداد سلطان مليكها - فلامعجب اذن ان قصده
المتنبي ليجد في ذراه مثل ما وجد عند سيف الدولة أو اكثر منه .
لكن أبا الطيب لم ينتقل مرة واحدة من عند سيف الدولة الى كافور الاخشيدى
كما هو المشهور عند عامة كتاب التراجم . روى صاحب كتاب الصبح المنبي (١)
ما يأتى : -

« ولما عزم ابو الطيب علي الرحيل من حاب وذلك في سنة ٣٤٦ لم يجد بلدا
اقرب اليه من دمشق لان حمص كانت من بلاد سيف الدولة فسار الى دمشق
والتى بها عصا التسيار وكان بدمشق يهودى من أهل مصر يعرف بابن ملك من قبل
كافور ملك مصر فالتمس من المتنبي أن يمدحه فقتل عليه فغضب ابن لك - ووجهل
كافور الاخشيدى يكتب في طلب المتنبي من ابن ملك فكتب اليه ابن ملك ان أبا
الطيب قال لا أقصد العبد وان دخلت الى مصر فما قصدي الا ابن سيده

« ونبت دمشق بالمتنبي فسار الى الرملة فحمل اليه أميرها الحسين ابن طنج
هدايا نفيسة وخلع عليه وحمله على فرس بمركب ثقيل وقلده سيفاً محلي
« وكان كافور الاخشيدى يقول لاصحابه اترونه يبلغ الرملة ولا يتبناء وأخبر
المتنبي انه واجد عليه . ثم كتب كافور يطلبه من أمير الرملة فيسار اليه » -

انى حيال هذه الرواية اجد نفسى بين رأيين مختلفين أو بالأحرى متناقضين
انى استخلص من مجموع هذه الحكاية أن أبا الطيب لم يقصد كافورا وانه كره أن
يقصده وانما كافور هو الذى طلبه وسعى فى اكتسابه لنفسه . وهذا رأى اول .
والرأى الثانى ان المتنبي هو الذى دفعه الحقد على سيف الدولة الي أن يلتجئ الي
هدوه وتنازل عن غروره وكبريائه وقدم علي كافور وكاه طمع فى الحصول على ولاية

أو منصب في الدولة يفيظ به سيف الدولة . وأدل ما في روايات الأدباء على هذا الرأي أن شاعرنا لم يكن يجلس في حضرة كافور بل كان يقف بين يديه

هلى أتى الا لظ أن صاحب كتاب الصبح المنبى من المؤلفين الذين يريدون أرضاء أمرائهم الذين يؤلفون لهم الكتب وينضمون إلى آرائهم طمعاً في اكتساب رضاهم ونوال عطاياهم . وفي مقدمة كتابه ما يلقي الشك في نفس المطالع من هذه الناحية كقوله : « عن لى أن أنشرف بخدمته (أى الامير عبدالرحمن نجل الحسام) بتأليف يشتمل على غرر الآداب ، وتناجج الالباب ، لم ينسج فكر على منواله ، ولم تسمح قريحة بمثاله ، ليكون وسيلة الى ان اعدت من جملة خدامه ، وأنشرف بتقبيل مواطىء أقدامه ، . . . فينقذنى من شر الك الفقر ، ويستخلصنى من مخالب الدهر ، . . . وكان مد الله ظله ، ورفع الى أوج مرامه محله ، يلهج بقلائد « ابن الحسين » ويميزه عن « الطائين » ولعمري ان ما قاله هو المعول عليه ، والمرجع بعدالة مل الصادق اليه »

* * *

الاستاذ (١) كافور المكنى بابى المسك المنسوب الى الاخشيذ بعد من الامراء القلائل الذين رزقوا السعد فى الحياة وأبقى لهم التاريخ ذكراً

وفى هذا المقام يجدر بنا ونحن أهل مصر أن لانمر على ذكر أمير من امرائها دون ان نشير اليه بكلمة تتحرى فيها الصدق والاعتدال تاركين ما قاله شاعرنا فى هذا الامير الى موضع آخر

(١) الاستاذ (يقابل لفظ « اتابك » عند الاعاجم ومعناه مربى اولاد الملوك - وكان كافور اتابك ولدي الاخشيذ) ويقول ابو الطيب فى أحدي مدائح كافور: ترعرع الملك الاستاذ مكتهماً قبل اکتها لاديباً قبل تأديب

وهو لقب منصب عال فى حاشية الامراء بمصر كلقب الصاحب فى بلاد الفرس وقد عرف بمصر بعد ذلك طائفة من اصحاب المناصب فى الحاشية يسمون بالاستاذين المحنكين

كانت مصر منذ الفتح الاسلامي ولاية خاضعة للخلافة وبقيت كذلك مدة
الخلفاء الراشدين والدرلة الاموية وصدر الدولة العباسية حتى استقل بها أحمد بن
طولون وأضاف اليها جزءاً من بلاد الشام وبقيت دولة ابن طولون ٣٢ سنة ثم عادت
مصر الى ملك العباسيين وجاءها الولاة من بغداد حوالي ٣٠ سنة . ولكن حالة
البلاد لم تكن على ما يرضاه لها انصارها . وكان الفواطم من آن لآن يعكرون
عليها صنفوها بغزواتهم وغاراتهم . فولي الخليفة علي مصر أحد ابناء ملوك فرغانة وهو
محمد بن طغج الاخشيد (١) الذي كان قد تفادى من قبل منصباً في مصر فانهى
به الأمر ان استقل بها كما فعل ابن طولون من قبله واستولى على قسم من بلاد
الشام وكانت الحروب تتوالى بين الاخشيد وبني حمدان . وكانت مدن الشام
تارة مع هذا وتارة مع هؤلاء - وأخذ الاخشيد البيعة من قواده لابنه أنوجور
من بعده فجعل الملك بذلك وراثته في أولاده - وخلفه ولده أنوجور ابو القاسم
في ملك مصر وملحقاتها وكان لا يزال صغيراً فقم بتدبير الشؤون العامة
في القطر رجال الدولة وعلى رأسهم كافور قبا علي الملك الفاصر وبقى هو الامير
الحقيقي للبلاد حتى مات أنوجور سنة ٣٤٩ وتولى بعده أخوه ابو الحسن
علي بن الاخشيد فكان الأمر والنهي لكافور أيضاً وقد بلغ من
سلطانه أن منع الناس من الاجتماع بالأمر حتى مات سنة ٣٥٥ فتولى كافور ملك
مصر والشام والحجاز بأمر الخليفة وبقى في الولاية سنتين وثلاثة أشهر تقريباً ثم مات
سنة ٣٥٧ - فكانت مدة اتصال المنى بكافور ايام كان قبا ومسيطرأ على أنوجور
(٣٤٦ - ٣٤٩) ووزيراً مستبداً بابي الحسن (٣٤٩ - ٣٥٠)

وبما أن المقام لا يتسع لطالة الكلام على كافور فاني انقل فقرة مختصرة من
كتاب عصري : د . د . واصله عبد حبشى خصي اشتراه الاخشيد من بعض

(١) الاخشيد لقب ملوك فرغانة وقد ابقى الخليفة هذا اللقب لابن طغج

اعترافاً له بالفضل

أهل مصر ثمانية عشر ديناراً فما زال يتقدم عنده لعقله وحسن رأيه وشجاعته
الى أن صار من اكبر القواد الذين أسسوا له دولته . ولم يبلغ أحد من الخصيان
ما بلغه كافور هذا : « ملك أنفك المسالك الاسلام وخدمه كبار العلماء ، ومدحه
المنهي ... » (١)

قد يكون الخلاف بين التاريخ والأدب عظيماني بعض الاحيان وهذا كافور
الاخشيدى مثال نستشهد به في هذا المقام — لقد رأينا أقوال المؤرخين فيه أما
الادباء فمك ما قالوه : « وكافور هذا عبد أسود خصي مقوب الشفة السفلي بطين قبيح
القدمين ثقيل البدن لا فرق بينه وبين الأمة وقد سئل عنه بعض بني هلال فقال رأيت
أمة سوداء تمر وتنهى . وكان هذا الاسود اقوم من أهل مصر يعرفون بنبي عباس
يستخدمونه في مصالح السوق وكان ابن عباس يربط في رأسه جبلاً اذا أراد النوم
فاذا أراد منه حاجة جذب به بالجبلة لأنه لم يكن يتنبه بالصياح . وكانت غلمان ابن طنج
يصنعونه في الاسواق كما رأوه ، فيضحك . فقالوا هذا الاسود خفيف الروح وكبوا
صاحبه في بيته فوهبه لم فقاره علي وظيفة الخدمة . ومات سيده ابو بكر بن طنج
وولده صغير فتقيد الاسود بخدمته وخدمته والدته فقرب من شاء . فتقرب الناس اليه
من صغرتهم وخسة انفسهم وسعى بعضهم ببعض حتي صار الرجل لا يأمن أهل داره
علي أسرارهم وصار كل عبد بمصر يرى أنه خير من سيده ثم ملك الامر علي ابن سيده
وأمر أن لا يكلمه أحد من عماليك أبيه ومن كالمه أتافه . فلما كبر ابن سيده وتبين ماهو
فيه جعل يبوح بما في نفسه في بعض الأوقات علي الشراب ففزع الاسود منه وسقاه
سماً فقتله وخلصت مصر له » (٢) . ولعل هذا ما قصدته شاعرنا بقوله

أكلما أفتال عبد السوء سيده أو خانته فله في مصر تمهيد؟

لما قدم ابو الطيب علي كافور أمر له بمنزل ووكل له جماعة لخدمته وأظهر التهمة له

(١) تاريخ مصر تأليف عمر الاسكندري و١ ج . سفيديج ص ٢٠٨ ج ١
راجع ايضاً ابن خلكان ص ٦١٤ وما بعدها (٢) الصبح المنبي ص ١١١ ج ١

وطالبه بمدحه فجمع عليه وحمل اليه الالف الدرهم فقال ابو الطيب قصيدته التي مطلعها
 كفى بك داء أن ترى الموت شافهاً وحسب المنايا أن يكن أمانهاً
 وكان يقف بين يدي كافور وفي رجليه خفان وفي وسطه سيف ومنطقة و يركب
 محتاجين من ممالكة وهما بالسيف والمناطق وكان لا يجلس في مجلس كافور (١)
 أول ما قدم أبو الطيب على كافور فأنحه بانهته وما زال يلح عليه في تحقيقها حتى
 وقعت بينهما الوحشة التي افترقا على أثرها : تلك الامنية هي إحدى الولايات التابعة
 لمصر سواء كانت في الصعيد أو في الشام (٢) . قال في أول قصيدة أنشدها اياه
 وغير كثير أن يزورك راجل نيرجع الكا لمرافقن واليا
 فقد تمب الجيش الذي جاء غزياً لسائلك الفرد الذي جاء عافياً
 وقد ذكرت في باب أخلاق المتنبى كثيراً من أشعاره التي ألحف بها في الطلب
 لدى كافور ولكن الرجل تفضى عنه أولاً ثم كانهفه بضمه به آخر الامر . فقال له أنت
 في حال الفقر وسوء الحال وعدم المعين سميت نفسك الى النبوة فان أصبت ولاية
 وصار لك اتباع فمن يطيقك (٣) ويتداول الأدباء قولاً مشهوراً لكافور د ان
 من يدعى النبوة بعد محمد صلى الله عليه وسلم اما يدعى الولاية مع كافور (٤)
 ولما تنانرت آمال المتنبى كما تنانر أوراق الزمرة الذابلة واحدة فواحدة وجد
 اليأس الى قلبه سبيلاً فليقظ فيه الأحقاد والأضغان وأجاش صدره بالمعاني الغضبية
 التي بقيت تذكارا مؤلماً عن أقامته بمصر كقوله
 وكم ذا بمصر من المضحكات واكلته ضحك كالبكا
 وقال : « ومصر امرى أهل كل عجيبة »
 كما قال هيرودوت المؤرخ اليونانى القديم « مصر بلاد العجائب »
 وبمناسبة مصر قال عن المسلمين :

(١) و (٢) و (٣) الصبح المنى ص ١١١ ج ١ وما بعدها

(٤) جورجى زيدان - تاريخ آداب اللغة العربية ص ٢٤٧ ج ٢

أبلغ الدين أن تمخروا شواربكم ؟ يا أمة ضحكتم من جهلها الامم
 هذا ما تركه شاعرنا لمصر بالذات ولكنه ترك لكافور ما لا يقنى من الأهاجي
 التي خرج بها على الادب وغطت على محاسنه التي اجاد فيها أبا اجادة مدة أقامته
 بمصر . لأن شمره الذي قاله في هذه المدة — على قتيه — تغلب فيه السلامة من
 العيوب وهو شمر وجداني في غلاب الأحوال صادر عن نفس حساسة متأثرة
 فيه — أن كان يحمل حملانه المنكرة على سيف الدولة وبه لاق آماله بكافور
 أناب الأمر الى الضد وظهرت حسنات سيف الدولة ومساوى كافور — فقال
 وقدّرت من فرط الجمالة أنى أقيم على كذب رصيف مصنع
 أقيم على عبد خفي منافع لثيم ردىء الفعل للجود مدع
 وترك سيف الدولة الملك الرضى كريم المهيما اروعا وابن ارووع
 وبعد أن كان يكثر من ذكر كنية « أبي المسك » ويولد منها الأوصاف
 الجميلة : فيقول وو أبا كل طيب لا أبا المسك وحده ،، انتعل له كنية قدرة جاءت في
 القصيدة التي ذكرت بعض آياتها قبل فكناه وو ابا الزنن ،،

وكان أحب أهل مصر الى المنبي الامير أبو شجاع فاتك الاخشيدى (١) وقد

(١) هو مملوك رومى الاصل وكان سيده قد اعتقه بالرملة عند ما اراد
 الاخشيد ان يأخذه منه كرها . وكان شجاعا مقداما ولذلك لقب بالجنون .
 وكان رفيق الاستاذ كافور في خدمة الاخشيد . فلما مات مخدومهما وتقرر
 كافور في خدمة ابن الاخشيد اتف فاتك من الاقامة بمبركي لا يكون كافور
 اعلى رتبة منه ويحتاج ان يركب في خدمته . وكانت الفيوم واعمالها اقطاعا له
 فانقل اليها واتخذها مسكنا . وهى بلاد وبيئة كثيرة الوخم فلم يصح له بها
 جسم . وكان كافور يخافه ويكرمه فزعا منه وفي نفسه منه ما فيها . فاستحكمت
 العلة في جسم فاتك واحوجته الى دخول مصر للمعالجة . فدخاها وبها ابو الطيب
 المنبي ضيفا للاستاذ كافور . وكان يسمع بكرم فاتك وكثرة شجاعته غير انه

مدحه المتنبي بقصيدته التي مطلعها
لا خيل عندك تهديها ولا مال
ورثاء بالعينية المشهورة التي أولها
الحزن يفاق والتجمل يردع والدم بينها عمى طبع
وقد عني المستشرق المسيو جرنجيري به ده لاجرانج (١) ينقل اشعار المتنبي في
فاتك الاخشيدي الى اللغة الفرنسية - وهي اربع قصائد ونشرها في المجلة الاسيوية
والمستشرق المذكور من المعجبين بشعر المتنبي وقد اراد ان ينحو نحو استاذه
البارون سيلسترديه سامي (٢) صاحب المختارات العربية وأول فرنسي دل على شعر
المتنبي في فرنسا - بمجمع مختارات عربية اخرى يسردها بقطع منتخبة من شعر المتنبي
فقل هذه القصائد الاربع

* *

وكما أثار المتنبي على نفسه غضب آل حمدان عند سيف الدولة فإنه اكتسب
أبضا عداوة وزير كافور أبي الفضل جعفر بن الفرات المعروف بابن حنزابه (٣)
قال الوحيدى « كنت بمعرويه - أبو الطيب ووقفت من امره علي شفا

لا يقدر عل قصد خدمته خرفا من كافور ، وفاتك يسأل عنه ويراسله بالسلام
ثم التقيا بالصحراء مصادفة من غير ميعاد وجرت بينهما مفاوضات فلما رجع
فاتك الى داره حمل لابي الطيب في ساعته هدية قيمتها الف دينار ثم اتبعها
هدايا بعدها فاستأذن المتنبي الاستاذ كافور في مدحه فأذن له فمدحه سنة ٣٤٨
بقصيدته المشهورة : « لا خيل عندك تهديها ولا مال » (عن ابن خلكان ص
٥٧٩ ج ١)

(١) J. B. Garciet de la Grange — Journal Asiatique

ص ٣٣٥ ج ١ سنة ١٨٢٢

(٢) Silvestre de Sacy

(٣) اسم أم أبيه

الملاك ودعتني نفسي لحب أهل الادب الى ان احته على الخروج من مصر فخشيت
علي نفسي أن يشيع ذلك عني وكان هو مستعدا للهرب وأمانات اظافير الموت ومخالب
المنية من قرب . وهو جني ذلك على نفسه لأنه ترك مدح ابن حنزابه وهو وزير كافور
والمقرب منه وهو مع ذلك من بيت شريف أهل وزارة ورياسة ومن أهل العلم والادب
بموضع جليل وهو باب الملك فأنى من غير الباب (١)

روي ابن خلكان في كتابه وفيات الاعيان وأنباء أبناء الزمان (٢) :
ذكر الخطيب ابو زكريا النبريزي في شرحه ديوان المتنبي أن أبا الطيب لما
قصد مصر ومدح كافور أو مدح الوزير أبا الفضل بقصيدته لرأية التي أولها
« باد هراك صبرت أم لم تصبرا ، وجملها موسومة باسمه فتكون إحدى القوافي
« جعفرأ » وكان منها

صغت السوار لاي كف بشرت بابن الفرات وأي عبد كبرا
فلما لم يرضه صرفها عنه ولم ينشده أياها . فلما توجه الى عضد الدولة
قصد ارجان وبها أبو الفضل بن العميد فحول القصيدة اليه ومدحه بها
(قابل ابن الفرات بابن العميد) وذكر الخطيب أيضا في الشرح المذكور عن
قول المتنبي في القصيدة المقصورة

وماذا نصر من المضحكات ولكنه ضحكك كالبكاء
بها نبطي ، من أهل السواد يدرس أنساب أهل الفلا
و « اسود » مشفوه نصفه يقال له أنت بدر الدجا

ان المراد بالنبطي « أبو الفضل » ، والاسود « كافور » ، — ونقل أيضا
عن الوزير ابي القاسم المغربي (٣) في كتاب « أدب الخواص » ، كنت
احادث الوزير ابا الفضل جعفر واجاربه شعر المتنبي فيظهر من تفضيله زيادة تنبه على

(١) الصبح المنبي ص ١١٦ و ١١٧ ج ١

(٢) ص ١٥٥ و ١٥٦ ج ١

(٣) قال في أول كتابه المذكور : وأخواننا المفسر به يسمونه المتنبي

(ابن خلكان ص ٢٢٢ ج ١)

ما في نفسه ، خوفاً من أن يرى بصورة من ثناء الغضب الخالص ، عن قول الصدق في الحكم العام . وذلك من أجل الهجاء الذي عرض له به المتنبي ، — باختصار — وفي الديوان قطعة ذات أربعة أبيات يفهم منها عزم أبي الطيب على الهرب واستعداده له فتمد قيل في عنوان هذه القطعة * وكتب الى عبد العزيز بن يوسف الخزاعي في بلبس يطلب منه دليلاً فنقذه اليه فقال يمدحه :

جزى عرباً أمس بلبس ... الخ

طال الحاح أبي الطيب في طالب بغيته لدى كافور وطال أعراض كافور عنه وكان آخر ما قاله الشاعر لأميره قصيدته التي منها

وفي النفس حاجات وفيك فطانة نسوتى كلام عندها وخطاب
« واتقطع أبو الطيب بعد انشاد هذه القصيدة سنة لا يلتقى أميره إلا ان يركب في خدمته فيسير معه في الطريق خوفاً منه . ثم عجل الرحيل وقد أعد كل ما يحتاج اليه علي ممر الايام بلطاف ورفق لا يعد به أحد من غلماناه وهو يظهر الرغبة في المقام وطال عليه التحفظ ودفن الرياح في الرمال وحمل الماء على الابل لعشر ليال وتزود لعشرين . وقال في يوم عرفة من سنة خمسين وثمانمائة قبل مسيره من مصر بيوم عيد اية حال عدت يا عيد ؟ بماضي ؟ أم لا مر فيك تجديد ؟ » (١)

عجيب من أبي الطيب أن يجيء الى مصر مهد الحضارة القديمة ولا يخصها بقصيدة يذكر فيها آثارها ويشير الى مجدها . ولكن اذا علمنا انه ما جاء الى مصر لدرس الآثار وتمجيد الاسلاف العظام وانما جاء لحاجة في نفسه لم يقضها رجوعنا عن العتب عليه . الا أنه لم ينس في شعره أن يذكر ما في مصر من النعم والعبء : أشار الى النيل في قصيدة أرسلها الى خيف الدولة فيما بعد فقال

(١) ان خلسكان ص ٦١٦ ج ١ — الصبح المنبي ص ١٣٦ ج ١

من عبيدي ان عشت لي الف كافور ولي من نداك ريف ونيل
وأشار الى الاهرام في رثاء ابي شجاع :

اين الذي الهرمان من بنيانه ؟ ما يومه ؟ ما قومه ؟ ما المصراع ؟
وأشار الى النيل والمقطم في قصيدة من قصائده الاولى في كافور يذكر فيها
دخوله مصر بعد ذكر خيله وابله

وسمناهم البيداء حتى تغمرت من النيل واستذرت بظل المقطم
فلنكتف بانظ النيل والمقطم والاهرام مادامت آمال ابي الطيب قد شغته هن
تمجيدها او وصف شيء منها كما فعل في « شب بوآن » بيلاذ فارس هند ما قصد
تلك الجهات

هرب المتنبى من مصر في يوم العيد الاكبر - ولعله انتهز فرصة اشتغال الناس
بالاضاحي في ذلك اليوم حتى لا يلاحظ تغيبه عن عارفه - وبذل كافور جهده في
اقتناء اثره فلم يفلح . وما زال ابو الطيب سائرا يقطع المفاوز والقفار حتى وصل الى الكوفة
في الاشهر الاولى من سنة ٣٥١ ودر في طريقه بمراضع متعددة ذكرها في قصيدته
التي مطلعها « الا كل ماشية الخيزلي » ، قال بعد وصف خيله :

ضربت بها (التيه) ضرب القما راما لهذا واما لذا
فمرت به (نخل) وفي ركبها عن العالمين وعنه فحق
وأمت تخبئنا به (النقا) (وادي المياه) (وادي القرى)
وقلنا لها أين أرض (العراق) فقالت ونحن به (تربان) ها
وهبت به (حسمي) هبوب لدبو ر مستقبلات مهب الصبا

جاء في الديوان بعض أبيات ذكر في عنوانها : « ونزل ابو الطيب في أرض
حسمي برجل يقال له وردان بن ربيعة الطائي فاستغوى وردان عبيد ابي الطيب
فجعلوا يسرقون له من امتعته فلما شعر ابو الطيب بذلك ضرب أحدهم بالسيف
فأصاب وجهه وأمر الغلمان فاجهزوا عليه وقال يهجو وردان ... » ثم الأبيات . وجاء
في الصبح المنهي تفصيل مطول لهذه الحادثة وأهم ما فيها ان وردان هذا كان يفرى

عبيد أبي الطيب بواسطة امرأته ويشير أبو الطيب الى ذلك في قوله
 أشد بعرضه عنى عبيدى فأتلفهم ومالى أتلفوه
 وامل أبا الطيب قد اخترع مسألة الاغراء بواسطة الزوجة لأنه مشهور في
 هجائه بالفحش كما سيأتى ذلك في موضعه ان شاء الله — ولنعذ الى وصل ما انتقطع:
 روى (الكفاف) و (كبد الوهاد) و (جار البويرة) (وادى الغضى)
 وجابت (بسيطة) جوب الردا ، بين النعام وبين المهى
 وذكر في الديوان أيضاً ما يأتى : « ولما بلغ أبو الطيب الى بسيطة رأى بعض
 عبيده ثورا قتال هذه منارة الجامع ورأى آخر نعامة قتال وهذه نخلة فضحك
 أبو الطيب وقال

بسيطة مهلا سقيت القطارا تركت عيون عبيدى حيارى
 فظنوا النعام عليك النخيل وظنوا الصهار عليك المنارا
 فامسك صبحى بأكوارهم وقد قصد الصحك فهم وجارا
 وترجع الى المقصورة المتقدمة

الى (عقدة الجوف) حتى شفت (ماء الجراوى) بعض الصدى
 ولاح لها (صنور) والصبح ولاح (الشغور) لها والضحى
 ومسى (الجميى) دثداؤها وغادى (الاضارع) ثم (الدنا)
 فيالك ليلا على (اعكش) احتم البلاد خفى الصوى
 وردنا (الرهيمة) فى جوزة وباقيه أكثر مما مضى
 فلما انخنا ركزنا الرما ح بين مكارمنا والعلى
 وثبنا تقبل اسيفنا ونسحها من دماء العدى

اوردت هذا الجزء من مقصورة شاعرنا لارسم الطريق التى اتخذها بين مصر
 والكوفة — وصف الشاعر خروجه من جبل التيه ، تيه بنى اسرائيل ، فى شبه جزيرة
 سينا — ثم مروره بنخل ووصوله الى الثقاب حيث انفرج امامه طريقان وادى

المياه ووداي القرى - ولما وصل ترابن، علم أنه دخل بلاد العراق، ولما جاء حسبي وجه ركبته من المغرب الي المشرق، من مهب ريج الدبور الي مهب الصباء، وما زال ينتقل من موضع الي موضع ومن محلة الي محلة حتى انتهى الي الرهيمية وهي قرية بجانب الكوفة خربت في الاربعمائة - علي رأي العكبري -

ابو الطيب بين الكوفة وبغداد (٣٥١ - ٣٥٣)

هذا الدوران قصير من حياة المتنبي كان أشبه شيء بالاستراحة التي يقضيها الانسان من عناء الاعمال فلم يتصل بأحد من الامراء علي كثرتهم في بغداد ولعله لم يوفق الي أمير يوافق مزاجه ينسبه ما كان من أمر كافور معه . ويظهر أيضاً أن غضبه علي كافور بعد ان فشل في مساهلديه وخاب أمليه في نيل ولاية نولايانه زادت في نفس شاعرنا الكتابة فعاث في منزل عن الناس ولم يقصد أحداً من أولى الشأن في بغداد قاعدة الخلافة ومقر آل بويه الذين انتهى اليهم ملك الدولة الاسلامية في ذلك الوقت الا ان تفاصيل هذا الدور غير معلومة وغاية ما يعرف عنها بعض حوادث اشهرت عند أهل الأدب . وكذلك لا يعلم متى قصد بغداد ولا المدة التي قضاها بها كان السيد المطاق في بغداد عندما قصدها المتنبي - معز الدولة بن بويه (١) فاتح العراق الذي جلب عليه الخراب بعد ان كان جنة الدنيا فلم يمدحه وأبي عليه كبره أن يقصده فسرعان ما هاجت عليه خواطر الشعراء بابهاز « المهلبى » وزير معز الدولة (٢) الذي اغرى بأبي الطيب شعراء بغداد وادبائها فزالوا من عرضه ما شاءوا . ولكنه اعرض عن اهاجيتهم ونما فعل وقال قد فرغت من اجابتهم بمولى لمن هم ارفع درجة في الشعر منهم :

(١) ويقال له الاقطع لأنه كان مقطوع اليد اليسرى وبعض اصابع اليمنى

(٢) صورة المهلبى : كان له جملة من النقصاء والقضاة ينادونه ويحتمعون عنده

في الاسبوع ليلتين علي اطراح الحشمة والتبسط في القصف والخلاعة وهم القاضي ابو بكر بن قريصة وابن معروف والتنوخي وغيرهم . وما منهم الا

أرى المثاعرين هموا بذي ومن ذا يحمل الداء العضالا
ومن بك ذا فم مرّ مريض يجد مرأ به الماء الزلالا
وإذا اتك مذمتي من ناقص فهي الشهادة لي باني كامل

هذه الحرب التي أثارها الوزير المهلبى - لأن المنبى لم يدحه ذاهبا بنفسه عن مدح غير الملوك - زهدت ابا الطيب في دار السلام فكان ينتقل بينها وبين الكوفة علي ما يظهر من القصائد التي كان يقولها في ذلك الوقت

في الديوان وشرحه قصيدة عنوانها « قال بمدح ابا الفوارس داير بن اشكروز وكان ابي الكوفة لقتال الخارجى الذي نجح به - امن بنى كلاب وانصرف الخارجى قبل وصول داير اليها سنة ٣٥٣ » : « كدعواك كل يدعى صحة العقل »

وفي المجلة الاسيوية (١) ترجمة القصيدة المذكورة بقلم المستشرق الفرنسى المسيو جرانجيريه ده لاجرانج الذى سبقت الاشارة اليه وقد شرح المترجم هذه الحادثة شرحا مطولا لم أره الا في هذه المقالة وقال ان المنبى خرج لمحاربة بنى كلاب ووجرح حصان غلامه ...

ومثل معز الدولة الذى كان شوّما على العراق بجبروته لا يروق في عين

ابيض اللحية طربها وكذلك كان المهلبى . فاذا تكامل الانس وطاب المجلس ولذالذماع وأخذ الطرب منهم مأخذاً وهبوا ثوب الوقار للتمار وتملبرا في أعطاف العيش بن الخيرة والطيش ووضع في يد كل واحد منهم طاس ذهب من الب ممتاز . ووأثراً باً قطر بلياً أو مكرباً فيغمس لحيته فيه بل ينغمها حتى تشرب اكثره ويرش بها بعضهم بعضاً ويرقصون باجمعهم وهليهم المصبغات ومخائق المشور والبرم فاذا أصبحوا طادوا كما أعدتهم في التوقر والنحنظ باهة القضاء وحشمة المشايخ الكبراء (وفيات الاعيان ص ٥٠٣ ج ١)

ابى الطيب ولا يأمن جانبه خصوصاً بعد تلك الحملة المنكرة التي تجدد صورتها في الرسالة الحاتمية (١) ولعله في هذه المناسبة أيضاً قد مثل بقوله :

(١) ألقها أبو علي محمد بن الحسن بن المظفر السكاتب اللغوي المعروف بالحاتمي وسماه « المرضحة » وعنى تقع في اثني عشرة كراسة كما يقول ابن خلكان وقد اثبت الصحيح المنبى قسماً كبيراً منها (ص ١٤٤ - ١٧٣ ج ١) وذكر ابن خلكان مقدمتها (ص ٢٢٨ - ٧٣١ ج ١) وهي تختلف بعض الاختلاف عن رواية الصبيح المنبى ، وإليك خلاصتها : قال الحاتمي :

« كان أبو الطيب عند وروده مدينة السلام قد النحف رداء الكبر والمظمة ، يخيل له أن العلم مقصور عليه ، وأن الشعر لا يعترف عذبه غيره ، ولا يفتطف نوره سواه . . . وتقلت وطأته على أهل الأدب . . . وتخيل الوزير المهلبى أنه لا يتمكن أحد من مساجاته ومقارعتة ولا يقوم لمجادلته . . . وساء معز الدولة أن يرد على حضرته رجل صدر عن حضرة عدوه ولم يكن بمملكته أحد يائله فيما هو فيه يمدى لهم عواره ، ويخفي آناؤه ، ويهتك أسراره ، ويمزق جلايب مساويه . . . فتوخيت أن يجتمعنا مجلس اجري انا وهوفي مضمار يعرف به الساق من المسوق - وكنت اذ ذاك ذا سحاب مدرار ، وزند في كل فضيلة وار ، وطبع يناسب صفو المقار ، اذا وشيت بالحباب ووشت بها سائر الأكواب ، هذا وغدير الصبا صاف ، ورداؤه ضفاف ، وديباجة العيش غضة ، والشبيبة شرة ، والاقبال من الدهر غرة ، والتخيل تجري يوم الرهان باقبال اربابها ، لا بمروقها ونصابها . . . حتى اذا عدت عن اجتماعنا عواد من الايام قصدت مستقره . . . وكان قد اقام هناك سوقاً عند اغليمة لم ترضهم العلماء ، ولا عركتهم رحا النظراء ، ولا فرقوا بين حلو الكلام ومره ، وسهله ووعره . . . فالفيت فتية تأخذ عنه شيئاً من شعره . . . فحين اودن بحضوري واستؤذن عايه بدخولي نهض من مجلسه مسرعاً ودخل بيتاً الى جانبه ونزات عن بغاتي وهو يراني ، ودخات فاعظمت الجماعة قدري واجاستنى في مجلسه . . . واذا تحته اخلاق عبادة قدالحت عابها الحوادث فهي رسوم دائرة ، واسلاك متناثرة . فلما خرج الى نهضت اليه فوفيته حق السلام

إذا صديق نكرت جانبه لم تعني في تركه الحيل

غير مشاح له في ذلك — وكان سبب قيامه من مجلسه لثلا يقوم لي عند موافاتي — واذا به لابس سبعة اقبية كل قباء منها بلون ، وكنا في وغرة القبط وجرة الصيف ، في يوم تكاد ودائع الهامات تسيل فيه ، فجلست مستوفزا ، وجاس متحفزا ، واعرض عنى لاهيا ، واعرضت عنه ساهيا ، لا يعيرنى طرفا ، ولا يكلمنى حرفا ، وكدت أعير غيظا . . . واقبات اسخف رأى في قصده واعاتب نفسي في التوجه الى مثله . . . واقبل على تلك الزعنفة التي بين يديه ، وكل منهم يوحى بطرفه ويشير الى مكان ويوقظه من سنة جهله فما يزداد الا ازوارا ونمارا ، وعتوا واستكباراً . . . ثم رأى ان يثنى جانبه الى ، ويقبل بعض الاقبال على ، فاقسم بالوفاء والكرام ، وهما من محاسن القسم ، انه لم يزد على ان قال « ايش خيرك » . فقلت بخير أنا لولا ما جنيته على نفسي من قصدك وكلفت نفسي من السى الى مثلك . . . ثم تحدرت عليه تحدر السيل الى قرارة الوادي وقات ابنى مم تيهك وخيلاؤك وعجيبك وكبرياؤك ؟ هل هاهنا نسب يورثك الفخر ؟ او شرف توحدت به دون أبناء الدهر ؟ او علم أصبحت فيه عالما يقع الائمة اليه ؟ او مورد تقف الهم عليه ؟ وهل انت الا وتد بقاع ، في اشر البقاع ؟ . . . انك لو قدرت نفسك بقدرها ووزنتها بميزانها ، ولم يذهب بك التيه مذهباً ، لما عدوت ان تكون شاعراً متكسبياً . . . فامتقع لونه وغص بريقه — واقول له يا هذا اذاً انك شريف في نسبة تجاهلت عليه أو عظيم في ادبه صغرت قدره او مقدم عند سلطان لم تعرف موضعه . هل الفراتان لك دون غيرك ؟ لا والله ؛ ولكنك مددت الكبر سرادقا وركبته رواقا دون جهلك . — فماد الى الاعتذار واخذت الجماعة في تليين جانبي والرغبة في قبول عنده واعمال مياسرته ومسامحته . ويحاف بالله انه لم يعرفنى فاقول الم يستأذن عليك باسمى ؟ اما كان من هؤلاء الجماعة من يعرفك بي ان كنت نجهلتنى ؟ وهب كان ذلك — الم تر تحنى بغلة رائحة بعلها مركب ثقيل وبين يدي عدة غلمان ؟ اما شاهدت

في سعة الخافقين . مضطرب وفي بلاد من اختها بدل

تعر ابى الطيب في هذه المدة قليل ولكنه جيد وغالبه شعر وجدانى قاله وهو متثر . واهم ما فيه قصائده في سيف الدولة وهو بعيد عنه وقصائده التي رثى بها فاتكا فقد بكاه بكاء صادقا ولو ان حزنه كان ممزوجا بالحقد على كافور

« قيل ان الصاحب ابن عباد (١) طمع في زيارة المتنبى اياه بأصفهان واجرائه

مابسي ؟ اما شممت نشري ؟ اما راعك شيء من امرى آتيز به عن غيرى ؟ — وهو خافض جناح الذل وقد زال عنه ما كان فيه — واقبل على واقبلت عليه ثم قات له ياهذا يخلج في صدرى اشياء من شعرك اريد ان اسالك عنها واراجعك فيها . قال وماهى . قات (ودارت المناقشة بينهما في ابيات عدة) وشرع الجماعة يسألوننى العفو عنه وقبول عذره . وكنت بلغت شيئاً كان في صدرى وعلمت أن الزيادة على الحد الذى أنهيت اليه ضرب من الأشر والبنى لاراه في مذعبي . ورأيت له حق التقدم في صنعته فطاطأت له كنفى واستأنفت من وضعه ونهضت فهض لى مشيعا الى باب الدار حتى ركبت وأقسمت عليه أن يعود الى مكانه وتشاغل بقية يومى بشغل عن لى عن حضرة الوزير المهلبى وانتهى اليه الخبر فأتتنى رسله ليلا فسرت اليه وقصصت عليه القصة بتمامها فحصل له من السرور والابتهاج بما جرى ما بعثه على مباكرة معز الدولة وأخبره بكل ما أخبرته . — وقال لى الرئيس ابو القاسم محمد بن العباس انه بمجرد دخوله على معز الدولة قال اعلمت ما كان من ابى على الخاتمي والمتنبى ؟ فانه شفى منه صدرا »

(١) هو أول من لقب بالصاحب من الوزراء لأنه كان يصحب ابا الفضل ابن العميد فقيل له «صاحب ابن العميد» — وذكر الصابي في كتاب التاجى انه إنما قيل له الصاحب لانه صحب مؤيد الدولة بن بويه منذ الصبا وسماه «الصاحب» فاستمر عليه هذا اللقب ثم سنى به كل من ولى الوزارة بعده (ابن خلكان

بحرى قصاده من رؤساء الزمان وهو اذ ذاك شاب والحال حويلة والبحر دجيلة ولم يكن استوزر بعد فكذب يلاطمه في استدعائه ويضمن له مشاطرته جميع ماله فلم يقيم له المتنبي وزنا ولم يجيبه عن كتابه . وقيل ان المتنبي قال لاصحابه « ان غالباً معطاء بالرى يريد ان ازوره وامدحه ولا حيل الى ذلك » فصيره الصاحب غرضاً برشته بسهام الوقية ويتبع سقطاته في شعره وهفواته وينعى اليه سيئاته وهو اعرف الناس بحسناته واحفظهم وأكثرهم استعمالاً ونمثلاً بها في مكاناته ومحاضراته » (١)

أبو الطيب في بلاد فارس (٣٥٣ - ٣٥٤) ابن العميد

كان العصر لذي نحن بصدده عصر أدب وفضل على رغم الاضطرابات السياسية وكان الوزراء ممن لهم حظ وافر من العلم المعروف في زمانهم وهو يتناول فروعاً عدة من الآداب . ولذلك تساقوا الى اكتساب الشعراء واصطناعهم وعز عليهم أن يقدم الى بلادهم أديب عروف او شاعر مفلح دون ان يقصدهم وينزل في ذراعم وهذا ما اوغر صدر الوزير المهلبى على المتنبي كما رأينا قبل . وهذا أيضاً ما حرض الصاحب ابن عباد على الوقوف بالمرصاد لشاعرنا ومحاسنته على الهفوات الصغيرة والكبيرة . ويخيل الى ان ابا الطيب لو كان قصده وانزله منزلة الامراء لما كان عرض به بل كان من خيرة أنصاره والف في الدفاع عنه بدل ما الف في اظهار مساويه .

جاء في ديوان أبي الطيب : وخرج من الكوفة الى العراق فراسله ابن

ص ١٠٥ ج ١) - وله كتاب الكشف عن مساوي المتنبي - طبع على التوالي في جريدة السمرقور بمصر - وفي المكتبة السلطانية رسالة مخطوطة عنراها الأمثال السائرة من شعر المتنبي جمعها الصاحب ابن عباد (أدب رقم ١١)

(١) الصبيح المنبي ١٨٥ - ١٨١ ج ١

العميد (١) أبو الفضل بن الحسين وزير ركن الدولة من أركان فزار إليه
 وابن العميد ممن لهم ذكر عاطر في الأدب والنقد وقد أبدى بعض الملاحظات
 علي اشعار أبي الطيب وأشار المتنبي نفسه الي هذا النقد في إحدى قصائده
 قال صاحب الصبح المنبي د وكان أبو الفضل محمد بن الحسين بن العميد يسمع
 بأخبار أبي الطيب وكيف اشتهاره في الاقطار وترفعه عن مدح الوزراء وسمع انه
 خرج من مدينة السلام متوجها الي فارس وكان يخاف ان لا يمدحه وبعامله معاملة
 المهابي فيتكره من ذكره ويعرض عن سماع شعره « (٢) »
 وقال أيضا : وفي صفر سنة اربع وخمسين وثمانمائة ورد علي الفضل بن العميد وهو
 بارجان فحسن موقعه منه وأنشده

باد هوك صبرت أم لم تصبرا وبكك ان لم يجر دمك أو جرى (٣)
 ولم تطل مدة اقامته عند ابن العميد ولم يقل فيه شعرا كثيرا وقد نظم له
 قصيدة تهينة بالنيروز أشار فيها أبو الطيب الي ما أبداه ابن العميد من الانتقاد علي
 قصيدته الاولى قال :

هل لعذري عند الامام أبي الفضل قبول ؟ سواد عيني مداده
 أنا من شدة الحياء عليل مكرمات المعالي عواده
 ما كفاني تقصير ما قلت فيه عن علاه حتى ثناه انتقاده

(١) كان متوسعا في الفاسفة والنجوم فضلا عن الأدب والترسل حتى
 سموه « الاستاذ » وكان يلقب لبراعته في الترسل بالجاحظ الثاني . وقيل
 بدأت الكتابة بعبد الحميد وختمت بابن العميد . عاد الصحاح ابن عباد مرة
 من بغداد — وكان من اتباع ابن العميد — فسأله ابن العميد عنها فقال
 « بغداد في البلاد كالاستاذ في العباد » يشير الي تفرده في العلم (جورج
 زيدان — تاريخ آداب اللغة العربية ص ٢٦٩ و ٢٧٠ ج ٢)

(٢) و (٣) ص ١٨٢ — ١٨٤ ج ١ — سبقت الاشارة الي ان قصيدة
 « باد هوك » نظمت في ابن الفرات وزير كافور ولكنها لم تنشد له

اننى اصيد البهزة ولكن أجمل النجوم لا اصطاده
رُب ما لا يعبر اللفظ عنه والذي يضم الفؤاد اعتقاده
ما تعودت ان أرى كابي الفضيل وهذا الذي أتاه اعتياده
ان في الموج للغريق لعذرا واضحا أن يفوته تعداده
للندى الغاب أنه فاض والشعر عمادى وابن العميد عماده

ولا اتصدى لمواضع النقد التي عابها ابن العميد فلها مينة في شرح الديوان
وانما اذكر حادثة صغيرة تتعلق بالقصيدة رواها صاحب كتاب الصبح المنبي وهي هذه :
« تنازع ندماء ابن العميد في البيت الاخير

فترى الفضيلة لا ترد فضيلة الشمس تشرق والسحاب كنهورا
فقال أثبتوه حتى أتأمله فاثبت البيت ووضع بين يديه فاطرق مايا يفكر فيه ثم
قال هذا يعطلنا عن المهم وما كان الرجل يدري ما يقول» (١)

ان ما نظمه أبو الطيب في ابن العميد قصيدة القدوم وقصيدة النهثة بالنير، ز وقطعتين
صغيرتين الاولى في خمسة آيات والثانية في أربعة وقصيدة الوداع التي مطامها
نسيث وما أنسى عتابا على الصدق ولا خفرا زادت به حمرة الخلد
وفيها حسنات لأبي الطيب وبعض أفكار فلسفية وبراعة المقطع فيها مما يؤثر عنه :
فجدلى بقلب ان رحا فاني مخاف قلبي عند من فضله عندي
ولو فارقت نفسي اليك حياتها لقات أصابت غير مذمومة العهد
ثم سار الى عضد الدولة الامير الخطير الذي يعد من أكبر ملوك الاسلام

ابو الطيب عند عضد الدولة (٣٥٤)

هو الذي قال عن نفسه
عضد الدولة وابن ركنها ملك الاملاك غلاب القدر

وقال فيه أبو الطيب

وقد رأيت المـلـوك قاطبة وسرت حتى رأيت مولاها
ملك من أبناء الأعمام (١) يحب العربية وينظم الشعر . — وقد جمع حوله لفيفا من أهل
الأدب يؤلفون له الكتب وكانت لهم مع أبي الطيب نوادر مرفوعة منهم عبد العزيز
الجرجاني وأبو علي الفارسي وابن جني والرعي وغيرهم .

قصد أبو الطيب ذلك الأمير الجليل بناء على كتاب أرسله إليه يستزيره فيه
كما يقول الديوان — ولكنه لم تطل مدة إقامته عنده بشيراز . هلي أن الشعر الذي
قاله فيه متين ناضج حافل بالمعاني المختلفة كثير بالنسبة للمدة القصيرة التي قضاه
عند ذلك الأمير فقد قال سبع قصائد طويلة أحدها من أرجوزة في الصيد
وكان في نية أبي الطيب عندما ودع عضد الدولة في أول شعبان سنة أربع
وخمسين وثلاثمائة أن يذهب إلى الكوفة ليرى أهله ثم يعود إلى عضد الدولة
ولكنه قتل في طريقه . وقصيدة وداعه لذلك الأمير كماها تطير وشبه تذوُّباً سيقعه

مقتل أبي الطيب (٢) (٣٥٤)

قد فصل صاحب كتاب الصبح المنبئ (٣) مقتل شاعرنا بما لا مزيد عليه ناقلاً
ما قاله الخالديان (٤) وهو رسالة بعث بها إليهم رجل من أهل الأدب يعرف بابي

(١) هو أول من خوطب بالملك في الإسلام وأول من خطب له على المنابر
ببغداد بعد الخليفة وكان من جملة القاه تاج الملة — وعندما احتضر لم يكن
لسانه ينطق إلا بتلاوة « ما اغنى عنى ماله هلاك عنى اطانيه » (وفيات
الاعيان ص ٥٩٣ وما بعدها ج ١) (٢) في خلافة المطيع — فقد عاش في
خلافة (المقتدر) والقاهر والراضي والمتقي والمستكني والمطيع (بن المقتدر) —
ولد في خلافة الأبومات في خلافة الابن —

(٣) ص ٢٢٨ وما بعدها ج ١ (٤) شاعران أخوان من شعراء سيف الدولة

له محمد الجبلي شرح فيها هذه الحادثة المؤلمة
 وخلاصة تلك الأختيار أن المتنبى استأذن عضد الدولة في المسير الى بلده
 ليقضى حوائج في نفسه ثم يعود اليه فاذن له وخلع عليه ووصله بالمال الكثير . -
 وأنشده قصيدته الأخيرة وفيها نعي كثير لنفسه وتوقع للهلاك كقوله
 واني شئت ياطرقني فكوفي اذاة أو نجاة أو هـلاكاً
 وقد خرج من عند عضد الدولة ومعه مال كثير وكان مسيره من واسطه في
 يوم السبت لثلاث عشرة ليلة بقيت من شهر رمضان سنة ٣٥٤ - وكان المتنبى قد
 هجم من قبل ضبة بن يزيد العتبي باقوال فاحشة وخاض في عرضه وعرض امة وكان
 لضبة هذا خال يسمى فانكا كان سفاكاً للدماء كأنه قد صح فيه المشل القائل بأن
 لكل مسمى من اسمه نصيباً فلما علم بانصراف المتنبى من بلاد فارس وتوجهه الى
 بلاد العراق ترصد له في الطريق ومعه جماعة من بني عمه يقصدون به الشر
 يقول ابو نصر الجبلي في كتابه للخالدين بعد أن ذكر وصول ابي الطيب اليه :
 و فلما أمسينا قلت له يا أبا الطيب على أي شيء أنت تجمع ؟ قال على أن
 اتخذ مركباً فان السير فيه يخف على وقلت له والرأي أن يكون معك جماعة
 يمشون بين يديك الى بغداد . فقضب وجهه وقال لم قلت هذا القول ؟ قلت
 لتستأنس بهم : فقال أنا والجزار في عنقي فما بي حاجة الى مؤنس غيره
 (وبعد حديث) قلت أن هذا الجاهل فانكا الاسدي كان عندي منذ ثلاثة أيام
 وهو غير راض عنك لأنك هجوت ابن أخته ضبة وقد تكلم بأشياء توجب
 الاحتراس والنيقظ ومعه أيضاً نحو العشرين من بني عمه قواهم كقوله . فقال
 غلام ابي الطيب وكان عاقلاً الصواب ما رآه ابو نصر خذ معك عشرين
 رجلاً يسرون بين يديك فاغتاط ابو الطيب من غلامه غيظاً شديداً وشمته شتماً
 قبيحاً وقال والله لا أرضى أن يتحدث الناس باني سرت في خفارة أحد غير سبني .
 قال ابو نصر قلت له يا هذا انا أوجه قوماً من قبلي في حاجة يسرون بمسرك وهم في
 خفارتك . فقال والله لافعلت شيئاً من هذا . ثم قال يا ابا نصر كواسر الطير نخشاني

من عبيد المعنى تخاف علي؟ والله لو أن محصرتي هذه ملقاة علي شاطئ الفرات
و بنو اسد معطشون بخمس وقد نظروا الى الماء كبطون الحيات ما جسر لهم خوف
ولا ظلف أن يردوه. معاذ الله أن اشغل فكري بهم لحظة عين . فقلت له قل ان شاء
الله تعالى . فقال هي كلمة مقولة لا تدفع مقضياً ولا تستجلب أتياً . ثم ركب فكان
آخر العهد به . ولما صح عندي خبر قتله وجهت من دفنه ودفن ابنه وغلماناه وذهبت
دماهم هدرأ « . — وما قاله واتك المتنبى وهو تعفر « قبلاً لهذه اللحية ياسباب »
وجاء في مقدمة ديوانه : « ثم استأذن عضد الدولة وانصرف عنه عائداً
الى بغداد فالكوفة في اوائل شعبان سنة ٣٥٤ فعرض له فاتك بن ابي جهل
الاسدي في الطريق ومعه جماعة من أصحابه ومع المتنبى جماعة من أصحابه أيضاً
فقتلوهم فقتل المتنبى وابنه محسد وغلامه مفاح بالقرب من دير العاقول (١) في الجانب
الغربي من سواد بغداد . وكان مقتله في أواخر رمضان من السنة المذكورة »

هذه هي الرواية المشهورة عن سبب مقتله . ولكن ورد في الصبح المتنبى انه
قتل بإيعاز عضد الدولة . وذلك أنه لما ورد عليه ومدحه ونزل جائزته وهي ثلاثة
الآف دينار وثلاثون أفراس مسرجة محلاة دس عليه الأمير . من يسأله أين هذا من
عطاء سيف الدولة . فقال المتنبى ان سيف الدولة كان يعطى طبعاً وعطاء عضد الدولة
تطبع ففضب عضد الدولة . فلما انصرف ابو الطيب جهز اليه الامير قوماً من
بنى ضبة فقتلوه بعد أن قاتل قتلاً شديداً ثم انهزم فقتل له غلامه أين قولك
الليل والليل والبيداء تعرفني والحرب والضرب (٢) والقرطاس والقلم

فقال قتلتني قتلك الله ثم قاتل حتى قتل

وروى المؤلف المذكور خبراً آخر وهو أن الخفراء جاءوا الى ابي الطيب
وطلبوا منه خمسين درهماً ليسيروا معه . فمنعه الشج والكبر فتقدموه ووقع به ما وقع

(١) بالصافية أو جبل الصافية

(٢) المشهور « والسيف والرمح »

ويجئ إلى ان الصعاليك الذين خرجوا على أبي الطيب في طريقه لم يكن
 قصدهم مجرد الأنتقام وإنما هم قطاع طرق قد علموا ان أبا الطيب قد جاء من عند
 ملك جليل معطاء ومعه بغال موقرة بكل شيء من الذهب والفضة والطيب والتجملات
 النفيسة والكتب الثمينة والآلات فانهمزوا هذه الفرصة مدعين أنهم يتقنون منه لشرفهم وهم
 انما اخرجوا طمعا في أمواله التي كان يحملها معه. ويجئ إلى أيضا ان أبا الطيب قد استمات
 في الدفاع وعاد إلى القتال بعد الهرب حبا في المال لأنه كان يجيلا حريصا على الدنيا
 ورثاه بن جنى (١) شارح ديوانه وابو القاسم مظفر بن المظفر بن الطبرستي (٢)
 وثابت بن هرون الرقي النصراني (٣) وقد استثار عضد الدولة على فاتك الاسدي
 رحمه الله رحمة واسعة

(١) منها :

فاض القريض واودت نضرة الأدب وصوحت بعد ري دوحة الكتب
 عمرت خدن المساعي غير مضطهد ومث كالتصل لم يدنس ولم يعب
 فاذهب عليك سلام المجد ماقلت خصوص الركائب بالأكوار والشعب

(٢) منها :

مارأي الناس ثاني المتنبى اي ثان يرى لبكر الزمان
 كان من نفسه الكبيرة في جيش وفي كبرياء ذى سلطان
 هو في شعره نبى ولكن ظهرت معجزاته في المعاني

(٣) منها :

الدهر اخبت والليالي انكد من ان تيمش لأهلها يا (أحمد)
 قل لي ان اسطعت الخطاب فاني صب الفؤاد الى خطابك مكمد
 أتركت بعدك شاعرا ؟ والله لا لم يبق بعدك في الزمان مقصد
 يا أيها الملك المؤيد دعوة بمن حشاه بالاسمى تتوقد
 هذي نبوا أسد بضيفك او قمت وحوث عطاءك اذ حواه المرقد
 وله عايك بقصده ياذا العلي حق التحرم والذمام الأوكد
 فارع الذمام وكن لضيفك طالبا ان الذمام على الكريم مؤبد

الباب الثاني

اخلاق ابي الطيب

جزئيات الموضوع :

تمهيد في دراسة الاخلاق وتقدير الروايات والاخبار — خلق ابي الطيب في مجموعه —
لم يكن من الكبار بخلقته — قلبه في احواله — لا يعرف العفو — فحشه في هجائه —
الخافة في الطلب — نسيانه الجليل — بخله — هل يجتمع البخل والشجاعة — الفرور — عدم
المداراة — الكبرياء — استقامته في حياته الخاصة — خاتمة في الخلق ورائة واكتسابا

تمهيد

اعتاد الناس ان يدوا رأيهم بتعجل وتسرع وبلا تحفظ ولا تحزر في أى مسألة
من المسائل مما صعبت ومهما اشكلت فلنا منهم ان التروى وطول التفكير مما
يحط من القدر أو علي الأقل مما يخفض من مكانة أولى الفضل . وبهذه المثابة اصبح
الواحد من هامة الناس يستخف با كبر المشاكل مع انه في الواقع لا يستطيع ان
يبدى رأيا أو شبه رأى في أبسط الامور .

فهذه مسألة الاخلاق واكتشافها وبجتها ومعرفة الحالات النفسية وتشخيصها
نرى أن كل واحد يضرب فيها بسهم ويدعى انه مصيب ولو وقف عند هذا الحد
لهان الخطب ولكنه يرى فوق ذلك ان لا رأى الا رأيه . فاذا سأته على أى أساس
بنى قوله أخذ يفكر من جديد وربما تقض ما بنى او بنى ما تقض .

لا بد في كل حكم من حجة يستند عاها أو شهادة عدل يؤخذ بها . فوجب
إذا علي من يتعرض لاصدار الاحكام أن يجمع الادلة ويقدرها فينقى منها ما تسرب
ليه الشك وحامت حوله الشبه ويبقى ما مسلم من المطاعن . وبذلك يكون حكمه
قرب للصحة وابتعد عن الهمة واحق بالتأييد .

قد يوفق الناقد أحياناً الى جمع أدلة قوية ولكنه قد يخطئ في الاستنتاج منها فهل يعد بذلك كأنه لم يستفد شيئاً من مجهوده ؟ كلا انه قد قطع نصف الطريق بسلام ولكنه ضل في الباقي ومن المحتمل ان يهتدى الى سواء السبيل اذا راجع نفسه في الاستدلال ودقق النظر في أوجه الاستنباط .

بناء على ذلك لا ينبغي لمن يكتب في اخلاق عظماء الرجال أو مشاهير الشعراء والكتاب والخطباء وغيرهم أن يضع القواعد المطلقة دون أن يبين الأسباب التي حملته على وضع تلك القواعد اذ ربما رجع هو بنفسه في الغد عن رأيه الذي ابداه بالأمس لانه قد ترجح لديه ان المقدمات التي قدمها لا تنتج مثل تلك النتائج . وبذلك لا يتعذر عليه ان يرجع الى الأسباب الصحيحة .

وقد يحسن كثير من المفكرين في احاطة آراءهم بشيء من الشك فلا يبنونها على انها آراء قطعية انما يقولون : يظهر ، ويترجح ، والمظنون ؛ وغير ذلك من التعبيرات التي تجعل للرأي شبه مرونة يتقبل بها الزيادة والنقصان .

كيف ندرس الاخلاق والحالات النفسية ؟ وما تلك المعلومات الاولية التي يتوصل منها الباحث الى معرفة الاخلاق والحكم عليها ؟

تلك المعلومات لاحد لها . والمدقق البصير يستطيع أن يستنتج الاخلاق والحالات النفسانية من اشياء لا يحصى عددها فيجد عند كل حادثة شاهدا وفي كل أثر دليلا وفي كل قول حجة — انظر الى ابن المعتز كيف أصاب الحقيقة في قوله :

تفقد مساقط لحظ المرعب . فان العيون وجوه القلوب

وطالم بوادره في الكلام . فانك تبحي ثمار الغيوب

اجل ان الاخلاق يتم عليها كل شيء له علاقة بالشخص الذي تبحت اخلاقه : المسكن يدل على اخلاق ساكنه ، والثوب على لابسه ، والكلام على اخلاق قائله والخط على اخلاق كاتبه ، كذلك الاماني والآمال فانها تنبئ عن اخلاق اصحابها الى غير ذلك من المسائل الصغيرة في ظاهرها الكبيرة في اسبابها ونتائجها — لان تلك الاشارات الصغيرة لم تصدر عفواً ولكنها كانت في أعين الناظرين اليها بعد أن

مرت في نفس صاحبها وتصورت بصورة تلك النفس واصطبغت بصبغتها
نركن الى الاستنتاج من هذه الاشياء اذا غاب عند التاريخ الصحيح أو اذا
داخلنا الشك فيما بين ايدينا من الاخبار
لو كان بين ايدينا خط أبي الطيب أو كما نعرف صورة سمعته لمحاولنا أن نتعرف
خلقه بفضل تلك القواعد التي وضعها العلماء المختصون في معرفة الاخلاق من الخط (١) أو من
تقاسيم الوجه وملاحظه واساريره (٢) أو من المشية والاشارات أو الملابس (٣) الى غير ذلك
مما يدخل تحت التسمية العامة وهي استقراء الظاهر لمعرفة الباطن واستنباط المجهول
من المعلوم

وعلى هذه الذكرى اقول ان عندنا علماء قديما يتناقله الناس على شكل قصص
وحكايات ورموز واشارات يعرف بعلم « الفراسة » وما هو الا مجموعة ملاحظات دقيقة
توصل الى نتائج صحيحة . ولو عود الانسان نفسه على كثرة التفكير في أمثاله لثمت
فيه ما كفة الدقة في النظر وما يستنبعها من الاصابة في الحكم — وللقضاة والمحققين ورجال

(١) Graphologie تعرف به اذا عرض عليك خط أحد الناس ان كان الكاتب
كريمًا أو بخيلاً هادى الفكر أو مضطرباً كآتوما لما في نفسه أو جواداً به الى غير
ذلك من الحالات النفسانية

(٢) Physiognomie ابحاث معروفة منذ فلاسفة اليونان وقد زعموا ان
وجه الانسان اذا شابه وجه حيوان من الحيوانات كالذئب أو الثعلب مثلاً كان
ذلك علامة على ان هذا الانسان يشبه في خلقه صفة ذلك الحيوان فهو اما قاس
جبار أو خبيث مخادع — الا ان ذلك العلم خطا خطوات واسعة على رغم ما
قام في سبيله من الاعتراضات — فان دراسة السمات وخطوط الوجه وحدوده
وأجزائه والعين والجبهة والأنف والأذن والفم والشفاه والشعر والصوت وغير
ذلك قد قررت قواعد وأحكاماً أساسها التأثير المادى للاخلاق والانتفاعات في
ظاهر الجسم وهي دراسة شيقة لمن شاء ان يستفيد

(٣) قرأت منذ سنوات مقالة عن دلالة أربطة الرقبة (الكرافات) على
خلق لا بسها في مجلة Je Sais Tout، عنوانها La Cravate (١٥ يوليو سنة ١٩٠٧)

الحفظ والامن طرق وأساليب يتهمون بها الى كشف الاسرار الغامضة بفضل معلومات قليلة الاهمية لا يقيم لها وزن عند السواد الاعظم من الناس

فعلى من اراد ان يعرف اخلاق ابي الطيب ان يجمع بين امرين الاول النقل وهو رواية كافة ما وصل اليها من اخباره مع تحقيقها وتقديرها والثاني الاستنتاج ويعتمد فيه على كل ما وصل اليها من الآثار التي لها علاقة بأبي الطيب — ولكن الرجل لم يخف آثارا اقبلت عليها الايام الا ديوان شعره وهو ليس بالشيء اليسير الذي يستهان به وهو خير المراجع في هذا الباب

اما اخباره التي وصلت اليها ففيها ما يحتاج الى نظر وتحقيق بالنسبة الى شخص الناقل .
مثالها : حكاية ذلك الرجل الذي كان يتوكل لابي الطيب في بيته (١) فمثل هذا الراوي لا

(١) يعرف بأبي سعيد . قال « دعاني أبو الطيب يوما ونحن بحلب ولم أكن أعرف منه اللهو مع النساء ولا الغلمان . فقال لي أرأت الغلام ذا الاصداع الجالس الى حانوت كذا في السوق ؟ — وكان غلاما وسيما وحالتنا تنافي ما هو بسبيله — فقلت نعم أعرفه . قال فامض اليه وائتني به . واتخذ دعوة فأنفق فيها وأكثرت — وكنت أستطلع رأيه في جميع ما اذمق — فمضيت واتخذت له ثلاثة ألوان من الاطعمة وعدة صحاف من الحلوى واستدعيت الغلام فأجاب وأنا متعجب من جميع ما أسمع منه اذ لم تجر له عادة بمثله . فعاد أبو الطيب من دار سيف الدولة آخر النهار وقد حضر الغلام وفرغت من اتخاذ الطعام فأكلنا وأنا نالهما ثم جن الليل فقدمت له شمعة وأمر بوضع دفاتره — وكانت تلك عادته كل ليلة — فقال احضر لضيفك شرابا واقعد الي جانبه ونادمه ففعلت ما أمرني به . كل ذلك وعينه الى الدفتر يدرس ولا يلتفت اليها الا حين بعد حين . فما شربنا الا قليلا حتى قال افرش لضيفك وافرش لنفسك وبت ثالثنا . ولم أكن قبل ذلك ابايته في بيته . ففعلت وهو يدرس حتى مضى من الليل أكثره ثم أوى الى فراشه ونام . فلما أصبحنا قلت له ما يصنع ؟ فقال احبه واصرفه . فقلت له وكم اعطيه ؟ فأطرق ساعة ثم قال اعطه ثلاث مائة درهم . فتعجبت من ذلك ثم جسرت نفسي فدنوت منه وقلت له انه ممن يجيب

ينبغي ان يؤخذ قوله حجة داهية مهيا قربت صلاته بابي الطيب لأن حكاية هذه دلت على انه يشتغل بما يباه شرف النفس ولا ترضاه الاخلاق الكريمة . وذلك مما يسقط عدالته ويجرح شهادته . وما احكم قول الله تعالى « يا أيها الذين آمنوا ان جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا » وقد احسن ابو الطيب واجاد حين قال « وقد ر الشهادة قدر الشهود » وهناك مثل آخر وهو حكاية ابي على الحاتمي والرسالة الحتمية (١) - فهذا الكاتب الاديب لا ينبغي ان نتقبل شهادته على علائها لانه يتشفى لنفسه أولا - لأن المتنبي اهانه واحقره كما زعم - وثانيا لانه يجتهد في ان يرضي معز الدولة والوزير المهلبى . فهذا التعامل من جهة والفائدة التي ينتظرها من جهة اخرى يعرضان أقواله للظمن والتجريح (٢)

ومما يلاحظ على الاخبار المروية عن ابي الطيب انها (جلها ان لم تكن كلها) مواضع

بالشيء اليسير وأنت لم تنل منه حظاً . فغضب ثم قال أظنني من أولئك الفسقة ؛ اعطه ثلاثمائة درهم ولينصرف راشداً . ففعلت ما أمرني به وصرفته « (الصبح المنبى ص ٧٨ - ٨١ ج ١)

(١) تقدمت القصة في ص ٦٩ من هذا الكتاب

(٢) في آخر مقدمة الرسالة الحاتمية عبارة يخيل الى ان المقصود منها التعريض بالطالبيين من طرف خفي ومما يرجح لدى هذا الظن أن المتنبي كان يدعي أنه علوى فلعل الحاتمي أراد بهذه العبارة أن يمجد العباسيين وهم أصحاب الامر في بغداد . - ولوفى الظاهر - ثم جعل المناقشة في شعر ابي الطيب تفتتح على لسان غيره وهو الفتى الطالبى الذي وصفه بقوله « استأذن عليه فتى من فتیان الطالبیین الكوفيين فأذن له فاذا حدث مرهف الاعطاف تميل به نشوة الصبا فتكلم فأعرب عن نفسه فاذا لفظ رخيم وأخلاق فكهة وجواب حاضر وثرغف باسم فى أناة الكهول ووقار الشيوخ فاعجبني ما شهدت من شمائله وملكني ما تبينته من فضله فخاراه أبياتا ومن ههنا كان افتتاح الكلام بينهما فى اظهار سرقاته ومعابى شعره « فلعله أراد أن يجعل افتضاح أمر المتنبي وظهور مساويه على يد علوي مثله لاعلى يد صنيعه من صنائع العباسيين .

للنظار أو كما يقول الاصوليون عن أدلة البرهنة « أدلة ظنية لا تفيد اليقين » (١) فهي أما نقل عن انصاره ويطعن فيها بالمحاباة والمجاملة وأما نقل عن خصومه وبجرحها التحامل والعداء « وما آفة الاخبار إلا روايتها » فقد تنقل عنه حكاية تفيد صفة خاصة وتروى عنه حكاية أخرى تفيد صفة علي تقيض الأولى - وعلى كل حال فإنا سنشير إليها في مواضعها من باب الاستثناس

أما ديوانه فهو المرجع الصحيح الذي اجمع عليه خصومه وأنصاره إلا ان تأويل ما في الديوان هو الذي سيبقى باب البحث في خلقه مفتوحا عند عشاق هذه الابحاث

خلق أبي الطيب في مجموعة

يترجح عندي أن أبا الطيب لم يكن من الكبار بخلقته ولوانه معدود من الكبار بصناعته - من الجائز أن يكون الرجل عظيما باعتبار من الاعتبارات وحقيرا باعتبار آخر - فإن لم يكن أبو الطيب من كبار الرجال بخلقته فهذا لا ينقص من قدره في صناعة الشعر وان لم يكن صحيح العقيدة فهذا لا يؤثر في جودة حكمه ومواعظه فإكل واحد من الناس شخصيات متعددة لا تماس ولا ينبغي أن تماس في نظر الناقد حتى يستطيع أن يرى كل حقيقة على حدها مجردة واضحة (٢)

(١) اخترس من « شاهد عيان » و « مصدر موثوق به » و « جهة شبيهة بالرسمية » . . . ان كنت تطلب الحقائق

(٢) أضرب لك مثلا على تعدد الشخصيات بالمرأة المتزوجة ذات الاولاد. فانك تجدها أحيانا مثالا للشفقة على اولادها وزوجها تتفانى في حبهم وتزهد في كل شيء لنفسها - هذا عند ما تتغلب عليها شخصية الام أو الزوجة . اذذاك تجد شخصية المرأة قد تلاشت في ذلك المخلوق أو بالاحري انهزمت وتخدرت وقتا ما - أما اذا استيقظت الشخصية الأخرى . شخصية المرأة . وقامت تنازع اختيها ثم قهرتها فهناك تظهر تلك المرأة بكل ما فيها من حب الاثرة والانانية . وهناك نفهم معنى التناقض الظاهري في أحوال بعض الناس . ففي المثال المتقدم تجد الزهد

الخلق مسيطر على كل أعمال الانسان ولذلك يمكن ارجاع تصرفات الشخص الى خلقه لانها صادرة عنه متأثرة به فبدراسة تلك الاحوال تستطيع ان تعرف قيمة الخلق واليك البيان :

تقلب أبي الطيب في أحواله (١)

ان صفات ابي الطيب لم تكن خلقاً فيه طول حياته فهو رجل مضطرب الاحوال

والا يثار في الحالة الاولى وتجد الاثرة وحب الذات في الحالة الثانية مع أن الشخص هو هو بعينه أي المرأة — ذلك ان الجهاد كبير والحرب عوان في نفس الانسان بل شخصياته المتعددة فايها فازت تجلت مظاهرها في أعماله — وما أشبه الشخصيات المتعددة بالدوائر المتداخلة ذات المركز الواحد لا تتقاطع ولا يتقابل بعضها مع بعض أو بالسيارات تجري كل منها في مجراها دون ان تتلاقى الواحدة باخرها . فهذه الشخصيات وان شوهدت مرتبطة متلاحمة ولبعضها تأثير في بعض فهي أشبه شيء بذلك التمثيل الجميل الذي جاء في القرآن الكريم عند قوله تعالى " لا الشمس ينبغي لها ان تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل في فلك يسبحون "

(١) كثيراً ما يقع الالتباس بين الخلق والصفات الطارئة فالصفات لا ينبغي ان تعد خلقاً الا اذا توفرت في الشخص في كافة أعماله وجميع أوقاته أما الذي يتصف لكل حادثة بوصف ويتخلق باخلاق مختلفة على حسب مقتضى الحال فهذا ما يسميه علماء النفس بذي الخلق الذي لا شكل له — انظر الى الرجل المخادع الذي ينفق باليمين والشمال ويفتح أبوابه لقصاد نواله تحسبه كريماً جواداً والحقيقة أنه يسعى لغرض في نفسه فهو ناصب شباك يتصيد بها فاذا ما وقع الصيد في شباكه رأته وقد أوصد بابه وجل يده مغلوطة الى عنقه —

انظر أيضا الى كثير من الناس تجدهم يلتهبون غيرة على مبادئ تارة تكون دينية وتارة تكون دنيوية ثم لا تمضي سنوات أو أشهر أو أيام معدودة حتى تراهم قد انقلبوا الى مبادئ أخرى تخالف الاولى على خط مستقيم فهؤلاء لا يفعلون فعلاهم عن خلق فيهم وإنما هي اعراض ووقية لامراض نفسية فهي امازق الشباب

تجسبه مرة قرص الفرسان ثم تراه مرة أخرى وكأنه صورة الجبين ومثال الخور
والضعف وبينما هو يتظاهر بالاباء وعزة النفس اذ تراه يقدم على ما يحجم عنه أهل
العفة والشمم . فكان موضعاً لعجب الادباء ودهشهم . أجل لقد كانوا يعجبون
ويدهشون من تعاضمه على سيف الدولة وتذله الكافور مع عظم الفرق بين الاثنين ذلك
الفرق الذي كان يستوجب عكس الامر - ولعمري الله كيف يستطيع أبو الطيب بعد قوله

وانما الناس بالملوك وما تفلح عرب مـ لو كما عجم

لا أدب عندهم ولا حسب ولا عهد لهم ولا ذم

كيف يستطيع أن يقف بين يدي كافور - وهو أعجم الاعاجم - ويـدحه بتلك
المدائح الخالدة ولا يرضى أن يجلس في حضرته فاذا سئل عن طول وقوفه أجاب :

يقل له القيام على الرؤوس وبذل المسكرات من النفوس

اذا خانت في يوم ضحك فكيف تكون في يوم عبوس

أم كيف ترضى له نفسه بعد أن سجل عليها كراهة العجم أن يتدح فنا خسرو

عضد الدولة بن بويه بمدائح المشهورة التي منها

حتى أتى الدنيا ابن بجدتها فشكى اليه السهل والجبل

شكوي العليل الى الكفيل له أن لا تمر بجسمه العليل

في وجهه من نور خالقه غرر هي الآيات والرسل

لا يستحي أحد يقال له فضلك آل بويه أو نضلوا

فوق السماك وفوق ما طلبوا فاذا أرادوا غاية نزلوا

ومنها في قصيدة أخرى وقد ذكر فيها اسمه واقبه فيها بالفارسية وهو مما يؤاخذ

عليه عشاق اللغة

وقد رأيت الملوك قاطبة وسرت حتى رأيت مولاها

ومن مناياهم براحتيه يأمرها فيهم وبينهاها

وجهل بعواقب الامور واما حب للشهرة والظهور واما جري وراء الفوائد المادية
وجمع الدرهم والدينار ممن فاتتهم التجارب وأصبحوا هدفا لكل ضارب .

اباشجاع بفارس عضد الدولة فناخسرو شاهنشاهها
اساميا لم تزده معرفة وانما لذة ذكرناها
ومن ذلك ايضا ما قاله في ابن طفنج بن جف

حتمه على الاعداء من كل جانب سيوف بني طفنج بن جف القمام
هم المحسنون الكر في حومة الوغى واحسن منه كرم في المكارم
وهم يحسنون العفو عن كل مذنب ويحتملون الغرم عن كل غارم
حييون الا انهم في نزايم اقل حياء من سفار الصومام

هذا تناقض بين لا يمكن الاعتذار عنه فضلا عن تبريره

انظر اليه وقد جاهر بمبدء كبير - يطلب المساواة المطلقة لا أمير ولا سوقي - ذلك المبدأ
الذي يعرفه بعضهم بمبدأ «الديمقراطية»، وأولى به ان يسمى مبدأ «الاشتراكية المتطرفة»
كيف قال مرتجلا حين عزله ابو سعيد الجيمري على تركه لقاء الملوك

ابا سعيد جنب المتابا قرب رأى اخطأ الصومابا
فانهم قد اكثروا الحجابا واستوقفوا لردنا البوابا
وان حد الصارم القرضابا والذابلات السمر والعرابا
ترفع فيما بيننا الحجابا

ثم انظر اليه بعد قليل وقد طرق كل باب حتى كان في مجلس بدر بن عمار فقال :
«وان الامير ادام الله دولته»، كيف هوى من عليين الى اسفل سافلين
فالحقيقة ان ضعف الخلق وعدم القرار على طريقة واحدة وترك التمسك برأى حبا
في مال او طمعا في مركز سام او كبرا على ذي مروءة او خوفا من نظراء اقوياء هو الذي
دفع ابا الطيب الى هذا التغير الممقوت، وذو الخلق الكبير يأبى على نفسه هذا التناقض مهما
كانت اسبابه. واني الاحظ ان هذا التقلب او التلون لم يفارقه منذ عرف أمره (١)

(١) من المشهور في التاريخ عن المطالبين بالملك أو الخارجين على ذوي العروش
والتيجان أو المدعين نبوة أو الوهية أو غير ذلك من الآمال الكبرى أنهم

ابو الطيب لا يعرف العفو

والذي يرجح عندي ان ابا الطيب لم يكن ذا خلق كبير ان لم يكن يعرف العفو حتى ولا في اقل درجاته . واقصد بالعفو هنا معناه العام وهو تلك الحالة النفسية التي يظهر بها الانسان عند ما يبسئ اليه احد الناس وتلك الحالة على ثلاثة مراتب كما قل تعالى « والكافرين الغيظ - والعافين عن الناس - والله يحب المحسنين » فابو الطيب لم يستطع ان يكظم غيظه فضلاً عن ان يعفو او يحسن . والامثلة كثيرة على هذه الفكرة ثبتت ان ابا الطيب لم يكن ليصالح للامور الكبرى كالمالك وغيره مما يجب علي من يتولاها ان يكون قادرا على تملك نفسه عند الغضب واخفاء ما يحتاج به صدره عند كل انفعال نفساني ... وبالجملة فان شاعرنا لم يكن يعلم شيئاً من « حلم معاوية » ولم يستطع ابو الطيب ان يملك عواطفه ويهيمن على انفعالاته النفسية عند ما رحل

يثبتون على ادعائهم ولا ينتنون عن عزمهم مهما صادفهم من المصاعب وخصوصاً من كان منهم في سن الشبيبة . وقد يبلغ بهم التشبث بآرائهم ان يعترفوا بكل ما عملوه ولا ينكروا صدق ادعائهم ويكبر عليهم اذا وقعوا في مكروه ان يشفع لهم شفيع وكثير منهم ينتحرون بايديهم اذا فشلوا في امورهم
اما ابو الطيب فانه اول مذاق غضاضة السجن اخذ يتنصل من نبوته وينكر دعوته ويستعطف الامير تارة بصغر سنه ويسترحمه تارة اخرى بامه التي تبكى عليه دماً . وانتهى به الامر ان أمضى صك التوبة والتنازل عن امتيازات اولي العزم من الرسل وأصبح فرداً من عامة الناس ونسى أو تناسى ما جاء به من كلام الله ورسالاته . وليس فعل ابو الطيب في هذا المقام من باب الاذعان الي الحق والرجوع عن الرأي الفاسد ولكنه كما قال المثل « مكره أخاك لا بطل » وما حيلة العاجز المقهور الا الطاعة والامتثال وما كانت توبته أمام الوالي الا كتوبة ذلك السكير القائل

يقول أبو سعيد مذرآني . غفياً منذ عام ما شربت
على يد أي شيخ تبت قل لي . فقلت على يد الافلاس تبت
فكانت توبته بمثابة « اشهار الافلاس »

عن سيف الدولة وقصد كافورا . واثن كان في بعض الاحيان قد احسن واجمل في
حق اميره الاول بعد فراقه ففى احيان اخرى قد اساء وخرج الى شر من الهجاء . فمن
احسانه واجمله قوله

فراق ومن فارقت غير مذمّم وام ومن يممت خير ميمم
وقوله في نفس القصيدة وهي مما قاله في كافور بعد ان اقام عنده طويلاً . ولعله كان
قد عرف فضل سيف الدولة وندم على فراقه

فلو كان ما بي من حبيب مقنّع عذرت ولكن من حبيب معمم
رمى واتي رهي ومن دون ما اتقى هوى كاسر كفى وقوسى وأسهمى
ولكن غلب عليه ضميره الخلقى وانفعاله الذى لم يقدر على حبسه فقال
اذا ساء فعل المرء ساءت ظنونه وصدق ما يعتاده من نومه
وعادى محبيه بقول عداته وأصبح في ليل من الشك مظلم
ثم ادعى ادعاء لا أظنه في طبعه تقال

اصادق نفس المرء من قبل جسمه وأعرفها من فعله والتكلم
واحلم عن خلى واعلم انى متى أجزه حلاء على الجهل يندم
وان بذل الانسان لي جود عابس جزيت بجود التارك المتبسم
فلو كان هذا في سجيته لما نطق بتلك الاهاجى المؤلة ولادنس لسانه بفتحش أقواله
المعروفة ولكنى أرى ان تلك آمال يتمناها ويحلم بها و « ما كل ما يتمني المرء يدركه »
أقول ان تلك الكلمات الطيبة التى صدرت من أبي الطيب في حق سيف الدولة
بعد رحيله عنه إنما قالها بعد ان عرف الفرق العظيم بين ممدوحه الذى اشتهر به وبين
غيره من الامراء . وانى أكاد أعتقد أن أبا الطيب لم يفارق سيف الدولة الا كبراً
وعناداً ولأنه تأنى في الامر وتبصر في العواقب لما وقع فيما وقع فيه ولما اضطر أن يعترف
بخطئه وسوء تدبيره في كثير من شعره مثل قوله

وفارقت خير الناس قاصد شرم وأكرمهم طراً لا لآمهم طراً
فما قبى المحصى بالقدر جازياً لان رجيلي كان عن حباب غدراً

وما كنت الا فائل الرأي لم اعن بحزم ولا استصحبت في وجهتي حجرا
وفي قصيدة أخرى

وما لاقني بلد بعدكم ولا اعتضت من رب نعماي رب
قلت ان تلك الكلمات الطيبة والاشارات الغريفة الى مكانة سيف الدرلة في
قلب ابي الطيب لم تصدر عن شاعرنا الا بعد ان انصرفت عن نفسه ثورة الغضب
وانقشمت عن عيبيه سمحابة الحقد علي ممدوحه القديم والا لو كانت تلك العواطف
التي أبدأها هي التي كانت تتملكه في أول الامر لما نثت ذلك السم الزعاف في تعريضه
بسيف الدولة فمن تلك الانفعالات التي اصحبها مخففة ملطفة قوله معرضاً بسيف الدولة
حيبتك قلبي قبل حبك من نأى وقد كان (غداراً) فكان أنت وافيها
وأعلم ان البين يشكيك بعده فلست فؤادي ان رأيتك شاكياً
فان دموع العين غدر بربها اذا كنّ أثر (الغادرين) جوارياً
اذا الجود لم يرزق خلاصاً من (الاذي) فلا الحمد مكسوباً ولا المال باقياً
وللنفس أخلاق تدل على الفقى أكان سخاء ما أتي أم (تساخياً)
أقل اشتياقاً أيها القلب ربما رأيتك تصفى الود (من ليس صافياً)
خلقت أوفاً لو رجعت الى الصبا لفارقت شيبى موجع القلب باكياً

وهذه الابيات كما هو معروف من قصيدته الاولى التي قالها في كافور والطمع
مل جوانحه والآمال تخيل له المستقبل كما يهوى ويجب زاعماً انه يذال عند ممدوحه
الجديد ما يرغم به أنف مخدومه القديم

وقوله وقد اتصل به ان قوماً نعوه في مجلس سيف الدولة

مما أضر بأهل العشق انهم هورا وما عرفوا الدنيا ولا فطنوا
تفني عيونهم دمعاً وأنفسهم في اثر كل (قبيح وجهه حسن)
تحملوا - حملتكم كل ناجية! - فكل بين على اليوم مؤتمن
(رأيتكم لا يصون العرض جاركم ولا يدرّ على مرعاكم اللبث)
(جزاء كل قريب منكم ملل وحظ كل محب عندكم ضغن)

(وتغضبون على من نال رفقكم حتى يعاقبه التنقيص والمثني)
سهرت بعد رحبلي زوحشة اكم ثم استمر مريري وارعوي الوسن
وان بُليت (بود مثل ودم) فاني بفراق مثله قمن
فاذا كان « الحلم سيد الاخلاق » و « الغضب غول الحلم » فاحكم بعد هاتين
تقضيتين بما بقي لشاعرنا من الاخلاق

هذا ما يراه ابو الطيب من العتاب النظيف والتعريض العنيف مع ما فيه من وصف
صاحبه القديم بالعدروالمن والاذى وانه ليس بصاف في مودته وانه يتصنع السخاء وانه
قبيح الفعل حسن الوجه وانه لا يصون عرض الجار الى غير ذلك مما يضيق به مجال
الشتائم والسباب

وفضلا عن أنه لا يعفو اذا قدر فانه ينصح لاهل العفو بالاحتراس من عواقبه
كأنما ينفر منه ويزهد فيه وينادي بالاقلاع عنه - هذه حادثة كان العفو ختامها فانظر
الى شاعرنا كيف يقول فيها

وماتوا قبل موتهم فلما مننت اعدتهم قبل العاد
غمدت صوارما لولم يتوبوا محوتهم بها محو المداد
وما الغضب الطريف وان تقوي بمتصف من الكرم التباد

فكلام الشاعر الى هنا جميل حيث وصف عفو الامير وثره الصالح وعاقبة البطش
ان لم يكن قد صفح ثم زادني رفع شأن ممدوحه بانه من سلالة اهل الحلم والعطف اذ قل
ان الغضب الطاريء مها قوي فانه لا يتغاب على الحلم الموروث المتأصل في النفس -
كل هذا جميل - ولو كان الشاعر وقف عند هذا الحد أو استرسل في اطراء ممدوحه
لما كان عليه أي ملام لان الحادثة قد انتهت بسلام والامير قد عفا عن الخطئين
فليس تمت ما يدعو الي اعلان ما كمر في الصدور من حقد قديم أو ايقاظ الفتن النائمة
واثارة الخواطر بعدما هدأت . ولكن نفس شاعرنا العاتية وطبعه الجبار ايبا عليه الا ان
يجهر بالنصيحة القاسية ويشير بالرأي الدموي فقال

فلا تغررك ألسنة موال تقلبن افئدة اعادى

وكن كالموت لا يرثي لباك بكي منه وبروى وهو صاد
فما أقسى شاعرنا وما اغاظ قلبه حين يقول وو كن كالموت لا يرثي لباك ،، على
انه لا يكيل تلك النصيحة بنير حساب ولا يأمر بها الاوقد مهد لها السبيل ودعها
بالحجج والامانيد اذ قال

فان الجرح ينفر به حين اذا كان البناء على فساد
وان الماء يجري من جماد وان النار تخرج من زناد
وكيف يبيت مضطجعا جبان فرشت لجبنه شوك القتاد
يرى في النوم رمحك في كلاه وينحش أن يراه في السهاد
ليس هذا مما يدخل في حكم وو واذا بطشتم بطشتم جبارين ،، ولا أجد أدل
على صفة الجفاء والقسوة في شاعرنا من قوله في مخاطبة ديار أحبابه
مات القطر اعطشها ربوعا والا فاسقها السم النقيما
اسألها عن المتديريا فلا تدرى ولا تدرى دموعا
لحاها الله . . . الخ

هذه نحية « مباركة طيبة » يرسلها ابو الطيب الي ديار الاحباب و يدعو لها فيها
بالامان والسلام !!

ولم نحوم حول رأيه ولا ندخل اليه من بابيه ؟ الم يقل هو بنفسه
ومن عرف الايام معرفتي بها وبالناس « روّى ربحه غير راحم »
فليس بمرحوم اذا ظفروا به ولا في الردى الجارى عليهم بأثم
اذا صلت لم اترك مجالاً لفاتك ...

الفتحش في الهجاء

ومما يدل على أن أبا الطيب كان في خلقه من عامة الناس أو بعبارة اخرى أصح
وأدق أنه كان يشبه في خلقه السوقة والرعاغ اقواله في التعريض بخصومه . انظر اليه
في هجاء ابن كينغ كيف يقول : (١)

(١) كان ابن كينغ قد منعه من المسير الي انطاكية

يحمي ابن كيخاخ الطريق وعرسه ما بين رجليها الطريق الاعظم
اقم المسالخ فوق شفر سكينه ان المنى بمحلتها خضرم
وارفق بنفسك ان خلقت ناقص واستر اباك فان اصلك مظلم
واحذر مناواة الرجال فانما تقوى على « كمر » العبيد وتقدم

وقوله في هجاء ضبة بن يزيد العتيبي

ما انصف القوم ضبه وامه الطرطبة

والقصيدة مشهورة بمعانيها القذرة والفظها الفاحشة مما يدور على السنة السفلة
من الناس وقد اكثر فيها من ذكر العورات والسوات بما يستغيب منه الحياء وانى
اشير الى انظف ما فيها . قال

وما عليك من العار ان امك قجه
وما يشق على الكلب ان يكون ابن كلبه
ما ضرها من اتاها وانما ضر صلبه
كل « الفعول » سهام لمريم وهي جعبه
يا اطيب الناس نفسا والين الناس ركب

هذا نموذج مما تحويه تلك القصيدة التي لاحظ ان بعض ناشري شعر المتنبي
قد حذفوا منها جزء رحمة بالآداب وصوناً لكرامة الشاعر نفسه .

هذه الاقوال لا تصدر عن الانسان الا اذا نصب ماء الحياء من وجهه وعلم أن
لا رقيب عليه من الله ولا من الناس ولا من نفسه

من المتداول على السنة الناس ان الكذاب اذا هم بقول الزور ناداه الايمان من
قلبه « اصبر حتى اخرج » - وكذا يقول الحياء وكذا تقول كل فضيلة

وبهذه المناسبة أقول ان تأثير شعر ابن الرومي في نفس أبي الطيب يظهر في
القصائد المتقدمة فهي من نفس الروح التي قال بها ابن الرومي قصائده الهجائية أو
المجونية - فقصيدة المتنبي في ضبة هي صورة كاملة لقصيدة ابن الرومي في بوران -
فكلاهما قد اطلق العنان للسانه في ذكر السوءات ومن شاء فليراجع القصيدتين

ويقارن بين معانيهما . واني لا أقول ذلك حصاً على الاطلاع على مخازي الشاعر بن
وانما أدل قط على المواضع التي ظهر فيها تأثير شعر ابن الرومي في ملكة راويته
ومن هذا القبيل — وهو مما يدل على أن أبا الطيب كان سرقى الخلق — انه في
هجه به يعبر أعداءه بعاهاتهم الخلقية التي لم يكتسبوها بأنفسهم . أتراه غير سارقاً أو
قاطع طريق بما بتر من جسده اقامة للحد ؟ كلا — وعلى العموم فذو الخلق الكبير
يترفع عن مثل هذا التعبير لأن تلك النقائص الوهمية لا تزرى بخصومه ولا تحط من
أقدارهم وكان الاولى بشاعرنا ان يترحم عليهم من أجلها لأنها تأثير عاطفة الشفقة وتبعث
النفوس الكريمة على العطف عليهم . — أنظر اليه كيف يقول لأحد خصومه وكان أعور:

فيا ابن (كرويس) يا نصف أعمى وان تفخر فيا نصف البصير

تعاديننا لأننا غير لُكن وتبغضنا لأننا غير عور

وقوله في آخر

أثرى القيادة في سواك تكسباً يا ابن الاعير (١) وهى فيك تكرم

يعير أبو الطيب كافوراً بسواده وهذا في الواقع ليس من ذنوب كافور ويعيره
بأنه مشوه الخلقة وهذا لم يجنه كافور على نفسه ويعيره بأنه مخصى وبأنه خنى وهذا
لا يستطيع كافور ان يفعله بنفسه حتى يعد عايه سيئة ويعيره بأنه عبد وكافور لم يدفع
بنفسه الى السوق حتى يباع ويشترى

وأقوال أبي الطيب مستفيضة في هذا الباب والكنى أذ كر شيئاً قليلاً استشهاداً

على ما أقول : — قال في كافور

و (أسود) مشفره نصفه يقال له أنت بدر الدجى

وأبو الطيب كان قد قال له من قبل « تفضح الشمس . . . »

ألم يفهم (الخنثى) مقالى وانى أفارق من أقلى بقلب مشيع

لا شيء أقبح من فحل له ذر تقوده أمة ليست له رحم

(١) اعير : تصغير أعور

من كل رخو وكاء البطن منفتق لا في الرجال ولا الذسوان معدود
أولى اللثام (كويفير) بمعذرة في كل لثوم وبعض العذر تفتيد
وذاك ان الفحول البيض عاجزة عن الجميل فكيف الخصبة السود
ولو أن أبا الطيب كان قد مدح كافوراً من قبل أن يراه لكان له العذر اذا رجع
عن رأيه فيه وهجاه فيما بعد . أما وقد مدحه بعد أن قدم عليه وأقام عنده طويلاً
وتكررت مدائحه فيه فلم يكن يجمل به أن يقول بالامس « أبيض » ثم يعدل في الغد
فيقول « أسود » فان الممدوح هو هو بنفسه لم يتغير : الاسود المشفق الارجل ذو
الشفاه الغليظة والبطن الكبير

وهنا أيضاً نجد التناقض الممقوت الذي لا يمكن تأويله

« ٥ »

ومما يدخل ضمن الاقوال التي تشهد على أبي الطيب بضعه الخلق انه يعير خصومه
بأنه يطعمهم من زاده وهذا على ما أرى أحط درجات المن والاذى . قال
وربما اشهد الطعام معي من لا يساوى الخبز الذي أكله
وقال في كافور

جوعان يأكل من زادى ويمسكني لكي يقال عظيم القدر مقصود
وقوله فيه أيضاً

لو كان ذا الآكل ازوادنا ضيفاً لأوسرناه احسانا
لكنتنا في العين اضيفه يوسعنا زورا وبهتانا

فمثل هذه الاقوال التي سردها لا تصدر عن صاحب الخلق الكبير مهما أودى
أو أسىء اليه ومن هنا نفهم معني قوله تعالى « والكاظمين الغيظ » قولاً وفعلاً
وموضع العجب أن يدعو شاعرنا الى الادب الجميل ولكنه لا يلتزمه ولا يرعاه
كأنه المعني بقول الله . « تأمرون الناس بالبر وتنسون انفسكم » أو قول الحريري في
اولي مقاماته « تأمر بالمعروف وتنتهك حماه وتحمى عن المنكر ولا تتحاماها » . . .
ولأبي الطيب قول جميل يليق بهذا المقام قال :

وفارس الخليل من خفت فوقها في الدرب والدم في اعطافه دفع
قاوحده وما في قلبه قلق « واخضبه وما في قوله قدح »
وله قول آخر لا يقل حسنا
ولم تفرق عند الامنة رحمة ولم تترك الشام الاعادي له حبا
ولكن نفاها عند غير كريمة كرم الثنا ما سب قط وسبا (١)

(١) انى أرى الهجاء في ذاته دليل النقص في الخلق واعتقد أن الهجائين من
الشعراء قد خرجوا على مكارم الاخلاق - وانى لأكبر كل من ترفع عن الهجاء
وقابل السيئة بالحسنة أو على الاقل بالسكوت والتغافل فان هذا أوقع في نفس
المتدي - ان كانت له نفس حساسة - وشاهد على مكانة المترفع عن الاذي في
نظر المعاصرين له وما أحسن قول لقيط بن زرارة في الرد على كل هجاء :
« هنيئاً مريئاً انت بالفحش أحذق » (صهاريج التؤلؤ ص ٢١٣)

الأثرى وأنت تقرأ باب المهاجة في كتب الأدب كأنك تشهد مضاربة الديكة
أو مناطحة الكبوش أو مصارعة الثيران . بلا انك ترى أفضع من ذلك وأنكر :
تري الانسان ينهش عرض اخيه الانسان

ان باب الهجاء سيئة من سيئات حفظ الآثار وجناية على الأدب ومكارم
الاخلاق فيه تلقين الشر للمبتدئين وافساد ملكة الحسن في نفوس طالبي الفن الجميل
واغراء ذوى النفوس الساقطة بالتفوق في هذه الحرب الشعواء ولهم شفيع لا يرد
هو تاريخ الأدب ما حواه من تمزيق الاعراض .

أنظر الى كلمة طيبة في خلال فصل من فصول كتاب العمدة لابن رشيق عقده
في « من رغب من الشعراء عن ملاحاة غير الأكفاء » قال فيه : ومنهم من
لا يهجو كفاء ولا غيره لما في الهجو من سوء الأثر وقبيح السمعة كالذى يحكى
عن العجاجى انه قيل له : لم لا تهجو ؟ فقال : ولم اهجو ؛ ان لنا احسابا تمنعنا من
أن نظلم واحلاما تمنعنا من ان نظلم . وهل رأيتم بانيا لا يحسن أن يهدم ؛ ثم قال :
اتعلمون أنى احسن أن أمدح ؟ قالوا نعم . قال : أفلا احسن أن أجعل مكان أصلحك
الله ، قبحك الله ، ومكان حياك الله ، اخزاك الله ؟»

كثرة الالحاف في الطلب

إذا أمعنا النظر في مثل حادثة زهير ابن ابي سُلي الجاهلي مع هرم بن سنان (١) أو اعتراض لبيد بن ربيعة على ابنته عند قولها « فعد ان الكريم له معاد » (٢) أو الشريف الرضي لما رد هدية الوزير فخر الملك (٣) — لأدركنا أن قبول العطاء غل

(١) أحد امراء ذبيان وكان اقسام أن لا يمدحه زهير الا اعطاه ولا يسأله الا اعطاه ولا سلم عليه الا اعطاه عبداً أو ليدة أو فرسا فاستحي زهير من كثرة ما كان يقبل منه حتى أصبح اذا رآه في ملاً من الناس قال « عموا صباحا غير هرم . وخيركم استثنيت » (جورجى زيدان . تاريخ آداب اللغة العربية . ص ١٠٥ ج ١)

(٢) كان لبيد من كرام قومه ومن اجواد العرب وكان قد آلى على نفسه في الجاهلية الا تهب صبا الا اطعم . فهب الصبا يوما والوليد بن عقبة في الكوفة فصعد المنبر وخطب الناس قائلاً : ان أخاكم لبيداً بن ربيعة قد نذر في الجاهلية الا تهب صبا الا اطعم وهذا يوم من أيامه فاعينوه وانا أول من فعل — ثم نزل عن المنبر وارسل اليه بمائة بكرة وكتب اليه بعض أبيات — فاما بلغت أبياته لبيداً قال لابنته أجيبه فقالت

أبا وهب جزاك الله خيراً نحرناها فاطعمنا الثريدا

فعد أن الكريم له معاد وظنى لا أبالك أن تعودا

فانكر لبيد على ابنته البيت الاخير وقال لقد أحسنت لوالدك أستطعمته

« وقيل أستعدته » (جورجى زيدان . نفس الكتاب ص ١١١ — ١١٢ ج ١)

(٣) قال ابن ابى الحديد شارح نهج البلاغة في مقدمة كتابه :

« قرأت بخط محمد بن ادريس الحلبي الفقيه الأمامي قال حكى أبو حامد أحمد

ابن محمد الاسفرايينى الفقيه الشافعي قال كنت يوماً عند فخر الملك ابى غالب محمد

ابن خلف وزير بهاء الدولة وابنه سلطان الدولة فدخل عليه الرضى أبو الحسن فاعظمه

وأجله ورفع من منزلته وخلي ما كان بيده من القصص والرقاع واقبل عليه بمحادثه

الى أن انصرف ثم دخل بعد ذلك المرتضى أبو القاسم رضى الله عنه فلم يعظمه

ذلك التعظيم ولا أكرمه ذلك الاكرام وتشاغل عنه برقاع يقرؤها وتوقيعات

في العنق ومذلة في كثير من الاحيان فما بالناس اذن بالالاحاح في الطالب واراقة ماء الوجه
في اسندرار العطاء . ولكن شاعرنا يقول : « ومن وجد الاحسان قيذاً قيذاً »
واني ليحزني أن اكون في هذا الموضع واغفل يتبين لمهيار الديلمي صاحب المرائي

يوقع بها بئس قليلاً وسأله أمراً فقضاه ثم انصرف .
« قال أبو حامد فتقدمت اليه وقلت له أصلح الله الوزير هذا المرتضى هو
الفقيه صاحب الفنون وهو الأمثل والأفضل منهما وانما أبو الحسن شاعر . فقال
لي اذا انصرف الناس وخلا المجلس أجبتك عن هذه المسألة . وكنت مجمعاً على
الانصراف فبأني أمر لم يكن في الحساب فدعت الضرورة الى ملازمة المجلس
الى أن تقوض الناس واحداً واحداً . فلما لم يبق الا غلماناه وحجابه دعا بالطعام
فلما أكلنا وغسل يديه وانصرف أكثر غلماناه ولم يبق عنده غيري قال لخادم له
هات الكتابين اللذين دفعتهما اليك من أيام وأمرتك أن تجعلهما في السفط الفلاني
فأحضرهما . قال فهذا كتاب الرضى . انصل بي أنه قد ولد له ولد فانفذت اليه
الف دينار وقلت هذه للقبالة فقد جرت العادة أن يحمل الأصدقاء الى أخلائهم
وذوي موتهم مثل هذا في مثل هذه الحال . فردها وكتب الي هذا الكتاب
فاقرأه قال فقرأته وهو اعتذار عن الرد وفي جملته اننا أهل بيت لا يطلع
على أحوالنا قابلة غريبة وانما عجايزنا يتولين هذا الامر من نساءنا ولن
من ياخذن أجره ولا يقبلن صاته . قال فهذا هذا . وأما المرتضى فاننا كنا
قد وزعنا على الأملاك « ببادردبا » تقسيطاً نصرفه في حفر فوهة الشهر
المعروف بنهر عيسى فاصاب ملكاً للشريف المرتضى بالناحية المعروفة بالداهرية
من التقسيط عشرون درهماً ثمنها دينار واحد فقد كتب الي من أيام في هذا
المعنى هذا الكتاب فاقرأه فقرأته وهو أكثر من مائة سطر يتضمن من الخضوع
والاستمالة والهز والطلب والسؤال في اسقاط هذه الدراهم عن أملاكه المشار
اليها ما يطول شرحه . قال نخر الملك فأيها ترى أولى بالتعظيم والتبجيل هذا العالم
المتكلم الفقيه الأوحده ونفسه هذا النفس أم ذلك الذي لم يشهر الا بالشعر خاصة
ونفسه تلك النفس ؟ فقلت وفق الله تعالى سيدنا الوزير ما زال موقفاً والله
ما وضع سيدنا الوزير الأمر الا في موضعه ولا أحله الا في محله وقت وانصرفت »

لمشهوره في الشريف الرضي يقول فيهما :

اكرم يدبك عن السؤال فانما قدر الحياة اقل من أن تسألا
واذا امرؤ افنى الليالي حسرة وامانيا افئيتهم توكللا
وقد سقت هذا الخواث استشهادا بالشعراء الذين كبرت نفوسهم لاعن السؤال
فقط وليكن عن تقبل العطاء - وهذا خلق كبير لا يملكه كل واحد
وما كان اكرم شعراء الجاهلية حينما تعففوا عن التكسب بالشعر وعدوا الارتزاق
من هذا الباب منقصة في حق الشاعر .

ولو كان شاعرنا ابو الطيب قد وقف في مدائحه عند الشكر على العطاء وجعل
مدحه بمثابة قضاء الدين عن نفسه فبذبح العوض شعرا ولا يبخل بوفاء حق في عنقه
لكان وقف ذلك الموقف الكريم الذي صوره ل نفسه في قصيدته المشهورة التي قالها
في أبي شجاع فأتك حين قدم من الفيوم الي مصر وحمل الي أبي الطيب هدية ثمينة :
لا خيل عندك تهديها ولا مل فليسعد النطاق ان لم تسعد الحال
وفيها يقول

وما شكرت لان المال فرحني سيان عندي اكثر واقلال
لكن رأيت قبيحا أن يجادلنا واننا بقضاء الحق بخال
ما كان اجمل ما يفعل لو سلك تلك الطريق وترفع عن الطالب والسؤال واذلال
النفس مع أن الخير كان يدر عليه بغير حساب - ولكن هو الطمع يدفع بصاحبه الي
المزاق الخطرة ويسم جبينه بالوان من الصغار ما كان اغماه عنها لو انه تعفف قليلا -
انظر اليه وقد عاوده الرشد كيف يرجم على نفسه باللائمة حيث يقول :

ابمين مفتقر اليك نظرتني فاهنتني وقدفتني من حاق؟
لست الملموم انا الملموم لانني انزلت آمالي بغير الخالق
أما الخافه في الطالب لدى ممدوحه ولدى كافور بصرة خاصة فقد تجاوز الحد
وتلك امثلة مما قال .

ومكرمات مشت على قدم الس - - ير الي منزلي ترددها

(فقد) بها لاعدمتها أبداً فخبر صلوات الكريم اعودها

كم مهمه قذف قلب الدليل به قلب المحب قضاني بعد ما ماطلا
حق وصلت بنفس مات اكثرها وايتني عشت منها بالذي فضلا
(ارجو) نذاك ولا اخشى الماطال به يامن اذا وهب الدنيا فقد بخلا

ياذا الذي يهب الكثير وعنده انى عليه بأخذه اتصدق
(امطر) على سحاب جودك ثرة وانظر الي برحمة لا اغرق

ولقد قصدتك والترحال مقرب والدار شامعة والزاد قد نفدا
(فخل كمك تهى) واثن وابها اذا اكتفيت ولا اغرق البلادا

(أجزني) اذا انشدت شعرا فانما بشعري أتاك المادحون مرددا
وقيدت نفسي في ذراك محبة ومن وجد الاحسان قيـدا تقيدا
وفي كافور:

يارجاء العيون في كل أرض لم يكن غير أن أراك رجائي
ونقد أفنت المفاوز خيلي قبل أن نلتقى وزادى ومائى
فارم بي ما أردت فاني أسد القلب آدمى الرواء

قالوا هجرت اليه الغيث قلت لهم الي غيوث يديه والشـ آيب
الى الذي تهب الدولات راحته ولا يمن على آثا. موهوب

يريد ان يخدم المدوح حتى يهبه احدى الدولات

وغير كثير ان يزورك راجل فيرجم ملكا للعراقين واليا

ألا ليت يوم السير ينخبـ بر حـره فتسـأله والليل ينخبـ برده
وليتك ترعاني ود حيران « معروض فتعلم أنى من حسامك حـده
وانى اذا باشرت أمراً أريده تدانت أقاصيه . وهان أشده
فان نلت ما أملت منك فر بما شربت بماء يعجز الطير وردة

ووعدهك فعل قبل وعده لأنه
فكن في اصطناعي محسناً كمجرب
إذا كنت في شك من السيف قابله
وإني لفي بحر من الجود أصله

أبالمسك (هل في الكأس فضل أناله)
وهبت علي مقدار كفي زماندا
إذا لم تظ بي ضبيعة أو ولاية

وقد ظهرت ضمته في القصيدة التي يذم فيها سيف الدولة وينسبه الي البخل
والغدر وقوله انى تركت هذا الغادر الي كافور الوفي الذي سيعطيني ويحسن الي :

عند الهمام ابي المسك الذي غرقت
وان تأخر عني بعض موعده
هو الوفي ولكني ذكرت له

(أرد) لي جميلاً جدت أو لم تجدد به
فانك ما أحببت في أتاني

رضيت بما ترضي الي محبة
ومثلك من كان الوسيط فؤاده
وقدت اليك النفس قيد المسلم
(فكلمه عني ولم أتكلم)

أرى لي بقربي منك عيناً قريرة
وهل نافي أن ترفع الحجب بيننا
أقول سلامي حب ما خف عنكم
وفي النفس حاجات وفيك فطانة
وان كان قريباً بالبعاد يشاب
ودون الذي أملت منك حجاب
وأسكت حتي ما يكون جواب
(سكوني كلام عندها وخطاب)

وآغوثاه ! - كما قال ابن الرومي - هل هذا سكوت ولم تخل له قصيدة من الطلب

والسؤال ؟ - هلاقال لنا رحمه الله كيف يكون الكلام ؟

عدم الاعتراف بالجميل

من غريب ما يلاحظ على مجموع شعر أبي الطيب انه لا يعترف لأحد بالجميل الا ما دام في حماه فاذا فارقه ونزل على غيره نسي ما كان من معروف الاول بل وأوسعه لوماً وذاً في بعض الاحيان - كأقواله في سيف الدولة وكافور قد يجوز ان يقال بأن طريقة أبي الطيب في المدح ان يقصر الصفات الطيبة على ممدوحه دون غيره من الناس وتكون المسألة هنا مسألة صناعة فقط - ولكن يرد على هذا بأن الاسلوب الصناعي أو الفني بعبارة أخرى انما تولد في ذهن الشاعر بتأثير الاخلاق - لأن ليس ثمت ما يدفع الشاعر لأن ينال من أعراض غير الممدوح أو أن يس كرامتهم

قال أبو الطيب في ابن طنج عند ما قدم اليه - ولست أعرف الشخص الذي يعرض به الشاعر ولكن العكبري في شرحه يشير الى انه من أهل طبرية يدعي النسب الي علي كرم الله وجهه

ككريم لفظت « الناس » لما بلغته
وكاد سروري لا يفي بندامتي
وفارقت شر الأرض أهلاً وثرية
أمثلة أخرى في هذا المعنى :

وقابلك في الدنيا ولو دخات بنا
ألا كل سمح غيرك اليوم باطل
انظر كيف يقول امض الدولة عند وداعه
ومن اعتاض منك اذا افترقنا
وهو اشبه بقوله في ممدوح آخر

لو أستطيع ركبت « الناس كلهم » الى سعيد ابن عبيد الله بُعرانا
ألم يكن أحديسائل أبا الطيب ما ذنب « كل الناس » حتى يجعلهم ضحية لممدوحيه ؟

وقال في سيف الدولة

ليس الاك يا هلى همام سيفه دون عرضه مساول
وقل الناس أهراضهم مبدولة؟ وقال أيضا

واما وحقك وهو غاية مقدم للحق أنت وما سواك الباطل
وقال في ممدوح آخر

لولاك لم أترك البحيرة والسفور دفيء وماؤها شيم
الى ان يقول بعد وصف البحيرة

يشينها جريها على بلد تشينه الادعياء والقزم

فخط القديم عنده مبخوص منقوص - وقال في ابن العميد

ما تعودت أن أرى كأي الفضل وهذا الذي أتاه اعتياده

وقل في كافور وفيه من الطعن في سيف الدولة ما فيه

قواصد كافور توارك غيره ومن قصد البحر استقل السواقيا

فجاءت بنا انسان عين زماه وخلت يابضا خلفها وآقيا

نجز عليها المحسنين الى الذي نرى عندهم احسانه ولا ياديا

قلوا هجرت اليه الغيث قلت هم الى غيوث يديه والشايب

الى الذي نهب الدولات راحتته ولا يمت علي آثار موهوب

وما طربي لما رأيتك بدعة لقد كنت أرجوان أراك فأطرب

وتعداني نيك القوافي وهمي كأنى بمدح قبل مدحك مذنب

وقال في فاك أحد أمراء مصر

بمصر ملوك لهم ماله ولكنهم ما لهم هم

فأجود من جودهم بخله وأحمد من حمدهم ذمه

وأشرف من عيشهم موته وأنفع من وجدهم عدمه

البخل

يشجعني على ترجيح ضعة خلق المتنبي انه كان بخيلاً وحكايات بخله مستقبضة
وقد امتصها صاحب كتاب الصبح المبني (١)

(١) ص ٨١ وما بعدها ١٢٠ - سبب بخله :

قال أبو البركات بن أبي الفرج المعروف بابن زيد التكريمي الشاعر قال بلغني
أنه قيل للمتنبي قد شاع عنك من البخل في الآفاق ما قد صار سمرّاً بين الرفاق
وأنت تمدح في شعرك الكرم وأهله وتذم البخل وأهله ألسنت قائل
ومن ينفق الساعات في غير ماله مخافة الفقر فالذي فعل الفقر
ومعلوم ان البخل قبيح ومنك أقبح لانك تتعاطي كبر النفس وعلو الهمة
وطلب الملك والبخل ينافي سائر ذلك . فقال ان البخل سبباً . وذلك أني أذكر
وقد وردت في صباي من الكوفة الى بغداد فأتخذت خمسة دراهم في جانب
منديلي وخرجت أمشي في أسواق بغداد . فمررت بصاحب دكان يبيع الفاكهة
فرأيت عنده خمسة من البطيخ باكورة فاستحسنتها ونويت أن أشتريها بالدراهم
التي معي فتقدمت اليه وقلت بكم تبيع هذه الخمسة بطاطيخ ؟ فقال بغير اكران
اذهب فليس هذا من أكلك فتماسكت معه وقلت أيها الرجل دع ما يغيظ واقصد
التمن . فقال ثمنها عشرة دراهم . فلشدة ما جبهني به ما استطعت ان أخاطبه في
المساومة . فوقفت حائراً ودفعت له خمسة دراهم فلم يقبل . واذا بشيخ من التجار
قد خرج من الحان ذاهباً الى داره . فوثب اليه صاحب البطيخ من دكانه ودعا
له وقال يا مولاي ها بطيخ باكورة باجازتك أحمله الى منزلك . فقال الشيخ ويحك
بكم هذا . فقال بخمسة دراهم . فقال بل بدرهمين . فباعه الخمسة بدرهمين وحملها الى
داره ودعا له وعاد الي دكانه مسروراً بما فعل . فقلت يا هذا ما رأيت أعجب من
جهلك استمت على في هذا البطيخ وفعلت فعلتك التي فعلت وكنت قد أعطيتك
في ثمنه خمسة دراهم فبعته بدرهمين محمولا . فقال اسكت ! هذا يملك مائة الف
دينار . فقلت ان الناس لا يكرمون أحداً اكرامهم من يعتقدون أنه يملك مائة
الف دينار . وأنا لا أزال على ما تراه حتى أسمع الناس يقولون ان أبا الطيب قد
ملك مائة الف دينار «

والغريب من شأن بخله انه مبنى على أساس لايجسد بمثله أبي الطيب ان يركن
اليه . فانه يدعى أنه عاهد نفسه على البخل منذ صغره لان بائع بطيخ حقره استخفافاً
به لفقره وفضل عليه أحد التجار الاغنياء وتطوع لخدمته لانه يملك مائة الف دينار
فنوى أبو الطيب البخل بقصد الغنى لأن الناس لا يكرمون أحداً اكرامهم من يعتقدون
أنه يملك مائة الف دينار فقضى حياته في الحرص على جمع الحطام وفرط في كرامته الى
حد ان داسه غلمان سيف الدولة وركبوه وصارت عماتته في رقبتة وهو يزاحمهم على
لتقاط الدراهم التي نثرها عليهم الأمير

الا ان حكاية « الغلام ذى الاصداع » التي تقدمت في أول هذا الباب (ص ٨٢)
ربما اشعرت بوجود المتنبي ولكني لم أعتز على قول ما في هذا المعنى

ومن حكايات بخله : - حكى أبو بكر الخوارزمي أن المتنبي كان قاعداً تحت
مرل الشاعر

وان أحق الناس باللوم شاعر يلم على البخل الرجال ويبخل
وانما أعرب عن طريقته وعادته بقوله
بابت بلى الاطلال ان لم أقف بها وقوف شحيح ضاع في الترب نخامه
قال حضرت عنده يوماً وقد احضر مالا بين يديه من صلات سيف الدولة
على حصير قد فرشه فوزنه وأعيد الي الكيس . وتخلت قطعة كأصغر مايكون
بين خلال الحصير فأكب عليها بمجامعه ليستنقذها منه واشتغل عن جلسائه حتى
نوصل الي اظهارها وأنشد قول قيس بن الخطيم
تبدت لنا كالشمس تحت غمامة بدا حاجب منها وضنت بحاجب
ثم استخرجها - فقال له بعض جلسائه أما يكفيك ما في هذه الاكياس حتى
أدميت أصبعك لاجل هذه القطعة فقال انها تحضر المائدة .

ومنها : - قال أبو الفرج البغواء وأذكر ليلة وقد استدي سيف الدولة بدرة
فشقها بسكين الداوة فدأ أبو عبد الله بن خالويه طيلسانه فخثا فيه سيف الدولة صالحا
ومددت ذيل ذراعي فخثا لي جانبا والمتنبي حاضر وسيف الدولة ينتظر منه مثل
ما فعلنا فما فعل فغاظه ذلك فنثرها كلها على الغلمان . فلما رأى المتنبي أنه قد فاتته

هل يجتمع البخل والشجاعة

قال ابن فورج^١ كان المتنبي رجلاً داهية ، مر اللسان ، « شجاعاً » ، حافظاً
للآداب عارفاً بأخلاق الملوك ولم يكن فيه ما يشينه ويسقطه الا « بخله وشربه على
المال » (١)

مما أعجب له ان يعرف المتنبي بالبخل والشجاعة في آن واحد . وقد ألف السيد
توفيق البكري رسالة في خلق أبي الطيب (٢) ونحا نحو المتقدمين فذكر البخل والشجاعة
دون أن يبدى أى ملاحظة على استحالة التوفيق بين هاتين الصفتين أو صعوبته
ومما استدل به المتقدمون على شجاعة المتنبي حادثة مقتله فانه بعد أن هرب قل
له خادمه أتكون صاحب القول المشهور

زاحم الغلمان يلتقط معهم فغمزهم عليه سيف الدولة فداسوه وركبوه وصارت
عمامته في رقبته فاستحى ومضت به ليلة عظيمة وانصرف . فخاطب أبو عبد الله
ابن خالوية سيف الدولة في ذلك فقال يتعاضم تلك العظمة وينزل تلك المنزلة
لولا حماقته . . .

ومنها :- حكى ان أبا الطيب المتنبي دخل مجلس ابن العميد وكان يستعرض
سيوفاً فلما نظر ابا الطيب نهض من مجلسه وأجلسه في دسه ثم قال له اختر سيف
من هذه السيوف فاختر منها واحداً ثقيل الحلي واختر ابن العميد غيره فقال
كل واحد منهما سيفي الذي اخترته أجود ثم اصطلحا على تجربتهما فقال ابن
العميد فيماذا تجربهما؟ فقال أبو الطيب في الدنانير يؤتى بها فينضد بعضها على بعض
ثم تضرب به فان قدها فهو قاطع - فاستدعي ابن العميد بعشرين ديناراً فنضد
ثم ضربها أبو الطيب فقدها وتفرقت في المجلس فقام من مجلسه المفخم يلتقط الدنانير
المتبددة فقال ابن العميد ليلزم الشيخ مجلسه فان أحداً لخدم يلتقطها ويأتي بها
فقال بل صاحب الحاجة أولي

(١) الصبح المنبي ص ٨١ ج ١

(٢) المقتطف للسنة ١٧ ص ٣٦١ وصهاريج اللؤلؤ للبكري ص ٣٣٦

الحبل والليل والبيداء تعرفني والسيف والرمح والقرطاس والقلم
وتهرب أمام خصومك؟ فرجم وقاتل حتى مات .
الا ان الرجوع بعد الحرب فيه مظنة دافع آخر خلاف الشجاعة فقد يكون رجوعه
عن كبرياء أثارها حب الذات مثلا وقد يكون رجوعه طمعا في استنقاذ أمواله التي
كانت معه

ويستدلون أيضا على شجاعة أبي الطيب بأنه صاحب سيف الدولة في عدة
غزوات الى بلاد الروم منها غزوة العشاء التي لم ينج منها الا سيف الدولة بنفسه وستة
أنفار أحدهم المنبي وأخذت الروم عليهم الطارق فجرد سيف الدولة عليهم سيفه وحمل
على العسكر وفرق الصفوف وبدد الالوف (١)

ويلاحظ أيضا على هذه الحكاية انها لا تقطع بشجاعة أبي الطيب وإنما تشهد
ببسالة سيف الدولة وإقدامه . فالجندي الجبان قد يسير بلا ارادة ولا اختيار تحت
تصرف القائد الشجاع

ولو سلمنا بصحة الروايتين المتقدمتين فان هناك روايات وقرائن أخرى تدل على
عكس ذلك .

حكى الرقي عن سيف الدولة - قال كان المنبي يسوق فرسه فاعتقات بهامته طاقة
من الشجر المعروف بام غيلان فكان كلما جرى الفرس انتشرت العمامة وتخيل المنبي
ان الروم قد ظفرت به فكان يصيح « الامان يا عليج ! » قال سيف الدولة فهتفت به
وقلت « أيما عليج ؟ » هذه شجرة علفت بهامتك - فودّ لو أن الارض غيبته » (٢)
عندنا حادثة أخرى وهي حادثة ابن خالويه الذي ضرب المنبي بمفتاح حديد
وأسال دمه على وجهه وثيابه - فأين كانت شجاعته يومئذ ؟

يقول المنبي في كافور بعد أن أعيته الحبل في استمالته اليه :

(١) و(٢) الصبح المنبي ص ٥٥ ج ١ - يلاحظ ان لفظه أنفار هنا غير صحيحة لأن
النفر تعيد الجماعة قال تعالى « قل أوحى الي أنه استمع نقر من الجن فقالوا... »

« ألا فتى يورد الهندي هامة » - فلماذا لا يكون هو ذلك الفتى ؟
وأنى أظن ان الشجاعة والبخل لا يجتمعان في قلب واحد فان البخل ينافي كافة
المروءات على الاطلاق - انظر الي أي فضيلة نجدها تستدعي قسطاً من الجود بشيء
محبوب : هذا يجود بماله ومكاته وذلك يجود بوقته وراحته وذلك يجود بعلمه وصناعته
الي غير ذلك مما يدخل تحت ما يسمى « تضحية » وآخر ما يجود به الانسان انما هي
حياته كما قال مسلم بن الوليد « والجود بالنفس اقصى غاية الجود » (١)
وأظن أن البداهة تقضى بأن الذي لا يستطيع الأدنى لا يستطيع الاقصى -
من باب أولى

وأنى أرى ان أبا الطيب قد كتب علي نفسه كراهة الكرم والشجاعة بقوله :
« الجود يفقر والاقدام قتال »

الغرور

قل ان يصادف الشباب بلا غرور وقل ان يصادف الغرور في غير الشباب وما
ذلك الا من ان الناشئ لم يكتسب من التجارب ما يقوى فكره ويسدد نظره فتراه
يستخف بصعاب الامور ويجد لمعضلات المشاكل حلولاً عديدة ويظن انه وفق الي
ما لم يوفق اليه غيره من فضل أو علم أو هداية أو غير ذلك - وهو صادق في هذا
الزعم من حيث انه لا يفترى شيئاً من عند نفسه فاذا رأى قلب الانظمة الاجتماعية
رأساً على عقب أمراً هيناً يستطيعه اذا عاجله فما ذلك الا من ان مداركه وعواطفه
وخيالاته تصور له المسألة بصورة كاذبة فيفتخر بالظواهر الخادعة ويسير على غير هدى.

(١) وهذا رأي الغزالي في كتاب الاحياء عند ما قسم درجات الجود -
وعلماء الاخلاق في الاسلام الذين أخذوا بتعاليم اليونان الاقدمين يجعلون
الشجاعة وسطاً طرفاه الجبن والتهور - وهذا ما ينطبق على حال ابي الطيب
فالحكايات المروبة عنه اذا دققنا النظر فيها لا تثبت اعتدال ابي الطيب في
القوة الغضبية - كما يسميها المتقدمون - ولكنه يميل عنها اما الي ناحية فيقع
في الجبن واما الي الناحية الاخرى فيقع في التهور

فهو إذاً لا يكذب على الناس ولا يحاول ان يخدع نفسه ولكنه يعتقد عقيدة فاسدة ويتمسك بها تمسكاً أعمى ولا يمنعه من الاقلاع عنها الا عجزه عن مقاومة الظروف التي قنته . ولكن اذا نضجت مداركه واتقشمت عن نفسه تلك الصور الكاذبة التي رسمتها أحلام الشباب فانه بلا شك يرجع عن غيه الذي كان يراه من قبل هدى . هكذا كان أبو الطيب على ما أظن . فاني أراه صادقاً في غروره تصدر دعاواه عن قلبه ويعتقد انها حقائق لا ريب فيها وغاية ما في الامر انه لم يكن صادق النظر ولا سيما في أيام شبابه .

كان يزعم انه يستطيع ان يخضع لسلطانه ملوك العرب والعجم وانه فاعل ذلك لا محالة . ولعله لم يكن بري من بين الخلائق فراً يستهان بهم وينال من كرامتهم الا الملوك - وهذه غاية في الغرور لم يصل اليها كثير من الناس .

عذله ابو سعيد الجيمري على تركه لقاء الملوك فقال أحياناً تقدم الاستشهاد بها في مكان آخر ظن فيها ان حد حسامه ورؤوس رماحه وصدور خيله سترفع الحجاب بينه وبين الملوك ولكن ماذا جرى ؟ رأينا ذلك من قبل - واليك أمثلة من أقواله :

وجنبي قرب السلاطين (مقتهما) وما يقتضيني من (جماجهما) الذبير
وانى رأيت الضر أحسن منظراً وأهون من رأى صغير به كبر
ميعاد كل رقيق الشفرتين غداً (ومن عصي من ملوك العرب والعجم)

فلا تحسبن المجد زقا وقينة فما المجد الا السيف والفتكة البكر
(وتضرب أعناق الملوك) وان ترى لك الهبوات السود والعسكر المجر

صحبت ملوك الارض معتبطا بهم وفارقهم ملآن من حنق صدرا
علي انه خص نوعاً من الملوك باللوم ونال من أعراضهم بقدر ما اشتحي أولئك
هم ملوك الاعاجم قال فيهم

لا أدب عندهم ولا حسب ولا عهد لهم ولا ذم

لما زالت عن شاعرنا دفعة الغرور وعلم أن لا طاقة له بمنارة الملوك » وتضرب

أعناقهم « وانه في حاجة الى الوقوف بأبوابهم والتماس خيراتهم تزلف اليهم بأقوال
الرياء وأعطاهم ما يشتهون من المدائح - أنظر الى كلمة النفاق التي تدور على السنة كل
من يتقرب الى العظماء قد قالها أبو الطيب في بدر ابن عمار :
يا ذا الفحالي ومعدن الادب سيدنا وابن سيد العرب

وقال

أن الامير ادام الله دولته لفاخر كسيت فخرأ به مضر
ان « سيدنا » و « ادام الله دولته » وغيرها من الدعوات وهبارات التزافلا
تتفق مع ما تقدم من التهديد والوعيد - كما أن التشهير بالملك الاعاجم لا يتفق مع مدائح
التي لا تخص فيهم

يظهر أن غرور شاعرنا بقوته وسلطانه كان ينصرف شيئاً فشيئاً كلما زاد في التقرب
من العظماء. ولكن قام في نفسه غرور آخر يرضى الامراء الا هو غروره بشعره فبدلاً من
ستهاتته بالملك أخذ يستهين بالشعراء ويمجد نفسه ويقرظ شعره وله في ذلك اقوال
كثيرة جدا أخص منها بالذكر بيتا واحدا وهو

ما نال أهل الجاهلية كلهم شعري ولا سمعت بسحري بابل
علي أن لهذا الغرور في الشعر أصلاً آخر وهو باب الفخر المعروف عند شعراء العرب
وقد زاد المتأخرون في هذا الباب حتى أصبح شعرهم في الفخر أشبه بشيء بهذيان المحموم
وما أصدق قول أبي تمام الذي قاله في أحد ممدوحيه لو طبق على كل شاعر ينظم في الفخر
ما زال يهذي بالمكارم والندى حتى ظننا انه محموم
حقاً أن قسماً عظيماً من شعر أبي الطيب مملوء بانواع من الادعاء لو تأملها الناظر
لاخرجها من كلام العقلاء انظر الى قوله

أي محل أرتقي؟ أي عظيم اتقي؟
وكل ما خلق الله وما لم يخلق
محتقر في همي كشمرة في مفرقي

ولو برز الزمان الى شخصاً
لعمرك
(أي حسبي ذا الدهر أحسنه دهرًا؟)

اني وان لمت حاسديّ فما
وكيف لا يحسد امرؤ علم
(له على كل هامة قدم)

ليس التعلل بالآمال من اربي
ولا أظن بنات الدهر تركني
حتى تسدّ عليها طرقها همي

أبن فضلي اذا قنعت من الدهر
هر بعيش معجّل التنكيد

كأني دحوت الأرض من خبرتي بها
كأني بني الاسكندر السدم من عزمي

انكر في مفاقر المنايا
زعيم للقنا الخطي عزمي
(بسفك دم الحواضر والبوادي)

سأطلب حتى بالقنا ومشايخ
ثقال اذا لا قوا خفاف اذا دعوا
وطعن كأن الطعن لا طعن عنده

لتعلم معر ومن بالعراق
واني وفيت واني ابيت
ومن يك قلب كقلبي له

سدكت بصرف الدهر طفلا ويا فعا
اريد من الايام ما لأبريده
واسألها ما استحق قضاءه

ما تريد النوى من الحية الذوّ
فهو امضى في الموت من ملك المو

ق حر الفلا وبرد الظلال
ت واسرى في ظلمة من خيال

يرى النجوم بعيني من يحاها كأنها سلب في عين مسلوب

هذا قليل من كثير مما جاء في ديوانه. ولولا أننا اعتدنا مثل هذا اللغو من الشعراء لكان كلام أبي الطيب أعجوبة في نظرنا. أجل من ذا الذي لا يدهش من قى لم يخرج عن دائرة الصعاليك مدة طويلة من حياته ثم لجأ إلى أبواب الامراء يطلب نوالهم - بغض من قدر الملوك ويتوعدم ولا يحفل بعظيم ويحتقر « ما خاق الله وما لم يخلق » او يرى أن « له على كل هامة قدم » ؛ يطلب « سفك دم الحواضر والبوادي » ؛ ويزعم انه عليهم باسرار الوجود خبير بما في السموات والأرض يحاول أن ينال النجوم و يطلب حقه تارة بالضرب والظعن وتارة يسأل الأيام هذا الحق ويريد منها ما لا يريد سواه ولا ينبغي أن تنسى قبل كل شيء أن الرجل صادق في لهجته (ومجيد في صنعته بالطبع) ولولا ذلك لما عدت اقواله هذه حسنة يستشهد بها ولو كان قوله غير صادر عن قلبه لضاعت بهجة الفخر ورواؤه واظهرت عليه آثار الضعف والسخف والسماجة أنظر الى قوله « سأطلب حتى بالقنا ... » أو قوله « وأسألها ما أستحق قضاءه » تحسبه ما كازع عن عرشه وتمس بشرف المطالب وكرامة المدعى

وبالجملة فان الغرور قد أخذ من نفس شاعرنا مأخذه بحيث انه اذا تنازل عن دعوى من دعاويه وجد أخرى يتمسك بها وخاتمة غروره كانت دعوى العظمة الفنية والتفوق في الشعر على من سواه وعد الامراء أقرانه في الميكانة واتصاله بهم منة عليهم . قال :

وما الدهر الا من رواة قصائدي اذا قلت شعراً أصبح الدهر منشداً
فسار به من لا يسير مشراً وغنى به من لا يغنى مفرداً

ان هذا الشعر في الشعر ملك سار فهو الشمس والدنيا فلك
عدل الرحمن فيه « بيننا » فقضى باللفظ « لى » والحمد « لك »

شاعر الحمد « خدنه » شاعر اللفظ « كلانا » رب المعاني الدقاق
تفضت الايام بالجمع « بيننا » فلما حمدنا لم تدمنا على الحمد

هذا مع أن أبا الطيب لم يكن ليرضى بهذه المهنة من قبل ويلوم نفسه على اشتغاله
بالشعر عن طلب المعالي - قال

الى كم ذا التغلف والتواني وم هذا التمادى في التمادى
وشغل النفس عن طلب المعالى يبيع الشعر في سوق الكساد
وما ماضي الشباب بمسرد ولا يوم يمر بمسعاد
ومن فروره انه كثيراً ما يشبه نفسه بالانبياء كقوله
أنا في أمة تداركها الله غريب « كصالح » في قوم
ما مقامي بأرض نخلة الا كفنام « المسيح » بين اليهود
وفي هجاء أحد خصومه
يا لك الويل ! ليس بعجز « موسى » رجل حشو جلده « فرعون »

عدم المداواة

يظهر من مجموع أحوال شاعرنا انه لم يكن يعرف المداواة فاكثرت له من جراء ذلك أعداء وحساداً في كل مكان حل فيه ونراه لذلك أكثر من ذكر الحساد في شعره فاستخف بهم تارة وحمل عليهم حملاته المنكرة مراراً حينما كانت تشتد عليه وطأنهم ويرى ان مركزه قد تهدد بسببهم . فكان له خصم في حاشية بدر بن عمار وهو كاتبه « ابن كروس » وكان له في حاشية سيف الدولة خصوم عديدون منهم أبو فراس الحمداني من بيت الامارة ولا ينبغي أن نغفل حادثة السهم الذي رماه به أحد الغلمان عتب انشاده قصيدة « وآحر قلباه » . - وكذلك كان السبب القريب في انفصاله عن حاشية سيف الدولة ما قام بينه وبين ابن خالويه النحوي من الخصام والشقاق . - وقد اكتسب في مصر عداوة « ابن حنزابه » وزير كافور وانتهى به الامر الى معاداة كافور نفسه . - ولما فر من مصر وقصد بغداد أثار على نفسه سخط كبارها وقامت عليه قيامة الشعراء والادباء الذين أغرام به الوزير المهلبى ومن شايمة وظهرت الاهاجى المرة التي وجهت الى أبي الطيب . - ثم زاد عدد أعدائه بالخصام

خصم جديد هو صاحب ابن عباد وهو الذي أساء كثيراً الى محبة أبي الطيب من
وجهة الصناعة . - وكان موته أيضاً ثمرة من ثمرات العداوة التي شب نارها بهجائه
المقذع في حق ضبة بن يزيد العتيبي .

كل هذه الاهانات لحقت بأبي الطيب لأنه لم يستطع ان يصالح الناس ويكسب
ودهم ولو أنه جاهلهم وغيض طرفه عن شيء من أذام في أول الامر واتبع سياسة
« المداراة » لكف عن نفسه عدوات كثيرة . ولكنه أغرى الناس بنفسه بسوء
تدبيره فهاجت الافكار عليه ولم يسلم من نكايه حساده حتى مات بيد قوم يثأرون
لا أنفسهم من جناية لسانه . (١)

(١) عني أن كثيراً من الناس لو كانوا في ظروف أبي الطيب لما فعلوا الافعله
ولما استطاعوا أن يجتنبوا المشاكل التي وقع فيها لأن مداراة الحساد من أشق
التدابير غضاضة على النفس

وكيف يداري المرء حاسد نعمة اذا كان لا يرضيه الا زوالها
فهي أمر من الصبر وأحر من النار ولا يستطيعها الا من خلقوا لها ورزقوا
قوة في نفوسهم واستطاعوا ان يضربوا بين قلوبهم ووجوههم بحجاب سميك
فلا تم وجوههم على قلوبهم . ولذا كانت المداراة من الشروط الواجب توفرها
في كبار الرجال الموكولة اليهم جلائل الاعمال كي يستقبلوا الامور بالتدبر والالانة
دون ان تبدو عليهم امارات الاتعمال . ولذا يصعب على قليل التجربة ان يتبين
من وجوههم ما يدور في أنفسهم من النيات المختلفة ولا يعلم اذا كانوا غضاباً
عليه أو راضين عنه ولا يدري اذا كانوا من انصاره أو من خصومه .

الا أن كل واحد من الناس مضطر الى معاملة أنواع شتى من بني جنسه
وتدعوه مصالحه المتعددة الى الاحتكاك بهم وتلجئه ضرورات الحياة الى الاشتراك
معهم في الاعمال فكما زادت فيه قوة المداراة كلما كان الى النجاح أقرب ومن
الاخطار في مأمن وريح الاخوان والانصار وأدراً ألد الخصوم والاعداء وكما
ضعفت فيه تلك القوة عرض نفسه الى أذى الاشرار ومصالحه الى البوار
واكتسب في كل ساعة عدواً لدوداً وفقد صاحباً ومعيناً .

ولو كان أبو الطيب شاعراً فقط لما ناقشه الحساب أحد من تقصيرة في المداراة
أما وهو الحكيم الذي يدعو إلى الخلق الكريم ويدعى أنه يمـبر عن مكنون ضميره
في قوله

وان بذل الانساب لي جود عباس جزيت بجود التارك المتبسم
فقد حقت عليه المؤاخذة هذا فضلا عن انه صاحب مطامع كبيرة يتطلع الى
الملك ولو على ولاية واحدة يمنحه اياها كافور الاخشيدى . فكان الاولى به ان يتنازل
عن هذا المطلب لأنه أعرف بنفسه من غيره .

الكبرياء

من الصفات المشهورة عن أبي الطيب الكبرياء المتناهية . وقد تقدمت حكايات
مختلفة (١) تشير إلى هذه الصفة التي أسامت كثيراً إلى شاعرنا . الا ان كبرياء الاذكياء

وما بكثير ألف خل وصاحب وان عدواً واحداً لكثير
وليست المداراة مطلوبة من كافة الناس على أتم مظاهرها وأكمل خصائصها
بل لا بد لكل واحد أن يأخذ منها بقدر ما يستطيع ويجتهد في الحصول على
المزيد منها بكل ما فيه من قوة ولا يزال يروض نفسه عليها حتى يتعلقها وتصبح
ديدته في كل أموره .

وقد أوصى النبي الامين أهل ملته بهذه الخلة الطيبة فقال « رأس العقل
بعد الايمان بالله تعالى مداراة الناس » وقال في موضع آخر « انا لنبش في
وجوه قوم تلعنهم قلوبنا »

والاقوال المأثورة في مداراة الناس كثيرة ولعل أهل الادب سموها
« مداراة السفهاء » لأنهم يرون ان ذوى الخلوم آمن جانباً وأبعد عن الاذى
وأقرب للتقوي . فحسوا المداراة بالسفهاء لأنها في حقهم ألزم وأوجب .

(١) كبره على سيف الدولة والوزير المهلبى وحادثة الحاتمي والصاحب ابن

عباد - والحكاية الآتية ضفت على ابالة :

« حدث ابو عمر بن عبد العزيز بن الحسين قال سألت محمداً بن القاسم المعروف

لا تظهر باردة ممجة مثل كبرياء الاغبياء فان النباهة والذكاء يخفيان كثيراً من المعاييب ويابسانها في غالب الاحيان ثوب الفضائل - من أجل ذلك زعم كثير من الناس ان كبر أبي الطيب شتم وابهاء أو شجاعة واقدام أو فتوة ونبل الى غير ذلك من المحامد مع انه عيب لا مرأه فيه قد سدل عليه حسن السبك ستاراً جميلاً فحسبه الناس حسنة من الحسنات

ان الكبرياء تولد في النفس صفات أخرى هي نتائج ضرورية للكبرياء. فالتكبر معجب بنفسه مفرور بأعماله وصفاته ومعارفه فخور بكل ما ينسب اليه . من أجل ذلك تراه يراقب الناس ويلاحظ حركاتهم ليعلم اذا كانوا يعطونه من التجلة والا كرام ما يزعم انه واجب مفروض عليهم قبله . فان بدا له شيء من تقصيرهم صب عليهم غضبه

بابن الصوفي كيف كان امتداح ابي الطيب لابي القاسم طاهر بن الحسين العلوي فحدثني ان الامير ابا محمد (بن طنج) لم يزل يسأل ابا الطيب في كل ليلة من شهر رمضان اذا اجتمعنا عند الافطار ان يخس ابا القاسم طاهراً بقصيدة من شعره يمدحه بها وذكر انه اشتهى ذلك . ولم يزل ابو الطيب يمتنع ويقول ما قصدت غير الأمير ولا امتدح احداً سواه . فقال له ابو محمد قد كنت عزمت ان أسألك قصيدة أخرى في فاجعلها في ابي القاسم وضمن له عنه مائة دينار فأجابته الى ذلك . قال محمد بن ابي القاسم فضيت انا والمطلي برسالة طاهر لوعدا ابي الطيب فركب معنا ابو الطيب حتى دخلنا عليه وعنده جماعة من أهل بيته وأشرف وكتاب . فلما اقبل ابو الطيب نزل ابو القاسم عن سريره وتلقاه اعيداً من مكانه فسلم عليه ثم اخذه بيده فأجلسه في المرتبة التي كان فيها قاعداً وجلس بين يديه فتحدث معه طويلاً ثم انشده . قال عبد العزيز وحدثني ابو علي بن القاسم الكاتب قال كنت حاضراً بهذا المجلس وهو كما حدثك ابو بكر الصوفي - ثم قال لي اعلم اني ما رأيت ولا سمعت في خبر بشاعر جلس الممدوح بين يديه مستمعاً له غير أبي الطيب فاني رأيت طاهراً تلقاه ثم أجلسه مجلسه وجلس بين يديه فأنشده اعيدوا صباحي فهو عند الكواعب . . . » (الصبح المنبي ص ١٠٩ ج ٢)

وأصلاهم نار حقدته - فهو على الدوام كثير التذمر من الناس غضوب عليهم حاقد على أعمالهم سوى الظن بديانتهم نحوه . وهذا ما يورثه الكآبة والالتقياض ويولد في نفسه الكراهة والبغضاء للناس ويوحى اليه الآراء الفاسدة في حقهم فيعيش في معزل عنهم ويكتفي بنفسه قائماً بها . وسنرى أثر ذلك في الشعر الفلسفي

استقامة

مما يمدح من صفات أبي الطيب انه لم يكن يحب اللهو وانه لم يشرب الخمر الا مرة واحدة - على رأى الاستاذ الاسكندري^(١) - وانه كان « مستقيماً » بحسب التعبير المتعارف بيننا - ولا أستطيع ان أقول انه كان « صالحاً »
حكى علي بن أبي حمزة البصرى^(٢) قل : « بلوت من أبي الطيب ثلاث خلال محودة وذلك انه ما كذب ولا زنا ولا لاط وبلوت منه ثلاث خلال ذميمة وذلك انه ما صام ولا صلى ولا قرأ القرآن »^(٣)

هذه الشهادة في حق شاعرنا خير ما يذكر له - اذا كان الشاهد صادقاً - لأن الشعراء وخصوصاً في العصر العباسي كانوا في كثير من الاحوال ندماء الامراء على الشراب وكانت لهم مجالس للهو لا يبالون فيها بما يفعلون ويرتكبون فيها موبقات يندى لها جبين الادب ولا سيما بعد ان انتشر اقتناء الجوارى « المتأديات » والمغنيات وبالجملة « كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه »

في ديوان أبي الطيب بعض أشعار قالها في الخمر وهي تدل على انه لم يشربها الا مرغماً ارضاء لأميره الذي يناديه . جاء في ديوانه : وسقاه بدر بن عمار ليلة فأخذ الشراب منه ثم أراد الانصراف فلم يقدر على الكلام فقال هذين البيتين وهو لا يدري فأنشده اياها ابن الخراساني وهما قوله

(١) تاريخ آداب اللغة العربية في العصر العباسي ص ٢٧٩ (٢) أو

البصرى راوية المتنبي (٣) الصبح المنبى ص ٧٧ و ٧٨ ج ١

نال الذي نلت منه مني لله ما تصنع الخور
وفي انصرافي الى محلي أأذن أيتها الامير ؟
وعرض عليه الصبيحة في الغد فقال :

وجدت المدامة غلابة تهيج للقلب أشواقه
نسيء من المرء تأديبه ولكن تحسن اخلاقه (١)
وأنفس ما في الفتى عقله وذو اللب يكره انفاقه
وقد مت أمس بها مرة ولا يشتهي الموت من ذاقه

وهنا قد وجه شيئا من اللوم الى الشاربيين ولكنه لم يستطع ان يجاهر مجاهرة
الواعظ الذي لا يخشى في النصيحة لوم اللوام - الا انه في موضع آخر كان اصرح
وعاتب أميره عتابا جميلا : كان بدر قد تاب عن الشراب مرة بعد أخرى ثم رآه ابو
الطيب يشرب فقال ارتجالا :

في كل يوم بيننا دم كرمة لك توبة من توبة من سفنك
والصدق من شيم الكرام قتل لنا أمن الشراب تتوب أم من تركه ؟
فقال بدر بل من تركه . وذكر في الديوان أيضا : وسقاه بدر ولم يكن له رغبة في
الشراب فقال .

لم تر من نادمت الا كما لا لسوى ودك لي ذاك
ولا لحبيها ولكنني «أمسيت أرجوك وأخشاكا»

فهنا يقول بانه لم يشرب الخمر عن حب وانما يشربها طاعة لاميرة وهو بين
الخوف والرجاء - وشرب أيضا في منادمة ابن طنج بالرملة - ويظهر أنه لم يكن يمتد
الشراب بل كان يأخذ منه الخمر سريعا - وجاء في الديوان انه هم بالتهوض من
مجالس الشراب فاقعده الامير فقال
مال على الشراب جدا وانت للمكرات أهدي

(١) هذا موضع نظر !!

فان تفضلت بانصرافي عدته من لدنك رفا
والظاهر انه لم يكن يعيل الى الشراب منذ صباه فقد ورد في ديوانه انه حلف
عليه صديق له بالطلاق أن يشرب فقال
وأخ لنا بعث الطلاق آية لأعلان بهذه الخططوم
فجعت ردى عرسه كفارة عن شربها وشربت غير أنهم
ودخل على علي بن ابراهيم التنوخي فعرض عليه كأسا فيها شراب اسود فقال
على البديهة

اذا ما الكأس ارهشت اليدين صحوت فلم تحمل بيني وبينى
هجرت الخمر كالذهب المصفى فخمري ماء مزن كاللجين
وقال له بعض الكلابيين اشرب هذه الكأس سرورا بك فقال ارتجالا
اذا ما شربت الخمر صرفا مهنا شربنا الذي من مثله شرب الكرم
الا حبذا قوم ندامهم القنا يستقونها ربا وساقبهم العزم
وقال ايضا ارتجالا

لا حبقى أن يملؤوا بالصافيات الأكوبا *
وعليهم ان يبذلوا وعلى ان لا اشربا
حقى تكون البترا ت المسمعات فأطربا

والايات المتقدمة تشهد بان ابا الطيب لم يكن ممن يشحنون قرائمهم بالشراب
ذلك الداء الذي تفشى في الاسلام في العصر العباسي خصوصا بعد ان اتقسم العلماء
الشرعيون في تحريم بعض الانواع وظهرت آراء العراقيين وآراء غيرهم و بعد أن شرب
الخلفاء فاقتدي بهم عامة الشعب « والناس على دين ملوكهم »

أما ترك الصلاة والصيام وقراءة القرآن فليس مما يستغرب علي من يدعى نبوة
ويجىء بكتاب منزل - لان عقيدة ابي الطيب غير معروفة تماما الا أنه مع ذلك
معدود من المسلمين ويدافع عنهم في شعره ويذكر سلالة أهل البيت بالتعظيم والتكريم

وقد ذكرت له في شعره الفلسفي بعض أبيات فيها استخفاف بالدين والعقيدة على العموم : واذكر هنا آياتا تتجلى فيها العقيدة السليمة أو على الأقل تنبئ عن عاطفة دينية وثقة بالله

لست الملووم انا الملووم لاننى - أنزلت آمالى بنير (الخالق) (١)
ويقول عن نفسه

تفرّب لا مستعظما غير نفسه ولا قابلا الا (لخالقه) حكما

الى أى حين انت في زي محرم؟ وحتى متى في شقوة والى كم؟
قرب (واثقا بالله) وثبة ماجد يرى الموت في أهيجاجنى النحل في الفم

يذم (٢) لمهجنى (ربي) وسبني لذا احتاج الوحيد الى الدمام
وقوله يخاطب جواده

أى كبت كل حاسد منافق انت لنا وكلنا (للخالق)
وقال في مدح سلاله من أهل البيت النبوى

قد أجمعت هذه الخلائق لي انك يا ابن (الزبي) أوحدها
هو ابن (رسول الله) وابن وصيه وشبههما شبهت بعد التجارب
فحييت خير ابن خير اب بها لأشرف بيت في أيوي بن غالب

اما شهادة البصرى في مجموعها فيلاحظ عليها شيء من الاندفاع وعدم التروى والواقع ان المسائل الشخصية المحضة التي لا تتم الا في الخفاء كالزنا مثلا لا يستطيع الشاهد أن يقرر حقيقتها ولذلك كانت شهادة كثير من المتقدمين في مثل هذه الاحوال محاطة بشيء من التشكك فيقولون فلان مستور الحال لانهم لا يرون على ظواهره ما يريب ويقولون فلان متهتك لانه لا يبالي بما يفعل امام الناس

(١) تقدم هذا البيت محرفا في ص ٩٩

(٢) أذم له اذا أعطاه الذمة والجوار

وعلى كل حال فشهادة البصروي ليس لها كبر شأن في الحكم على خلق ابي الطيب في مجموعة فاننا نعلم ان كثيرا من الناس ممن يشتهرون بالاستقامة والصلاح ويؤدون كثيرا من الاعمال والتقاليد والرسوم الظاهرية التي ينخدع بها قليلو التحربة يكونون في الحقيقة ذوى اخلاق منحطة يرتكبون ما لا يرتكبه الفسقة المعربدون
واذا صح ان الرجل كان بخيلا مشغولا بطالب الدنيا منكبا على جمع حطامها حارما نفسه من مباحات الشريعة - على وفرتها - فلا عجب أن يحرم على نفسه مخطوراتها اما حرصا على المال من الانفاق او حرصا على الوقت أن يضيع في غير كنز وتحصيل

خاتمة

ليس الخلق نتيجة « الصدقة العمياء » كما يقولون وانما هو ثمرة الوراثة القريبة والبعيدة والوسط والتربية والتعليم في الصغر والحوادث الكبرى التي يصادفها الشخص في حياته الاولى حينما تكون النفس لا تزال في مروتها قابلة للتشكل . ولئن انكر بعض المفكرين في القرون الماضية كل فعل للوراثة لاغراض اجتماعية أو دواع سياسية ترمي كلها الى المطالبة بالمساواة المدنية - وقالوا ان الطبيعة لا تلد امراء وان الناس اجمعين يولدون متساوين على السواء - فقد ثبت من دراسة النفس والاخلاق كما ثبت من التجارب أن الناس كما يولدون مختلفين في الخلق متباينين في الصورة منهم الصحيح والسقيم والجميل والقبيح والابيض والاسود الى غير ذلك من الفوارق والمميزات فكذلك يولدون مختلفين في الخلق والطباع منهم القوى والضعيف والثابت والمضطرب والكريم والخبيث وهلم جرا

اذن من اين جاء ذلك الخلق لشاعرنا ؟

الظاهر ان ابا الطيب قد تلقى هذا الخلق وراثه عن اصوله وقد تقدم القول بان شاعرنا وضع الاصل فالراجح انه تلقى خلقه من منبته واذا كان ابوه سقاء فالوسط الذي نشأ فيه وسط حقير بالطبع تشوبه سفالات الطبقة المنحطة وتحيط به تقائص طائفة

معينة من الناس (١)

فعيوب ابي الطيب انما هي عيوب طبقة وقد تشبع بها الجو الذي نشأ فيه فهي من جهة مفروسة فيه بالوراثة ومن جهة اخرى قد نماها فيه الوسط المحيط به ان هذه العيوب عظيمة الخطر اذا صادفت كبار الرجال والقابضين على أزمة الامور الكبرى والقائمين بالشؤون العامة على الرغم من علمهم الواسع وذكائهم المفرط واستعدادهم للقيام بجلال الاعمال - واياك ان تحسب أن العلم يتغاب على عيوب

(١) لا اقصد بذلك ان النقائص والعيوب مقصورة على الطبقة السفلى من الناس بل ان لكل طائفة ولكل طبقة من الناس معائب وورذائل وسيئات خاصة بهم كما ان لهم فضائل ومحامد وحسنات هي الصق بهم وهم احق بها وأهلها ألا ترى ان فضيلة المثابرة على العمل والصبر على الشدائد اعرق في الطبقة الدنيا منها في الطبقة العليا كما ان رذيلة الكسل والملل أصل في الثانية منها في الطبقة الاولى - ألا ترى ايضاً ان الحرص يغلب في سلالة المعدمين والفقراء وان الجود يكثر في اهل النعمة والثراء . ولكل من هذه الفضائل والنقائص أسباب لا تغيب عن فكر المدقق فحرص الفقير على ماله ناشئ من كونه قاسى كثيراً في الحصول عليه ولكن وارث المال الطائل الذي لم يعان أي مشقة في كسبه لا يجد في نفسه حرجاً من تبديده فقد تناوله باليمين وهو يبذله الى غيره بالشمال

اولاً ترى ايضاً ان الضرورة هي التي تقضى على اولى العسر من الناس بمواصلة السعي لتحصيل ما يقومون به اود حياتهم فيكتسبون فضيلة الجد والنشاط بفضل الحاجة والضرورة اما اولئك الذين توفرت لديهم كل أسباب النعمة والترف وليس ثمت ما يدعوهم الى الكد والعمل فان رذيلة الملل والضجر تنمو فيهم من يوم الى يوم حتى تتأصل فيهم وتمد اعراقها في انفسهم فلا يستطيعون استئصالها بعد انظر الى شهامة اهل البدو وشجاعتهم والى الجبن والاستكائة في اهل الحضرة فما ذلك الا ان هؤلاء قد وجدوا انفسهم بين رجال الشرطة والقائمين بحفظ النظام بينهم يحمونهم ويسهرون على المحافظة على اموالهم وارواحهم وأعراضهم فتركوا شأن الدفاع عن انفسهم متكئين على من نيظ بهم حفظ الامن في المدينة أما اولئك فانهم يرون انفسهم بمعزل من كل ناصر الا انفسهم فاعتمدوا عليها واعدوا لكل

انخلق ويمزها بل انه على العكس من ذلك يعدّها السلاح ويمدها بمكتشفاته ومخترعاته وينير لها الطريق حتى تصل الى أقصى الشر وتعود منه سالمة آمنة
الرجل يفخر بأنه أحرز العلم — وله الحق في هذا الفخر — ولكن ان لم يكن
تحت هذا العلم ما يستند عليه من خلق قويم فالويل كل الويل لمن يصادف هذا
الوحش الضاري — تعثر على مثل هذا الوحش في كل فن وهنة في كل حرفة وصناعة
وتجد من أثره الجرائم الكبرى والنضائل الممزقة والذائل الرافلة في حلال العزة والوقار (١)

طارىء ما يدفعونه به فادسروا السلاح وتعلموا الرماية وطرق الهرب من العدو
الغازى الى غير ذلك من فنون المدافعة والمهاجمة .
يدلنا هذا على ان لكل طائفة من الناس صفات يعرفون بها تدعوهم اليها
الضرورة رغم ارادتهم .

(١) ارانى قد اندفعت على الرغم منى الى بحث خطير الشأن — قام الجدل
وان شئت فقل كثر الخصام في حديث " لاتعلموا ابتداء السفلة العلم . " والناس بين
مصدق ومكذب واختلاف المصدقون به في تأويله — اما تحقيق نسبه وتقدير
رجاله واسانيده وتفسير الفاظه وتأويل معناه وتحديد العلم وتعريف السفلة فما
لا تطلع اليه بالذات وأما درسه من حيث انه قاعدة خلقية فهذا ما استعين الله على
الخلوض فيه .

العلم في الرجال على الخصوص من اسباب الرفعة وليس هو السبب الوحيد
اليها فالمال والجاه والحسب والنسب والخلقة الطبيعية وقوة البدن والسن ولا
سيما عند كثير من الامم القديمة — وقد بقي لها أثر في مجالس الشيوخ اليوم —
كل هذه أسباب للرفعة والتكريم وبواحدة منها يمكن للرجل ان يرقى الى أسمى
المراتب ويتولى اعمالا ذات شأن خطير — فبالعلم مثلا يحق للرجل الوضيع الناشئ
في المنبت السوء النامي في وسط النقائص والدنيا ان يرقى من بؤرته الى اعلى
المناصب وان يتربع في دست الحكم ويوكل اليه الفصل في كبريات المسائل . .
ولكن هل يستطيع ان يقف في حدود النزاهة مثل هذا الرجل الذي شب فرأى
نفسه ماهنا في مطعم أو سائقاً للدواب أو كائناً للطرقات الى غير ذلك من المهن

والمرأة كالرجل لها ما تتطلع به الى الرفعة وهو الجمال وتزعم بهذه النعمة وحدها انها أولى بملك الارض والسماء ولكن هذا الدم اذا كان قد دس فيه سم الخلق السافل جاب الشر وسفك الدماء وأفنى الطارف والتايد من المجد والثراء وما قدمت هذه الحكمة عن المرأة الا لاستدراج الى الحديث - ان صح انه حديث - « اياكم وخضراء الدّمن : المرأة الحسناء من المذنبات السوء »

فلا يغرك علم الرجل ولا يغرك جمال المرأة ولكن تحرّ الخلق واجه له مرعى بصرى وموضع ثقنك - وما أجمل ما أثنى به الله على نبيه الكريم تعالما لأمته وارشادا « وانك لعلى خلق عظيم » مع انه يقول ببالغ حكمته « وما اوتيتهم من العلم الا قليلا »

(وبعده) فهلا كان الاجل بنا ان نلجأ الى حسن الظن فى الحكيم على ابي الطيب من وجهة الاخلاق فنقول انه يدخل فى دائرة من تشفع فيهم أبو تمام حيث قال :

التي لا يشوبها نقص خلقى فى ذاتها فقد يجوز ان يشتغل بها الرجل العفيف ويبقى على عففته وكرامته مع فقره وفاقته واكن الضرورة والواقع يقضيان على المشتغل بها باحتمال الدنيا وارتكاب النقائص هذا يلطمه وهذا يصفع وجهه وذلك يسب اباه وامه . يمد يده بحكم التلقين والتقليد والعادة يستجدى هذا ويتمطر ذاك من اجل خدمة حقيرة يؤديها

قلت ان هذه اعمال ليس فيها وصمة عار فى ذاتها وانما الاحتياج هو الذي يشوبها ويميل باصحابها عن جادة النزاهة والتعفف ويقضى عليهم باحتمال الذل والمهانة والاقدام على ما تأباه الكرامة - هذا ما يقال فى المهن التى لم تدرسها نقائص خلقية فكيف بالمهن الذليلة فى ذاتها ؟ ماذا يكون حال الفتى الصغير الذى يشب فى بيت موبوء من الجرائم والكبائر ؟ ما قولك فى ابن الخمار أو القواد مارأيك فى ابن الراقصة أو البغى والأمثلة كثيرة - انظر الى واحد من هؤلاء الذين تحجرت نفوسهم ومات فيهم روح الشم والاباء وانطفأت شعلة الكرامة وخذصوت الضمير فى بيته بين أهله وذويه وانظر الى المعاملة الجافية والقسوة المتبادلة بينهم الى غير ذلك مما تستطيع ان تصوره بنفسك ثم انظر اليه بعد ذلك وهو الرجل العظيم الذى رفعه العلم

لارقة الحضر اللطيف غنمهم وتباعدهوا عن فطنة الاعراب
فاذا كشفتم وجدت لديهم كرم النفوس وقلة الآداب
وبناء على هذا الرأي تقول انه كريم الطبع ولكنه لم يتهذب ولم يكتسب آداب
الحضر او اماليب المعاملة الراقية وبقى على خشونة البدوية ود من ذا الذي ماماء
قط ؟ . ولم لا يبرر انفعالاته « اتقوا غضب الخليم » ؟

لو قلنا انه بدوى فظ بقي على خشونته وفطرتة الجافية - على الرغم من تحضره
والتحاقه منذ شبابه بمحاشية الامراء حتي مات . لو فرضنا ذلك لقام امامنا دليل من
سيرة غيره الذين قضوا حياتهم في البدو ولم يعرفوا المدنية الراقية التي وصلت اليها
الدولة العباسية في أيام أبي الطيب ومع هذا فانهم قد حافظوا على كل الظواهر التي لم
يحفل بها شاعرنا ببقائهم على مكارمهم الفريزية - هذا من جهة ومن جهة اخرى فان
المكارم الخلقية تصادف في البدو اكثر مما تصادف في الحضر

ولو قلنا ان لكل عالم هفوة وعددنا تلك السقطات التي سردناها من قبيل ما يقع
لكل الناس غلبتنا كثرتها ووقوعها طول حياة الشاعر فلو انها كانت مما ارتكبه أيام

وحده الى اكب الدرجات ومدكه شؤون الخلق يقضى فيها بما يشاء - هل يستطيع
ان يتخلى عن تلك النقائص التي غرست في طبعه وان ينتزع من نفسه تلك
الاخلاق التي تأصلت فيه وأصبحت منه كالماء من الحجر؛ انه لا ينتهي عن عاداته
الأولى ولا يتحول عن صفاته التي شب عليها وترعرع ففي كل عمل من اعماله
نقيصة ثم عليه وفي كل حركة يبدئها رذيلة تشهد عليه وهو لا يستطيع ان
يتخلص منها كما لو حاول الهرب من ظله . فمثل هذا اذا دقت الفحص فيه تجد
الكبرياء لانه يجتهد ان يخفي ماضيه الحقير تحت مظهر العظمة وتجد الشح لانه
يخاف العسر الذي نشأ فيه وتجده يحتمل الذل والمهانة ويحمد امام من هو اعلى
منه املا في استبقاء مركزه الي غير ذلك مما لا يغيب عن المدقق الخبير . أفترى
بعد هذا ان تكل اليه شؤون الناس وان تثق به في امورهم من مال وحياة وشرف ؟
اللهم ان العلم ليس كبل شيء - انه السيف فتخير له الساعد الامين تنتفع به
والا جلبت به الشر والأذى

صباح لقلنا نزل الشبَاب أوفى آخر عمره لقلنا خرف الهرم مع انه لم يبالغ الى
هذه السن

لو قلنا ان غضب الحليم شديد وان ابا الطيب قد اخرج حتى خرج عن طبعه
لوجب ان يكون الرجل قد عاش طول عمره غضبانا . هذا اذا كان الغضب بالقول
وغضب شاعرنا لم يكن الا على لسانه كجود كافر في قول شاعرنا

جود الرجال من الايدي وجودهم من اللسان فلا كانوا ولا الجود
والا لو غضب بيده لكان عرف كيف يغضب على ابن خالويه او كافر او غيرها
من خصومه الكثيرين لا سيما وهو البطل الذي لا يغيب عن لسانه ذكر السيف الذي
« يستحل دم الحجاج في الحرم » ولكنه لم يقل لنا اين كان ذلك السيف في ساعات
غضبه

أجل . لو كنت ممن غلبهم الخيال على أمرهم لتمثلت من الوهم صوتنا حزينا ينبعث
من اعماق البلاد النائية من الجانب الغربي من سواد بغداد هو صوت ابي الطيب
يشكو عقوق المتسبين الى الادب يقول والاسف آخذ منه مأخذه قوله لسيف الدولة
يوم عاتبه عتابه المشهور : « ما كان اخلقنا منكم بتكرمة ا »

نسمع صوت ابي الطيب من ناحية . ونسمع صوت الحق من ناحية اخرى .
فلنقل ما قاله تلاميذ الحكيم اليونان : « ان افلاطون عزيز علينا ولكن الحق اعز علينا
منه » (١)

ان قرائن الاحوال تشهد عليه وليس لنا الا الظاهر والله أعلم بالسرائر

الباب الثالث

مقدمة في شعر أبي الطيب
(ما قيل عنه)

جزئيات الموضوع :

اختلاف أهل الأدب في شعر المتنبي - أنصار الشعر القديم - خصوم أبي الطيب - وقفة بين خصومه وأنصاره -
أقوال بعض الممتدقين - أبو الطيب وأبو تمام والبحتري - نقد شعر المتنبي - المرقاة -
المارقة عند البيهقيين - نواقح الخواطر - بين المتنبي والفريد ده فيني - نثر أبي الطيب
اختلاف أهل الأدب في قيمة شعر أبي الطيب

لا شيء أدل على عظمة الرجل من أن يختلف الناس في الحكم عليه . فإذا
صمدت برجل قد قام لنصرته فريق وتمصّب عليه فريق آخر واحتدم الجدل بينهما
حتى خرج كل فريق عن جادة الاعتدال فاعلم أن هذا الرجل عظيم من الوجوه التي
قام من أجاها النزاع خصوصاً إذا بلغ الخلاف إلى عامة الناس وجمهور الأمة . وهذا
مشاهد في عظام الرجال من ملوك وقواد ومصالحين وعلماء وشعراء وأهل فن وغير
ذلك ممن يكونون في حياتهم منسوبين إلى الجمهور أو متصلين به أو عاملين لأجله أو
مدبرين لشؤونه أو قائدين لأفكاره

واقدم كان أبو الطيب واحداً من هؤلاء الذين انشقت الجماعة في الحكم عليهم
لا من وجهة الاخلاق مثلاً أو الاخلاص في سبيل المصلحة العامة أو غير ذلك من
الشؤون العليا التي تمس حياة الأمة أو كيان المجموع ولكن من حيث شعره وقيمه
من الوجهة الفنية

ولا أظن أن شاعراً من شعراء العربية منذ أول عهدها إلى اليوم قد اختلف فيه
جمهور المتأدبين كما اختلفوا في أبي الطيب المتنبي ولو كان الخلاف في جزئية من
الجزئيات أو في فن من فنون الشعر مثلاً فإن الخطب ولكن فريقاً من أولى الرأي

ينكرون على أبي الطيب انكاراً باتاً انه شاعر وينفون أقواله من ديوان الشعر ومن هذا الفريق ابن خلدون أو بالاحرى مشايخ ابن خلدون في الادب واللغة (١) وفريق يقول بأن المتنبي وزميلييه الطائين هم أشعر شعراء العربية ومن هذا الفريق ابن الأثير الذي قل بأن باب اللام وباب الميم من شعر المتنبي قد تضمنتا وحدهما من الجيد النادر ما لم يتضمنه شعر أحد من الفحول من شعراء العرب (٢)

(١) مقدمة ابن خلدون ص ٣٧٢ (المطبعة الأزهرية سنة ١٣١١) «ولهذا كان شيوخنا رحمهم الله يعيبون شعر المتنبي والمعري لعدم النسيج على الأساليب العربية فكان كلامهما كلاماً منظوماً نازلاً من درجة الشعر»

(٢) نقله الصبح المبني ص ١٢٤ وما بعدها ج ٢ عن ابن الأثير - ومنه :
وكأني بسامع قولي هذا وقد ربا غيظاً ودارت عيناه - وليس ذلك الا محض تقليد وجهل بمعرفة اسرار الالفاظ والمعاني - ثم قال يشبه المتنبي بامرئ القيس او من كان في طبقتة ؛ فاقول ان كان لاحدهم رأسان او لسانان او كان له اربعة ارجل او كان النظر انما هو في تقدم الزمان فلا شك ان اولئك اشعر وان كان النظر انما هو في الالفاظ والمعاني فلو عاش امرؤ القيس ثم مات ثم عاش لما اداه فكره الى تدقيق النظر في هذا المعنى الذي اورده المتنبي في قوله
لو قلت للدف المشوق فديته مما به لأغرته بفدائه
ولا انه يقول في مرثية امراة
قد كانت كل حجاب دون رؤيتها فما قنعت لها يارض بالحجب
ولا رايت عيون الأنس تدركها فهل حسدت عاينها عين الشهب
ولا ان يقول في مرثية امراة ابناً
وما التأنيث لاسم الشمس عيب وما التذكير نحر للهِلال
ولو كان النساء كمثل هذى لفضلت النساء على الرجال

على انى ما تركت ديوان احد من الشعراء حتى طالعتة وحفظت منه شيئاً فلم اجد لاحد منهم في مرثى النساء ما يقرب من هذه الايات التي للمتنبي وكذلك يجرى الحكم في المحدثين فانهم لم يأتوا بمثلها ولا ما يقرب منها - انظر الي قوله

هكذا كان الخلاف بين أهل الادب في قيمة أبي الطيب من الوجهة الفنية ولا شك أن هذا وحده دليل على مكانة الرجل من الفضل وعلو كعبه بين اقرانه وأظن أن هذه القرينة وحدها أقوى من غيرها من القرائن الاخرى التي يستدل بها الناس على مكانة أبي الطيب في الشعر مثل قولهم قال عنه فلان كذا أو شرح ديوانه فلان أو تصدى لنقد شعره فلان أو بلغ عدد شراحه أربعين أو خمسين شارحا

من هذه المقدمة ينبغي أن نستنتج ان شعر الرجل فيه الغث والسمين وكل من أراد أن يبرئه من كل عيب أو ينفي عنه كل حسنة فهو خارج عن حدود الانصاف لهوي في نفسه أو لاختلال في حسه ولكن كثيرا ممن يتصدون للنقد يميلون مع فريق دون فريق ويستشهدون باقوال الزعماء الأصليين الذين يكونون في الاصل اما من خصوم الشاعر أو من أنصاوه ولو أنهم أعموا النظر في حجج كل حزب وقدروا الظروف المختلفة التي أحاطت بالشاعر عند ما نظم و بالناقد عند ما أبدى رأيه لما كان هناك مثل هذا البعد

الثاسع بين الاحكام

ويؤخذ على النقاد أيضا أنهم يرثون عداوات ثم يورثونها للناس بلا سبب ولا مبرر . اذا كان الصاحب بن عباد مثلا فدعادي أبا الطيب من أجل مسألة خاصة بينهما ثم اندفع الى تأليف رسالة في مساوي المتنبي انتقاما منه بالطبع فما الذي يبرر غضب النقادين الذين يميلون مع الصاحب ؟ وما ذنب الجمهور في أن يتلقن العداوة

واستعمار الحديد لونا والقي لونه في ذوائب الاطفال
فان الشعراء كلهم قد كرروا هذا المعنى الا انهم لم يخرجوا عن معنى الخوف
بقولهم « يشيب » واذا بانوا قالوا « انه يشيب الطفل » والمتنبي لم يقل كما
قالوا وانما تلتطف في هذا المعنى فبرزه في صورة عجيبة كما ترى . وكذلك
لا يستطيع الشاعر العربي ان يصف الجيش فيقول

صدمتهم بنخميس انت غرته وسمهريته في وجهه عم
فكان اثبت ما فيهم جسومهم يسقطن حولك والارواح تنهزم
ولو لم يكن للمتنبي سوى هذين البيتين لاستحقق بهما فضيلة التقدم على الشعراء

لابي الطيب؟ ولكن هذا شأن قادة الافكار ومعلمي الامم والجمهور في ذلك أعمى بسير
أبنا وجهه قاداته

فامثالنا اليوم ممن لا يرون في المتنبي الا أنه شاعر مثل الالوف من الشعراء الذين
أخرجتهم لنا العربية لا ينبغي أن يتلقنوا مثل هذه العداوات ولأن يلتقنوها الى غيرهم
خصوصا وليس تمت ما يدعوهم الى الاتصاف لجماعة على جماعة أو التعصب لفريق
دون فريق ولتقل « ربنا أغفر لنا ولاخواننا الذين سبقونا بالايمان ولا ننجم ل في
قلوبنا غلا . . . »

واذ قدمت ان الخلاف عظيم في تقدير شعر ابي الطيب والحكم له أو عاينه فقد
حق لي العذر اذا شط بي البحث أو خرجت عن دائرة الاعتدال المتنبي أو عاينه فان
المؤثرات المحيطة بالرجل تزل فيها الافدام
ويخيل الى ان سبب الخلاف مسألتان : أنصار الشعر القديم وخصوم ابي الطيب
بالذات

أنصار الشعر القديم

وخلاصة هذا الرأي موضحة أتم ايضاح في الفقرة الآتية التي اقتطفها من كتاب
« الوساطة » بين المتنبي وخصومه للقاضي عبد العزيز الجرجاني قل :
« ان خصم هذا الرجل فريقان أحدهما يعم بالنقص كل محدث ولا يري الشعر
الا القديم الجاهلي وما سلك به ذلك المنهج واجري على تلك الطريقة ويزعم ان ساقية
الشعر رؤبة وابن هرمة وابن ميادة والحكم الحضري . فاذا انتهى الى من بعدهم كبشار
وابي نواس وطبقتهم سمي شعرهم ملحا وطرفا واستحسن منه البيت بعد البيت استحسن
النادرة وأجراه مجرى الفكاهة . فاذا نزلت به الى ابي تمام واضرا به نفض يده واقسم
واجتهد ان القوم لم يقرضوا بيتا قط ولم يقعوا من الشعر الا بالبعد » (١)

وجاء في الجزء الثاني من كتاب (العمدة) لابن رشيق في باب السرقة : « واما ابن وكيع فقد قدم في صدر كتابه على أبي الطيب مقدمة لا يصح لاحد معها شعر الا الصدر الاول ان سلم ذلك لهم وسماه كتاب (المنصف) مثل ماسي اللديغ سايبا وما أبعد الانصاف منه » (١)

لا أحسب أنصار هذا الرأي الا من الغلاة المتطرفين الذين لا يريدون ان يعترفوا بان كل ما في هذا الوجود نسبي اعتباري . فما جمال الشعر الجاهلي الا جمال نسبي باعتبار عصره ولا يصالح في مجرعة الا لتلك الايام ولولا ذلك لبقى الي هذا الوقت متداولاً بين الناس . واني أظن أن المعروف المشهور من شعر الجاهلية قد بقي لسبب آخر غير حسنه وملائمته لذوق المصور المتأخيرة ذلك أنه أصل من اصول اللغة ومرجع من أهم مراجعها يستند عليه في كافة علوم الامة والدين على الاخص . فالشعر الجاهلي يدرس اذن كأنه شيء من الآثار القديمة وطلاب تلك العلوم التي أشرت اليها مضطرون لمعرفة مجبورون على تحصيله لانه طريق لا بد من قطعه وهذا لا يمنع ان يكون في الطريق ما يروق الناظر ويستوقف السائر من أنواع الجمال

ان ذلك الشعر قد نظم في أغراض معينة وبين قوم معروفين قد باغت بهم الحضارة الي درجة معلومة فكان الشعر الذي يقوله الجاهليون مناسباً لحالتهم وعلي قدر مداركهم وبالفاظ يعرفونها ومعان في متناولهم . فالذي يريد أن يجعل ذلك الشعر بكل صفاته ومميزاته والفاظه ومعانيه قابلاً للشعر العربي في كل زمان ومكان لا يصب بيت

الا عليه فانما يطلب رابع المستحيلات أو سايبم الجهات كما يقولون ما الذي يراه شيوخ ابن خلدون في مثل « الرأي قبل شجاعة الشجمان » مما يخالف الاساليب العربية ؟ الالفاظ ؟ أم المعاني ؟ أم التراكيب ؟ وكلها هنا عربية بلا نزاع . ثم اذا كان المتنبي قد أخطأ في بعض مواضع وخرج عن اصول اللغة فانه في مواضع

(١) ص ٢١٦ ج ٢ مطبعة السعادة سنة ١٣٢٥ هـ سنة ١٩٠٧ م

لا تعد قد أجاد وأحسن هذا مع اشتهاره بالتضاع في اللغة وحنظ غريبها واجتهاده في
مواقف كثيرة في تقليد الشعر القديم

أما المعاني فلا ينبغي أن تقف عند حد بل يجب أن تتجدد كل يوم - إذا كان
البدوي يرى حصر المكارم في مثل قول الجاهلي « وبات على النار الندي والمحاق »
لأنه يعبر عن معارفه وغاية ما يتصوره . فلهذا ننكر على المنبهي الحضري تعبيره بما يعرف
وبما اعتاد . ما الذي يعيب شعره إذا عدل عن « عراف اليمامة » الي « بقراط »
« وجالينوس » إذا كانا اعرف منه بالطب أو ترك « النار والندي » من أجل رسوم
الكتابة في قوله :

كُتِبَتْ في صحائف المجدد « بِسْمِ » ثم « قيس » وبعد قيس « السلام »
كانت الآداب في تحرير الرسائل أن يفتتح الكتاب باسم الله وينتتم بالسلام
ويذنها موضوع الرسالة . فعلى هذا النحو سار الشاعر في معناه الجديد . ولا أظنه
أحقر من « بحر الآرام » ومن تراشق العذارى باللحم والشحم ولعب الأعراب
بالتراب وغير ذلك من معاني البداوة والجاهلية التي جاءت في شعر امرئ القيس (١)

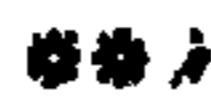
(١) قال امرؤ القيس سيد شعراء الجاهلية — عني رأي جمهور المؤلفين —
في معلقته المشهورة

تري بحر الآرام في عرصاتها وقبعانها كأنه جب فلعل
ثم يذكر يوماً من أيام لهُوه ومجونه
ويوم عقرت للعذارى مطيتي فيأعجبا من كورها المتحمل
فظل العذارى يرتمين بلحمها وشحم كهداب الدمقس المنقل
هذه حادثة معتادة في الصحراء ولا أظنها الا مستنكرة في بغداد مثلا دار
الحضارة الاسلامية أيام الدولة العباسية وان لهُو العذارى وهن يترامين بلحوم
الابل وشحومها طول النهار لما يذكرنا بمداعبة الجزارين فيما بينهم ولا ازيد على
ذلك وصفا ولا حرفا .

وطرفة (١) وغيرها

وخير ما يستشهد به في هذا المقام ما بروى من أن عليا بن الجهم حين قدم من البدو ودخل على الخليفة مدحه بقول استنكره أهل عصره وأوهم الخليفة الممدوح الذي أمر بتحضير ذلك الشاعر . وبعد أن تحضر قال قصيدته المشهورة

عيون المها بين الرصافة والجسر جابهن الهوى من حيث أدري ولا أدري
والحكاية في نفسها - وان لم تصح - فانها تدل على الفارق الطبيعي بين الشعر البدوي والشعر الحضري - فالشعر الجاهلي في جملته كالثوب المنفصل على صاحبه لا يحسن في غالب الاحيان الا عليه ولا يصلح لغيره من الناس الا فيما ندر من الاحوال فلو ان الامة العربية بقيت على حالتها كما كانت في العصر الجاهلي لما انكر احد ان يقي الشعر الجاهلي كما كان ولكن وقد تغيرت كافة الظروف والاحوال التي كوت ذلك العصر فقد وجب ان يتغير الشعر بتغيرها ويتبعها في تحولها من دور الي دور



يجب ان اشير الى موضوع جليل يتعلق بالبحث الذي نحن بصدده - يتحتم على طالب الادب ان يدرس الشعر القديم والنثر القديم ولا يكتفي بما جاء به المتأخرون

(١) قال طرفة بن العبد الذي ارى انه زعيم اصحاب المعلقات وحامل لواء الشعر في الجاهلية ولولا ان الاجل قد سارع اليه في مقتبل العمر فاختطفه في العشرين لترك لنا خير ميراث يخلفه الشعراء - قال يصف السفينة في معلقته

عدولية او من سفين ابن يامن يجور بها الملاح طورا ويهتدي
يشق حباب الماء حيزومها بها كما قسم التراب المقاييل باليد
فالقيال ضرب من اللعب وهو ان يجمع التراب فيدفن فيه شيء ثم يقسم التراب نصفين ويسأل عن الدفين في ايها هو فمن اصاب قر ومن اخطأ قر .
فالتشبيه هنا محكم والوصف صادق والتشثيل بهذا النوع من اللعب المعروف عند كافة اهل الوب من الاجادة بمكان ولكنه لا يحسن عند المتحضرين الذين يريدون التشثيل بما يعرفون وما يحبون

من منظوم ومشور والسبب في ذلك ان اللغة لا يذنبى ان تتغير من آن لآن بل يجب ان
تحافظ على كيانها وتبقى على ممر الزمان . فلو كان اهل الصدر الاول من الاسلام قد
خرجوا باللغة عن طريق الجاهلية وجاءت الدولة الاموية فخرجت عن طريق الصدر
الاول ثم تجاوزت الدولة العباسية ما رسمته الدولة الاموية وهكذا كلما جاء عصر غير
ما قبله لما استطعنا اليوم أن نفهم ما قلّه الجاهليون ولا المتقدمون من المسلمين ولكن اذا
الفرق بين كلامهم وكلامنا كالفرق بين لغة اهل الصين ولسان اللاتين . ولكن اذا
كان لغة أصل معترف به يعد اساسا لها وجب الرجوع اليه حتى اذا توالى العصور
وكل عصر يتشعب بهذا لاصل فلا يبلغ التغيير في اللغة الى جوهرها ولا ينال الا من
قشورها فتبقى جديدة على الدوام يفهمها المتأخر كما فهمها المتقدم
هذا مبدأ مهم قد سار عليه اهل المغرب في تلاقين لغاتهم للمبتدئين - فالفرنسيون
مثلا يصرفون جهدهم اولا في دراسة « الكلاسيك » اي الشعر والنثر المتفق على انه
اللغة الاصلية - وما دام كل الناس قد درسوا الاصل وهو مرجعهم على الدوام فصميم
اللغة لا يتأثر مهما تعددت مذاهب المجددين والمبتدعين

اذا كان هذا رأى انصار القديم من ادباء العربية فانعم به واكرم ! فانهم يكونون
بذلك قد سبقوا ام الغرب الى طريقة حفظ اللغة واستبقائها نظيره قديمة رغم تقادم الزمان

خصوم ابي الطيب بالذات

هناك فريق يعجب بشعر المتأخرين ولكنه لا يقر لابي الطيب بفضل - هذا
الفريق هو الذى عناه الجرجاني بقوله « يسابقك الى مدح ابي تمام والبحتري ويسوع
لك تقريظ ابن المعتز وابن الرومي حتى اذا ذكرت ابا الطيب ببعض فضائله واسميته
في عداد من يقصر عن رتبته امتعض امتعاض الموتور ونفر نفاذ المضيم فغض طرفه
وثنى عطنه وصعد رخذله واخذته العزة بالاثم » (١)

ويغلب على ظني ان هذا الفريق انما يعبر عن رأى خصوم ابى الطيب من امثال
الصاحب ابن عباد والشعراء البغداديين الذين سبقت الاشارة اليهم في ترجمة حياة المتنبي

وقفه بين خصوم ابى الطيب وأنصاره

تقرأ الرسالة الخاتمية ، فتصل الى ساعة ملاقة الكاتب بالشاعر فيقول الاول في
نفسه بعد أن رأى من اعراض الثاني : « وفي المشي اليك على عار » ثم ينفجر ما
في نفسه من الغضب فيقول له بعد تأنيب شديد : « لو قدرت نفسك بقدرها . لما
عدوت ان تكون شاعرا متكسبا » ولا يستمع الآخر وهو يعتذر اليه قائلا . خفض
عليك . اكفف من غربك . اردد من سورتك . استأن فان الازفة من شيم امثالك «
اذا وصلت الى هذه النقطة من القصة الانحدثك نفسك بانك امام خصمين ؟ -
واكن اذا انتهيت الى آخرها وقرأت قولى الخاتمي : « وشاهدت من فضيلته وصفاء
ذهنه وجودة قدحه ما حداني الى عمل الخاتمية (١) وتأكدت بيني وبينه الصحبة وصرت
ا تردد اليه احيانا « الاتحسب انك بين صديقين » ؟

وايك حادثة أخرى في هذا المعنى :

« كان (ابو على الفارسي) (٢) بشيراز وكان ممر المتنبي الى دار عضد الدولة على
دار ابى على الفارسي فكان اذا مر به ابو الطيب يستثقله على قبح زيه وما يأخذ به
نفسه من الكبرياء . وكان لابن جنى هوى في ابى الطيب كثير الاعجاب بشعره لا يبالي
بأحد يذمه أو يحط منه وكان يسوءه اطناب ابى على في ذمه . واتفق أن قل ابو على
يوما : « اذكروا لنا بيتا من الشعر نبحت فيه » فبدأ (ابن جنى) وانشد :

حلت دون المزار فاليوم لو زرت لحال النحول دون العناق

فاستحسنه ابو على واستعاده وقال لمن هذا البيت فانه غريب المعنى ؟ فقال ابن

(١) لعله يقصد الرسالة التي قارن فيها بين معانى ابى الطيب التي تتوافق مع

افكار ارسططاليس دون ان ينسبه الى السرقة . وسنعرض لها في موضعها -

(توفي الخاتمي سنة ٣٨٨) (٢) من كبار النحاة واللغويين ولد سنة ٢٨٨ وتوفي سنة ٣٧٧

جنى للذى يقول :

ازورم وسواد الليل يشفع لى واثنى وياض الصبح يغرى بى
فقال والله وهذا أحسن ، بديع جدا . فلن هذا ؟ قال للذى يقول :

امضى ارادته فسوف له قد واستغرب الأقصى فثم له ها

فكثر اعجاب ابي على واستغرب معناه وقال لمن هذا؟ فقال ابن جنى الذى يقول:

ووضع للندى فى موضع السيف بالعلی مضرّ كوضع السيف فى موضع الندى

فقال وهذا أحسن ، والله لقد أطلت يا أبا الفتح فاحـ برنا من القائل . قال هو

الذى لا يزال الشيخ يستثقله ويستقبح فعله وزيه . وما علينا من القشور اذا استقام

اللب ؟ قال ابو على اظنك تعنى المنبى . قال نعم . قل والله لقد حبيته الى . ونهض

ودخل الى عضد الدولة فأطال فى اثناء على ابي الطيب . ولما اجتاز به استنزه

واستنشده وكتب عنه ابياتا . (قال الربيعى)^(١) كنت يوما هند المنبى بشيراز فقبل له

ابو على الفارسي بالباب ، وكانت تأكدت بينهما المودة قل بادروا اليه فانزلوه . فدخل

ابو على وانا جالس عنده فقال يا ابا الحسن خذ هذا الجزء واعطاني جزءاً من كتاب

(التذكرة) وقل اكتب عن الشيخ البيتين اللذين ذكرتك بهما وهما :

سأطلب حتى اباقتنا ومشايخ كأنهم من طول ما التثما مرد

ثقال اذا لاقوا خفاف اذا دعوا كثير اذا شدوا قليل اذا عدوا^(٢)

فمثل ابي على الفارسي قديمد فى اول أمره من خصوم ابي الطيب ولكنه قد صار

فيما بعد فى عداد الأ نصار . وأمثاله كثير فى كافة المصور يتشيعون للرجل لمجرد مظهره

أو يعادونه لكلمة تنقل عنه دون أن يكافوا انفسهم مؤنة الاستفسار عن الحقائق ويكون

ذلك بين المعاصرين على الاكثر لأن التحاسد فيما بينهم يضلهم فى كثير من احكامهم

(١) قرأ على ابي على الفارسي عشرين سنة وشهد له أبو على فى النحو بقوله

لو سرت من الشرق الى الغرب لم تجد أنحى منك : ولد سنة ٣٣٨ وتوفى سنة ٤٢٠

(٢) العرف الطيب لليازجى ص ٦٦١ والصبح المنبى ص ٢٠٩ - ٢١٣ ج ١

فتعين مركز الخصوم والأخصار مهمة شاقة - وأنا نكتفي بإثبات بعض الشهادات التي من شأنها ان تغض من قدر المتنبي ، تحت عنوان خصومه ، والشهادات التي تدافع عنه في باب أنصاره وان لم يكن هؤلاء ولا هؤلاء خصوماً ولا أنصاراً لشاعرنا بالمعنى المعروف

خصوم أبي الطيب

من معاصريه (أبو فراس الحمداني) (١) شاعر مجيد من بيت الامارة و (ابن سكرة الهاشمي) (٢) خليف ماجن من أبناء الخلفاء العباسيين - وهو صاحب « كافات الشتاء » - و (ابن حجاج البغدادي) (٣) يد يد الجون فيعرك بها أذن الحزم ويفتح جراب السخف فيصنع بها قفا العقل « كما يقول صاحب اليتيمة و (ابن ليكنك البصري) (٤) هجاء طعان و (الصاحب ابن عباد) أحد حماة الأدب المعدودين

(١) يتهم المتنبي بسرقة معاني غيره وتقدم ذلك في الباب الاول
(٢) توفي سنة ٣٨٥ (٣) أو ابن الحجاج ذكره « ابن رشيق » في « العمدة » في باب « من رغب من الشعراء عن ملاحاة غير الاكفاء » اذ سكت المتنبي عن الرد عليه قال ابن رشيق : « . . . وكذلك فعل المتنبي حين بلى بمهمات ابن حجاج البغدادي . سكت عنه اضراحا واحتقارا . ولو أجابه لما كان هو بحيث هو من الاتفة والكبر لانه ليس من أنداده ولا من طبقته » . وله مع ابن سكرة أهاجى مشهورة وشعره مملوء بالفكاهات المجونية والسخف والرفث وكان يقال ببغداد ان زمانا جاد بابن سكرة وابن الحجاج لسخى جداً - وهما من صنائع الوزير المهلبى .
للحظ من كرامة المتنبي (راجع يتيمة الدهر ٨٥ ج ١)

(٤) تقدمت أهاجيه في الباب الاول . روى عنه (الجرجاني) كثرة تحامله على المتنبي حتى قال عن شطرة من شعره انها تسقط دواوين عدة شعراء - ويظهر من تعبير صاحب اليتيمة ان هذا الخصم هو الذي زعم ان أبا الطيب كان ابن سقاء بالكوفة

وصاحب « الكشف عن مساوي شعر المتنبي »

ومن جاء بعد هؤلاء (محمد بن وكيع) (١) شاعر بارع وصاحب « المنصف »
في سمرقات أبي الطيب و (السيد المرتضى) (٢) نقيب الطالبيين والامام المشهور في
علم الكلام والأدب والشعر و (أبو سعيد العميدى) أحد من تولوا ديوان الالشاء

(١) توفي سنة ٣٩٣ . قال علي بن منصور الحلبي المعروف بابن القادح كان
محمد بن وكيع متأدباً ظريفاً يقول الشعر وقد عمل كتاباً في سمرقات المتنبي وحاف عليه
كثيراً . وسأني يوماً ما ان أخرج معه واستعجب مغنياً وأمره أن لا يغني إلا بشعره فغني

لو كان كل عليل يزداد مثلك حسنا

لكان كل صحيح يود لو كان مضي

يا أكل الناس حسنا صل أكل الناس حزنا

غنيت غني ومالي سوجه به عنك أغني

فقلت له تثقل عليك المؤآخذة : قال لا . فقلت أبيتك مسروقة الاول من

قول بعضهم

قلو كان المريض يزداد حسنا كما يزداد أنت على السقام

لما عيّد المريض اذن وعدت شكايته من النعم الجسام

والثاني من قول رؤبة

سلي : ما أنساك ما حبيت لو أشرب السلوان ما سليت

مالي غني عنك ولو غنيت

فقال والله ما سمعت بهذا . فقلت اذا كان الامر على هذا فاعذر المتنبي على

مثله . . . والمعاني يستدعي بعضها بعضاً (الصبيح المنبي ص ٤١٦ - ٤١٨ ج ١)

(٢) توفي سنة ٤٣٦ . يقول " الاستاذ الاسكندراني " في كتابه عن الآداب

في العصر العباسي عند الكلام على أبي العلاء المعري : « ودخل بغداد . . .

وأقبل عليه السيد المرتضى اقبالا عظيماً ثم جنّاه وأبعده من مجلسه . قيل لانه

جرى ذكر المتنبي بحضوره فغضب منه فقال أبو العلاء لو لم يكن له الا قوله

لك يا منازل في القلوب منازل أقفرت أنت وهن منك أو اهل

لكفاه - فأمر بطرده : ثم قال . أفنتم لما يريد هذا الأعمى ؟ قالوا كلا .

بالديار المصرية (١) وصاحب « الابانة عن سرقات المتنبي » والمؤرخ الاجمالي (ابن خلدون) (٢) ومشايخه وكثير ممن ضاعت تصانيفهم * -
ومن أهل هذا العصر شيخ اللغويين (الأستاذ المرصفي) (٣) وتلاميذه ،
وطائفة من الأدياء والشعراء يتذاكرون مثل هذه الآراء فيما بينهم ولكنهم
لا يعانونها للجههور

قال يريد قوله في هذه القصيدة

وإذا أتتك مذمتي من ناصب فهي الشهادة لي بأني كامل

فتعجب الناس من كليهما

(١) يقول في كتابه « ولقد تأملت أشمارة كلها فوجدت الابيات التي يفتخر
بها اصحابه وتعتبر فيها آدابه من أشعار المتقدمين مذبوخة. ومعانيها من معانيهم
مسلوخة . . . وأنا أورد ما عندي من أبيات أخذت الفياض ومعانيها وادعى الاعجاز
لنفسه فيها . ليشهد بلثوم طبعه في انكار فضيلة السابقين . ويوسم بما نهبه من اشعارهم
بسمه السارقين » (توفي سنة ٤٤٣) .

(٢) ينكرون شعره جملة لانه خارج عن الاساليب العربية نازل عن طبقة
الشعر - ولكن ابن خلدون (المتوفي سنة ٨٠٨) لم يسم هؤلاء الشيوخ

(٣) يقول الاستاذ طه حسين أحد تلاميذه (في مقدمة ذكرى أبي العلاء) :
« مسلم بن الوليد وحبیب بن أوس وأبو الطيب المتنبي وأبو العلاء المعري
قوم تكلفوا البديع وأخضعوا المعنى للفظ وتعمقوا في درس مذاهب الفلاسفة
ولم يخل كلامهم من يونانية تباعد بينهم وبين مذاهب العرب البادين فدرسهم خطل
والعناية بهم حمق والاعراض عنهم الى الشعراء المطبوعين اصابة وتوفيق

« كنا نسمع ذلك من استاذنا الجليل في كل يوم سماط موصولا غير مقطوع
فلم نكتف بالطاعة والاذعان بل غلونا في مقت هؤلاء الشعراء حتى رأينا بفضهم
علينا حقا والنمى عليهم لأدبنا مكملنا وحتى كنا نسمع البيت من الشعر لا يعجبنا
فاذا اردنا المبالغة في ذمه وتقبیحة قلنا : ما أشبهه بشعر المتنبي وما أظهر
أسلوب أبي العلاء فيه - وأنا لنجهل المتنبي وأبا العلاء الجهل كله - »

أنصار أبي الطيب

قال (أبو العباس أحمد بن محمد النامي) (١) - أحد شعراء سيف الدولة - كان قد بقي من الشعر زاوية دخلها المتنبي . وكنت أشتي أن أكون قد سبقته إلى معينين قلها ما سبق إليهما أحدهما قوله :

رمانى الدهر بالارزاء حتى فؤادى في غشاء من نبال
فصرت إذا أصابنى سهام تكدرت النصال على النصال

والآخر قوله :

في جهنل ستر العيون غباره فكأنما يبصرن بالأذان

وهذا القول على قلته كثير لا نه صادر عن شاعر معاصر يتنافس مع أبي الطيب ويواجهه علي مكاتته وكانت له معه وقائع ومعارضات في الأناشيد .
ومن معاصريه (أبو الفتح عثمان بن جني) (٢) شارح ديوانه و (القاضي

(١) ابن خلكان ص ٥١ ج ١ (توفي سنة ٣٧٠ و قيل ٣٧١ و قيل ٣٩٩)
(٢) (ولد سنة ٣٣٠ ومات سنة ٣٧٤) وهو صاحب « كتاب الخصائص »
— وكان المتنبي اذا ائلق معنى من معاني شعره على أحد سامعيه يقول اسألوا الشارح : يعني أبا الفتح . وقد عرض (الواحدى) بشرح ابن جني - ويسمى « الصبر » - فقال « وأما ابن جني فانه من الكبار فى صنعة الاعراب والتصريف والمحسن فى كل واحد منهما بالتصنيف غير انه اذا تكلم فى المعانى تبادل حمارة و لحن به عثارة . . . ثم اذا انتهى به الكلام الى بيان المعانى عاد طويلاً كلامه قصيراً وأتى بالمحال هزواً وتقصيراً . . . » - وعرض به مرة اخرى عند ما اشار الى مؤلفى ابنى على بن فورجة البروجردى اذ قال : واما ابن فورجة فانه كتب مجلدين لطيفين على شرح معانى هذا الديوان (ديوان المتنبي) سمي احدهما « التجنى على ابن جني » والآخر « الفتح على ابى الفتح » (من مقدمة شرح الواحدى)
ويعجبني قول (ياقوت) فى (معجم الادباء) عن الواحدى بعد ان ذكر مؤلفاته ومكاته من العلم « وكان حقيقاً بكل احترام واعظام لولا ما كان فيه من غمزه وازرائه على الأئمة المتقدمين وبسط اللسان فيهم بغير ما يليق بمناصبهم

الجرجاني) صاحب «الوساطة» بين المتني وخصومه (١) وقد حكم في قضية

عنا الله عنا وعنه «

ولعل تعريض الواحدي بآبن جني كان من قبيل غمزد الذي اشار اليه ياقوت

(١) توفي سنة ٣٦٦ وقيل سنة ٣٩٢ - كاتب شاعر وفقه عالم افضى محله

الي قضاء القضاة فلم يعزله عنه الا الموت - ومن حكمه

يقولون لي فيك انقباض وانما رأوا رجلا عن موقف النذل احبوا

وقالوا توصل بالخضوع الي الغني وما علموا ان الخضوع هو الفقر

الف كتاب «الوساطة» حينما الف صاحب ابن عباد كتاب «الساوي»

وفد تقدمت بعض فقرات من كتابه الجليل الشأن واليك خلاصته :

«خبرني عن تعظمه من اوائل الشعراء ومن تفتتج به طبقات المحدثين هل

خلص لك شعر احدهم من شائبة وشفأ من كدير ومعاينة فان ادعيت ذلك

وجدت العيان خجيجك والمشاهدة خصمك واستعرضنا الدواوين فأريناك فيها

مايجول بينك وبين دعواك . . . فان قلت كثرزله وقل احسانه واتسعت معايبه

وضاقت محاسنه قلنا هذا ديوانه حاضراً وشعره موجوداً ثمكناً هلم نستبرئه

وتتصفح به وتقلبه وتمتحنه ثم لك بكل شيئة عشر حسنات وبكل نقيصة عشر

فضائل فاذا اكملنا لك ذلك واستوفيته وقادك الاضطرار الى القبول أو البهت

ووقفت بين التسليم والعناد عدنا بك الى بقية شعره فاججناك به والي ما فضل

بعد المقاصة لما كمنك اليه . . . وانت لا تجد لابي الطيب قصيدة تخلو من أبيات

يختار ومعان تستفاد والفاظ تروق وتعذب وابداع يدل على الفطنة والذكاء وتصرف

لا يصدر الا عن غزارة واقتدار ولو تأملت شعر أبي نواس حق التأمل ثم وازنت

بين انحطاطه وارتفاعه وعددت منفيه ومختاره لعظمت من قدر صاحبنا ما صغرت

ولاً كبرت من شأنه ما استحققت . . . وانما خصصت أبا نواس وأبا تمام

لأجمع لك بين سيدي المطبوعين وامامي أهل الصنعة وأريك أن فضلهم لم يحمها

من زلل واحسانهما لم يصف من كدر فاذا انصفت فلك فيهما عبرة ومقنع وان

لجبت فما تفني الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون - . . . ولكن الذي

انابك به والزمك اياه ان لا تستعجل بالسيئة قبل الحسنه ولا تقدم السخط

الأدب دون ان يرفعها اليه أحد وبلغ به التواضع ان سمي حكمه وساطة يقصد
بها الصلح بين الادباء و (سيف الدولة) فخر بن حمدان في الفضل والادب والشجاعة

على الرحمة وان فعلت فلا تحمل الانصاف جملة وتخرج عن العدل صفراً . . .
وليس من شرائط النصفة ان تمنى على أبي الطيب بيتاً شذ وكلمة ندرت
وتصيدة لم يبعده فيها طبعه ونقطة قصرت عنها عنايته وتنسى محاسنه وقدملائه
الاسماع ولا من العدل ان تؤاخذة للهفوة المنفردة ولا تقدمه للفضائل المجتمعة . . .
واعلم اني رسول مبلغ وسامع مؤد وانى كما انظرك انظر عنك وكما اخصاك
اخصم لك فان رأيتني جاوزت لك موضع حجة فردني اليها ونهني عليها فما أبرى
نفسى من الغفلة ولا ادعي السلامة من الخطأ . . . وكما لا احكرك على خصمك
بالخطأ في كل ما يذكره فكذلك لا أبعدك من الصواب في أكثر ما تصفه -
ولن تجد شاعراً اشمل للاحسان والاصابة والتنقيح والاجادة في شعره اجمع بل قد
تجد ذلك في القصيدة الواحدة والخطبة المفردة . ولا بد لكل صانع من فتر
والخاطر لا تستمر به الاوقات على حال ولا يدوم في الاحوال على نهج . . . وليس
بغيتنا الشهادة لأبي الطيب بالعصمة ولا مرادنا ان نبرئه من مقارفة زلة واد
غابتنا فيما قصدناه ان نلحقه بأهل طبقتة ولا تقصر به عن رتبته وان نجعله رجا
من فحول الشعراء ونمنعك من احباط حسنة بسببته ولا نسوغ لك التجامل
تقدمه في الاكثر بتقصيره في الاقل والنقص من عام نبريزه بمخاص تقصيره . . .
ولقد حدثني بعض اهل الادب انه حضر عند ابي الحسن بن لكانك البصرى
وكان على فضله في العلم وتقديمه في الادب شديد التجامل على أبي الطيب -
وهو يذكر شيئاً من شعره حتى انتهى الي قوله : « بقائى شاء ليس هم ارتحالا
جعل يعجب من هذا المصراع من حضره ويقول هل رأيت اشد تعقيدا واط
تكلفاً واسوأ ترتيباً من هذا الكلام ؟ قال فقات له هب الامر على ما ادعي
وانا سلمنا لك ما زعمته اين انت من قوله في اثر هذا البيت :-

كأن العيس كانت فوق جفنى . مناخات - فلما ثرن سالا

قال فاستشاط غيظاً ثم قال هذا المصراع يسقط دواوين عدة شعراء - فا

كان هذا الحكم سائغاً وكان ماقاله مقبولاً فان احاديث الفرزديق يسقطش.

ومثل العرب بين أبناء الالهاجم (١) والوزير الجليل (ابن العميد) (٢) ومن جاء بعدهم (ابن رشيق القيرواني) (٣) صاحب الكلمة المأثورة التي حلينا بها صدر هذا الكتاب : « ثم جاء المتنبي فملاً الدنيا وشغل الناس » و (أبو منصور الثعالبي) صاحب « يتيمة الدهر » (٤) و (أبو العلاء المعري) (٥) اختار من حسنات شعر المتنبي مجموعة سماها « مفجز أحمد » وشرح ديوانه وسماه « اللامع العزيمي »

بني تميم جملة . . . فان قالوا لنا نسامح المتقدمين بالخطأ ولا نحتمل لهم هذا الاغراق الفاحش قلنا اولتم قد سامتم لهم بالاحسان في غير ذلك ولم تسقطوهم من عداد الشعراء لاجله؛ باجروا هذا الرجل مجراهم والحقوه في الحكم بهم .

(١) ولد والمتنبي في سنة واحدة (٣٠٣) فعمل ابا الطيب هو الذي ادعى ذلك حباً في اميره وتقرباً اليه - ومات سنة ٣٥٦ في السنة الثانية بعد وفاة المتنبي - وللأمير ملاحظات وشهادات حسنة في حق شاعره تعثر عليهما في شرح الديوان

(٢) توفي سنة ٣٦٠

(٣) كتاب العمدة ص ٦٤ ج ١ (توفي ابن رشيق سنة ٤٦٣)

(٤) ص ٧٨ و ٧٩ ج ١ : . . . خرج نادرة الفلك وواسطة عقد الدهر في صناعة الشعر . . . فليس اليوم مجالس الدرس اعمر بشعر ابي الطيب من مجالس الانس ولا اقلام كتاب الرسائل اجري به من السن الخطباء في المحافل والاحون المغنيين والقوالين اشغل به من كتب المؤلفين والمصنفين وقد الفت السكتب في تفسيره وحل مشكاه وعويصه وكثرت الدفاتر على ذكر جيده وروديئه وتكلم الافاضل في الوساطة بينه وبين خصومه والافصاح عن ابكار كلامه وعيونه وتفرقوا فرقاً في مدحه والقده فيه والنضح عنه والتعصب له وعليه وذلك ادل دليل على وفور فضله وتقدم قدمه وتفردده عن اهل زمانه بملك رقاب القوافي ورق المعاني فالكامل من عدت سقطاته والسعيد من حسبت هفواته . . .

(الثعالبي ولد سنة ٣٥٠ ومات سنة ٤٢٩ هـ)

(٥) توفي سنة ٤٤٩ هـ . يقول ابن خلكان : « ولما فرغ من تصنيف كتاب

و (الامام الواحدى) (١) المصنف المفسر النحوى كما يقول ياقوت فى معجمه

اللامع العزيزى فى شرح شعر المتنبى وقرىء عليه وأخذ الجماعة فى وصفه فقال
ابو العلاء كأنما نظر المتنبى الى بلحظ الغيب حيث قال :

انا الذى نظر (الاعمى) الى ادبى واسمعت كلاماتى من به صم "

(١) توفى سنة ٤٦٨ ويقول عنه ابن خلكان " وشح ديوان ابى الطيب

المتنبى وليس فى شروحه مع كسرتها مثله " - جاء فى مقدمة الشرح :

" ان الناس منذ عصر قديم قد ولوا جميع الاشعار صفحة الاعراض مقتصرين

منها على شعر أبى الطيب المتنبى نائين عما روى لسواه وان فاته وجاز فى الاحسان

مداه وليس ذلك الا لبخت اتفق له فعلا فبلغ المدي وقد قال هو

هو الجد حتى تفضل العين اختها وحتى يكون اليوم للامس سيدا

على انه كان صاحب معان مخرعة بديعة واطائف ابكار منها ما لم يسبق اليها

دقيقة . . . ولهذا خفيت معانيه على اكثر من روى شعره من اكابر الفضلاء

والائمة العلماء حتى الفحول منهم والنجباء كالثقافى ابى الحسن على ابن عبد

العزير الجرجانى صاحب كتاب الوساطة وأبى الفتح عثمان بن جنى النحوى

وأبى العلاء المعرى وأبى على ابن فورجة البروجردى رحمهم الله تعالى وهؤلاء

كانوا من فحول العلماء وتكلموا فى معانى شعره مما اختوعه وانفرد بالاغراب

فيه وأبدعه وأصابوا فى كثير من ذلك وخفى عليهم بعضه ولم يبين لهم غرضه

المقصود لبعد مرماه وامتداد مداه "

وقد علق (اليازجى) على هذا رأى بقوله : « والمعانى الشعرية ليست من

قبيل الاسرار الصوفية أو القضايا التعليمية التى تقتضى دقة نظر وجهد ذهن

فى فهمها وانما هي معان طبيعية تدركها البسداة بأدنى رمز . والاختراع من

حيث هو لا يقتضى الخفاء والاخفى أكثر شعر المتقدمين ممن سبقوا الى ابتكار

المعانى مع انك لا تكاد ترى فى كلاهم ما غاص فى الابهام وحسرت من دونه

الافهام الى الحد الذى تراه فى بعض شعر المتنبى ولكن ما ذكر للمتنبى من خفاء

و (الخطيب التبريزي) (١) الامام اللغوي صاحب الشروح الممدودة لخلاصة الشعر العربي و (ياقوت الحموي) (٢) صاحب المعاجم المختلفة ، (مجد الدين العكبري الضمير) (٣) صاحب « التبيان في شرح الديوان » - وهو مجموعة شروح لشعر

المعاني وغموضها وارد على الغالب من قبيل الابهام في اللفظ والتعمية في صور التراكيب والبأس المعنى غير ثوبه الذي تظهر به تقاطيعه وانزاله غير منزله الذي يقرع عليه بابه « (العرف الطيب ص ٦٥٤)

(١) ولد سنة ٤٢١ ومات سنة ٥٠٢ - له شرح ديوان المتنبي وروينا منه بعض حوادث في الباب الاول
(٢) ولد سنة ٥٧٤ ومات سنة ٦٢٦ - له كتاب « اخبار المتنبي » (رواه ابن خلكان ص ٣١٣ ج ٢)

(٣) توفي سنة ٦١٦ - يقول عنه ابن خلكان : « ولم يكن في آخر عمره في عصره مثله في فنونه » - اما الشارح نفسه فيقول في مقدمة شرحه (اما بعد) فاني لما انذنت الديوان الذي انتشر ذكره في سائر البلدان ، وقرأته قراءة فهم وضبط على الشيخ الامام ابي الحرم مكي ابن ريان الماكسيني بالموصل سنة تسع وتسعين وخمسمائة ، وقرأته بالديار المصرية على الشيخ ابي محمد عبد المنعم ابن صباح النيمي النحوي ، ورأيت الناس قد اکتروا من شرح الديوان واهتموا بمعانيه فاعربوا فيه بكل فن واغربوا ، فمنهم من قصد المعاني دون الغريب ، ومنهم من قصد الاعراب باللفظ القريب ، ومنهم من اطال فيه واسهب غاية التسهب ، ومنهم من قصد التعصب عليه ، ونسبه الي غير ما كان قد قصد اليه ، وما فيهم من اتى فيه بشيء شاف ، ولا بعوض هو للطالب كاف ، فاستخرت الله تعالى وجمعت كتابي هذا من اقاويل شراحه الأعلام معتمدا على قول امام القول المقدم فيه ، الموضح معانيه ، المقدم في علم البيان ، ابي الفتح عثمان (يقصد ابن جنى) ، وقول امام الادباء وقدوة الشعراء احمد بن سليمان ابي العلاء (المعري) ، وقول الفاضل اللبيب امام كل اديب ابي زكريا يحيى بن علي الخطيب (التبريزي) ، وقول الامام الارشد ، ذي الداوي المسدد ابي الحسن

المتنبي - و (ابن الاثير الجزري) (١) صاحب « المثل السائر » و (ابن خلكان) (٢) مؤرخ الاعيان و (البديعي الدمشقي) (٣) صاحب « الصبح المتنبي » الذي اطلنا الاستشهاد به والرجوع الى مروياته
ومن اهل هذا الزمان شيخ الشعراء المرحوم (البارودي) (٤) والسيد توفيق (البكري) (٥) و (اليازجيان ناصيف و ابراهيم) (٦) وحامل لواء الشعر في هذا العصر صاحب « الشوقيات » (٧)

عنى بن احمد (الواحدى) : وقول جماعة كأبى على بن فورجة و ابى الفضل العروضى و ابى بكر الخوارزمى و ابى الحسن بن وكيع و ابى الافرغلي و سميته بالتبنيان فى شرح الديوان و جعلت غرائب اعرابه اولاً . و غرائب لغاته ثانياً . و معانيه ثالثاً

- (١) من سنة ٥٥٨ الى ٦٣٧ تقدم رأيه فى الشعر القديم والشعر الحديث
- (٢) من سنة ٦٠٨ - ٦٨١ يقول عن المتنبي « اما شعره فهو فى النهاية ولا حاجة الى ذكر شىء منه لشهرته »
- (٣) اسمه يوسف توفي ببلاد الروم سنة ١٠٢٣
- (٤) اثبت له حوالى ثلثمائة و الف بيت فى « مختاراته »
- (٥) جعل المتنبي ضمن « فحول البلاغة » وله بحث عن المتنبي تقدمت الاشارة اليه - وهو كثير الاستشهاد بشعره وكذلك الاديبان اللذان شرحا كتابه « صهاريج اللؤلؤ »
- (٦) شرح الاب فى شرح ديوان المتنبي و اتمه الابن و ختمه ببحث جليل و ابى عليه البر و الوفاء الا ان ينسب الكتاب لأبيه و سماه « العرف الطيب »
- (٧) يقول شوقى بك فى مقدمة ديوانه : « ولا اري بدأ من استثناء المتنبي مع علمى انه المداح الهجاء . لأن معجزه لا يزال يرفع الشعر و يعليه و يغزى الناس به فيجده و يحويه . و حسبك ان المشتغلين بالقريض عموماً و المطبوعين منهم خصوصاً لا يتطلعون الا الى غباره . ولا يجدون الهدى الا على مناره . . . هذا مع اعترافى بأن المتنبي صاحب اللواء ، و السماء التى ما طاولتها

أقوال بعض المستشرقين

قامت في أوروبا وأمريكا نهضة علمية لدرس الشرق وادابته وشعوبه وكل ما يتعلق به من فلسفة وأديان وأنظمة ومناخات وغير ذلك. وابتدأت هذه النهضة في مفتتح القرن التاسع عشر فما أتى القرن العشرون الا والمستشرقون قد ملأوا العالم بجمعياتهم العلمية ونشرياتهم الدورية ومدارسهم ومطابعهم يكشفون عن الشرق ، عن ماضيه وعن حاضره : هذا يبحث عن العاديات المصرية ولغة الفراعنة وذلك عن أهل آشور وما كان من أمرهم وذلك عن بلاد العربية وآثارها زاهيك بمن انصرفوا الى درس آثار الهند والصين وفارس ومن تخصصوا في أدق لمسائل الشرقية . وقد عرفنا من غامض تاريخ الشرق ما يشهد لهؤلاء الباحثين بدقة النظر وطول الأناة في الدرس مع المثابرة واحتمال المصاعب والتعرض للمهلك في كثير من الاحوال

ولا أريد في هذه الرسالة ان أشير الى المستشرقين عامة من مستصيرين ومستأشرين ومستعربين ومستعندين ومستفرسين - ان صحت هذه التسميات - وانما أقصد الاشارة الى المستعربين الذين تكلموا عن أبي الطيب

لقد لقيت اللغة العربية من أعاجم الشرق في القرون الأولى للاسلام من خدموها خدمة صادقة بما ألفوا من الكتب في سائر العلوم والفنون كما لقيت من أعاجم الغرب في العصر الأخير من ينشرون لباب آدابها وثمرات أفكار أبنائها - فبعد الاصفهاني والفسوي والبخاري والنيسابوري والجرجاني والتبريزي والشهرستاني وغيرهم جاء دور الفرنسي والانجليزي والالمانى والاطلياني والهولاندى والاسباني وأقوام

ذكر (الأب لويس شيخو اليسوعى) في كتابه « الآداب العربية في القرن التاسع عشر » بياناً مفيداً عن المستشرقين وما ألفوا ونشروا عن اللغة العربية وآثارها - نجد هذا البيان منتثراً في جزئى الكتاب بحسب تواريخ المترجمين - أما ما جاء عن

في البيان سماء ، ولو سلم من الغرور وسلم الناس من لسانه لاجلته اجلال
الانبياء »

المتنبي على الخصوص فقد قل :

« ومن تلاميذ دي ساسي (١) الممدودين جرنجره دي لاغرانج ... (٢) وله
منتخبات من شعر المتنبي... » (فرانسي) - البارون جوزف دي هامر بورغسنال (٣) ...
تاريخ الآداب العربية في سبع مجلدات ضخمة من عهد الجاهلية الى آخر الدولة
العباسية ضمنه عشرة آلاف ترجمة من كتبة العرب وشعرائهم وكبار علماءهم (والمتنبي
بالطبع من ضمنهم) ونظم بالشعر الالمانى كل ديوان المتنبي « (نساوى) - «ثاودور
يونيول ... » (٤) ومن آثاره انه نشر قصائد المتنبي وشعراء زمانه في مدح سيف الدولة
واضاف اليه ترجمة لاتينية « (هولاندى)

ويقول جرجى زيدان في تاريخ آداب اللغة العربية : « وانتقد المتنبي جماعة من
المستشرقين أيضاً أشهرهم رايسكي (٥) ودي ساسي وبولين (٦) وبروكمان (٧) وهير
ونيكلسن وغيرهم » ثم قل بعد ذلك : « وكتب عنه أكثر المستشرقين مقالات
انتقادية ولا سيما ديتريشي وهامر ويونيول وقد عني هذا بترجمة بعض أشعاره الى
اللاتينية وطبعت سنة ١٨٤٠ » وقبل هذه العبارة قل : وقد عني المسيو غرانجرية بنقل
بعض أشعار المتنبي الى الفرنسية وطبعت في المجلة الاسيوية سنة ١٨٢٤ (وله أيضاً
مقالة في المجلة المذكورة سنة ١٨٢٢ - تقدمت الاشارة اليهما في هذا الكتاب)

وقد طبع المسيو فريدرخ ديتريشي (٨) سنة ١٨٦٨ شرح الواحدى على ديوان
أبي الطيب وقدم له مقدمة باللغة اللاتينية لم أوفق الى من ينقلها الى العربية
وتكلم هووار الفرندي (٩) عن المتنبي في صحيفتين من اقطع الصغير ليس فيهما

(١) Silvestre de Sacy (١٧٥٨-١٨٢٨)

(٢) G. dela Grange (١٧٩٠-١٨٥٩)

(٣) Hammer Purgstall (١٧٧٠-١٨٠١)

(٤) T. Juynboll (١٨٠٢-١٨٦١)

(٥) Reiske (٦) Bohlen (٧) Brockelman (٨) Fr. Dietrich

(٩) الف المسيو هووار [H. J. Hoar] الاستاذ بمدرسة اللغات الشرقية

رأى خاص المؤلف وغاية ما قال انه حرتف معني بيت المتنبى
في جعله ستر العيون غباره فكانما يبصرون بالآذان

فبعد ان كان الحديث عن الخيل جعله عن العسكر .

وكتب (نيكلسن) الانجلىزى (١) عن المتنبى ثمان صحائف من القطع الكبير
نلخص فيها حياته واستوقفته حكاية ظريفة فنلها (٢) الى الانجلىزية وكذلك نقل

الحية بباريس كتابا عن تاريخ الآداب العربية طبع سنة ١٩٠٢ بباريس قال في
مقدمته ما معناه . " لا يوجد في اللغة الفرنسية تاريخ لآداب اللغة العربية .
وكل ما يمكن ان يرجع اليه الانسان ليكون لنفسه فكرة عما خلفه كتاب
العربية في ثلاثة عشر قرنا لا يتعدى خلاصة موجزة مترجمة عن الانكليزى
بقلم برينجتون Joseph Berington . " ١٨٢٣ " وابضمة صحائف عن
بلاد العرب تأليف نويل ديفرجيه Noël Duvergiers " ١٨٤٧ " وعن تاريخ
العرب تأليف سيديو Sedillo " ١٨٥٤ " وفي انكلترا كتاب ناقص جدا بقلم
المستر اربوثنوت Arbuthnot . عن " المؤلفين العرب " طبع في لندره سنة
١٨٩٠ وفي روسيا كتاب " الآداب العربية " تأليف جرجاس Guirgas
وفي ايطاليا " تاريخ الآداب العربية في الخلافة عهد " تأليف دي باردى
Ph. de Bardi " ١٨٤٦ " وانما ظهر بالالمانية كتاب المستشرق النمساوى همربورجستال
طبع في فينا في سبعة اجزاء من سنة ١٨٥٠ الى سنة ١٨٥٦ . وكذلك ظهر
بالالمانية كتاب بروكلن عن " الآداب العربية " ايضا في جزئين الاول سنتى
١٩٩٨ - ١٨٩٨ والثاني سنة ١٩٠٢ "

(١) R. A. Nicholson في كتابه التاريخ الأدبى للعرب ص ٣٠٤

(٢) " لما اشد سيف الدولة قصيدته التى اولها

اجاب دمعى وما الداعى سوى ظلل دعا فلبس اذ قبل الركب والابل

وناوله نسختها وخرج . فنظر فيها سيف الدولة فلما انتهى اليه بقوله

يا ايها المحسن المشكور من جهتي والشكر من قبل الاحسان لا قبلى

أقل . أنل . أقطع . احم . عل . سل . أعد زد . هس . بش . تفضل . أدن . سر . صل

قصيدة « وأحر قلباه » وأشار إلى اشتهار ديوان أبي الطيب وكثرة شراحه وكتب النقد . ونقل عن ابن خلكان أن أبا العلاء المعري حاول مرات عدة ان يبدل كلمة غيرها في شعر المتنبي فلم يستطع . - إلا انه يلاحظ ان الاوربيين ، ما عدا فون هر ، لا يشاركون المعري في هذا التعصب كما يظهر من أقوال رايسكي وده سابي وبوهان وبروكامن وغيرهم وهولا يشك . بحسب قواعد الذوق الاجنبي . - ان يؤخر المتنبي في المكانة عن شعراء الجاهلية المشهورين بل وعن أبي نواس وأبي العتاهية . من المحدثين واذا رأى ان عشاق الشعر عندهم ينفرون من حسنات أبي الطيب أكثر مما ينفرون من غلطاته التي بعدها عليه النقادون من أهل العربية وما ذلك الا لأن الشرق وحده هو الذي يستطيع ان يقدر المتنبي . - من أجل هذا رجع نيكلسن الى أحكام الثعالبى في تسمية الدهر فنقل طائفة من المحاسن والمعائب وقل اذا كان الانجليز يدعون أنهم خير من يستطيعون الحكم على « شكسبير » والظليان خير من يقدرون قيمة « دانتى » فلا عجب ان نسلم بشبه الاجماع الصادر من أهله القاضى بأن يكون المتنبي على رأس شعراء الاسلام . - ثم قل يصح ان نسمى المتنبي « فيكتور هوجو » الشرق . - وذكر رأى رايسكي في تشبيهه بالشاعر اليونانى الحكيم « اوربيدس » وعقبه بجعله زعيما من زعماء النزعة الحكيمية التي مبنياها العبر والامثال وكان رأسها الحديث أبو العتاهية

وقع تحت اقل قد اقلناك . وتحت انل يحمل اليه من الدراهم كذا . وتحت اقطع قد اقطعناك الضيعة الفلانية . ضيعة ببلاد حلب . وتحت اجمل يقاد اليه الفرس الفلانى . وتحت عل قد فعلنا . وتحت سل قد فعلنا فاسل . وتحت اعد اعدناك الى حالك من حسن رأينا . وتحت زد يزداد كذا . وتحت تفضل قد فعلنا . وتحت أدن قد ادنينناك . وتحت سر قد سررنا . - قال ابن جنى فبلغنى عن المتنبي انه قال انما اردت سر من السرية فأمر له بجارية - وتحت صل قد فعلنا - قال وحكى لى بعض اخواننا ان العقلى وهو شيخ كان بحضرته ظريف قال له - وحسد المتنبي على ما امر له به - يامولاي قد فعلت به كل شىء سألكه فهلا قلت له لما قال لك هس . بش . هه هه هه يحكى الضحك . فضحك سيف الدولة

ولو ان هذا المذهب كان له من غرس مبادئه في الشعر القديم من أمثال زهير

أبو الطيب وأبو تمام والبحترى

هؤلاء الثلاثة يعدون طبقة قائمة بذاتها هي آخر طبقات الشعر الناضج الذي يقل فيه تامل المتأخرين وتكافهم وتغلب فيه الروح العربية السليمة - إلا ان أنصار الشعر القديم يتفنون هؤلاء من ديوان الشعراء ولا سيما أبا الطيب المتنبي .

قال ابن خالكان في ترجمة المعري (ص ٤٧ ج ١) : « واختصر ديوان أبي تمام وشرحه ومما « ذكرى حبيب » وديوان البحترى ومما « عبث الوليد » وديوان المتنبي ومما « معجز أحمد » وتكلم عن غريب أشعارهم ومعانيها وآخذهم من غيرهم وما أخذ عليهم وتولى الانتصار لهم والنقد في بعض المواضع عليهم والتوجيه في أما كن لخطتهم »

على ان المعجبين بشعر المحدثين قد اختاروا في هؤلاء الثلاثة وأبهم أولى بالزعامة على زميائهم فتجد في كتب التراجم مثلاً : « وعلماء الادب مختلفون في شعره فمنهم من يرجحه علي أبي تمام والبحترى ومنهم من يرجحهما عليه » (١) فاذا عدنا الي كتب الادب رأينا أحكاماً موجزة لا تفيد ترجيحاً ولا تفضيلاً ولا نجد لهذه الاحكام أسباباً ترتك عليها لأن المقارنة لم تعقد بينهم في فنون الشعر المختلفة - الا انه يوجد كتاب واحد وضعه الامدى في الموازنة بين أبي تمام والبحترى - وبما انه لا يتكلم عن أبي الطيب فلا وجه للتعرض له هنا

تري في كتاب (العمدة) في باب « المطبوع والمصنوع » (٢) : « قال بعض من نظر بين أبي تمام وأبي الطيب : « انما حبيب كاتقاضي العدل يضع اللفظة موضعها ويعطي المعنى حقه بعد طول النظر والبحث عن البينة او كالفقيه الورع يتحري في كلامه

وقال له ولك أيضاً ما تحب وأمر له بصله » (يتيمة الدهر ص ٨٣ ج ١)

(١) مقدمة الديوان وابن خالكان ص ١٥١ ج ١

(٢) العمدة ص ٨٧ ج ١

ويتعرج خوفا على دينه وأبو الطيب كالمالك الجبار يأخذ ما حوله قهراً وعنوة أو
كالشجاع الجريء بهجم على ما يريد لا يبالي ما لقي ولا حيث وقع «
وقال صاحب الصبح المنبئ : (١) : قال الشريف الرضي « أما أبو تمام فخطيب
متبر ، وأما البحري فواصف جوزر ، وأما أبو الطيب المتنبي فقائد عسكر
وقال ابن شرف القيرواني في مقاماته التي ذكر فيها الشعراء (٢) : « وأما أبو تمام
الطائي فتكلف إلا أنه يصيب ، ومتعب لكن له من الراحة نصيب ، وشغله المطابقة
والتجنيس ، جزل المعاني ، مرصوص المباني ، مدحه ورثاه ، لا غزله وهجاه ، فهما
طرفا تقيض ، وسماء وحضيبض ، وفي شعره علم جم من النسب ، وجملة وافرة من أيام
العرب ، وطارت له الامثال ، وحفظت له الاقوال ، ودبرانه مقرو وشعره متلوب . وأما
البحري فلفظه ماء نجاج ، ودرر جراج ، ومعناه سراج وهاج ، على أهدي منهاج ،
يسبقه شعره ، الى ما يجيش به صدره ، يسير مراد ، ولين قياد ، ان شربته أرواك ،
وان قدحته أوراك ، طبع لا تكلف يعنيه ، ولا العناد يشذبه ، لا يمل كثيرة ، ولا
يستكره غزيره . وأما المتنبي فقد شغلت به الأسن ، وسهرت في أشعاره الاعين ،
وكثر الناسخ لشعره ، والغائص في بحره ، والمهتش عن جهانه ودره ، وقد طال
فيه الخلف ، وكثر عنه الكشف ، وله شبيعة تغلوا في مدحه ، وعليه خوارج تتعب
في جرحه ، والذي أقول ان له حسنات وسيئات وحسناته أكثر عدداً ، وأقوى مدداً ،
وغرائبه طائفة ، وأمثاله سائرة ، وعلمه فسبح ، ومسيره صحيح ، يروم فيقدر ، ويدري

(١) ص ٢٥٢ و ٢٥٣ ج ١

(٢) كانت له وقائع مع ابن رشيق - وهو غير الشريف أبي السعادات
هبة الله المعروف بابن الشجري البغدادي - صاحب « الأملالي » وهو أكبر
نأليفه وأكثرها افادة املاه في أربعة وثمانين مجلساً وختمه
بمجلس قصيره على ابيات من شعر ابي الطيب المتنبي تكلم عليها وذكر ما قاله
الشرح فيها وزاد من عنده ما سنج له . توفي سنة ٥٤٢ (ابن خلكان ص
٢٧١ ج ٢)

ما يورد ويصدر»

وقال ابن الأثير في أول كتابه « الوشى المرقوم » وكنت حفظت من الأشعار القديمة والمحدثة ما لا احصيه كثرة ثم اقتصرت بعد ذلك على شعر الطائين حبيب ابن أوس يعني أبا تمام وأبا عبادة البحترى وشعر أبي الطيب المتنبي فحفظت هذه الدواوين وكنت أكرر عليها بالدرس حتى تمكنت من صوغ المعاني . - وله مجموع اختار فيه من شعر أبي تمام والبحترى وديك الجن والمتنبي وهو في جلد واحد كبير وحفظه مفيد (ابن خلكان ص ٢٣٣ و ٢٣٥ ج ٢)

وله مقارنة مطولة نوعاً ما عقدها في كتابه المثل السائر (١)

وللهميدى صاحب « الابانة عن سرقات المتنبي » شبهه مقارنة خرج منها أبو

(١) ولقد وقفت من الشعر على كل ديوان ومجموع . وانفدت شطرا من العمر في المحفوظ منه والمسموع . فالفيتته بحرا لا يوقف على ساحله . وكيف ينتهي الى احصاء قول لم تحصى اسماء قائله ؛ فعند ذلك اقتصرت منه على ما تكثر فوائده وتنشعب مقاصده . ولم اكن ممن اخذ بالتقليد والتسليم . في اتباع من قصر نظره على الشعر القديم . اذ المراد من الشعر انما هو ابداع المعنى الشريف في اللقط الجزل اللطيف فتمى وجد ذلك فكل مكان خيمت فيه فهو بابل وقد اكتفيت في هذا بشعر ابي تمام حبيب بن أوس و ابي عبادة الوليد و ابي الطيب المتنبي وهؤلاء الثلاثة هم لات الشعر وعزاه ومنااته . الذين ظهرت على ايديهم حسانه ومستحسناته . وقد حوت اشعارهم عذوبة المحدثين الى فصاحة القدماء وجمعت بين الامثال السائرة وحكمة الحكماء - اما « ابو تمام » فانه رب معان . وصيقل الباب واذهان . وقد شهد له بكل معنى مبتكر . لم يمش فيه على اثر . فهو غير مدافع عن مقام الاغراب الذي برز فيه على الاضراب . ولقد مارست من الشعر كل اول واخير . ولم اقل ما اقول فيه الا عن تنقيب وتنقيب . فمن حفظ شعر الرجل وكشف عن غامضه . وراض فكره برائضه اطاعته اعنة الكلام ؛ وكان قوله في البلاغة ما قالت جزام . فنخذ مني في ذلك قول حكيم . وتعلم ففوق كل ذي علم عليم .

الطيب صفرآ - قال : « ولا أرى ان أجعله وأبا تمام رب المعاني ومسلم بن الوليد
وأشباههما في طبقة واحدة ، ولا الحقه في عذوبة الالفاظ وسهولتها ورشاقة المعرض
ومجانبة التصنع والتكلف بالبحترى ، ولا أقيسه في امتداد النفس وعلم اللغة والاعتدال
على ضروب الكلام وتصوير المعاني العجيبة والتشبيهات الغريبة والحكم الباردة
والآداب الواسعة بابن الرومي ، ولا أتهاك في مدحته لك مع من يتعصب له تقليداً
ويغلو فيجمل بينه وبين هؤلاء الفضلاء أمداً بعيداً »

« واما ابو عبادة البحتري » فانه أحسن في سبك اللفظ على المعنى ، وارا داب
يشعر فغنى . ولقد حاز طرفي الرقة والجزالة على الاطلاق . فبينما يكون في شطف
نجد اذ تشبت بريف العراق . وسئل ابو الطيب المتنبي عنه وعن ابى تمام وعن
نفسه فقال انا و ابو تمام حكيمان والشاعر البحتري . ولعمري انه انصف في حكمه .
واعرب بقوله هذا عن متانة علمه فان ابا عبادة اتى في شعره بالمعنى المقدود من
الصخرة الصماء . في اللفظ المصوغ من سلاسة الماء . فادرك بذلك بعد المرام . مع
قربه الى الافهام . وما اقول الا انه اتى في معانيه باخلاق الغالية . وورق في ديباجة
لفظه الى الدرجة العالية . وأما « ابو الطيب المتنبي » فانه اراد ان يسلك مسلك
ابى تمام فقصرت عنه خطاه . ولم يعطه الشعر من قياده ما اعطاه . لكنه حظي في شعره
بالحكمة . والامثال واختص بالابداع في وصف مواقف القتال . وانه اقول قولاً
لست فيه مثائماً . ولا منه مثلما ، وذلك انه اذا خاض في وصف معركة كان لسانه امضى
من نصالها . واشجع من ابطالها . وقامت اقواله للسامع مقام افعالها . حتى تظن القريريين
قد تقابلا . والسلاحين قد تواملا . فطريقه في ذلك تضل بسالكه . وتقوم بعذر تاركه .
ولا شك انه كان يشهد الحروب مع سيف الدولة بن حمدان فيصف لسانه ما ادي
اليه عيانه . ومع هذا فاني رأيت الناس عادلين فيه عن سنن التوسط . فاما مفرط في
وصفه واما مفرط . وهو وان انفرد بطريق صار ابا عذره . فان سعادة الرجل كانت
اكبر من شعره . وعلى الحقيقة فانه خاتم الشعراء ، ومهما وصف به فهو فوق الوصف
وفوق الاطراء »

نقد شعر أبي الطيب

أبو الطيب يدعو إلى نقد شعره : - من مجاسن الصدف أن يجيء في شعر أبي الطيب بيت يطلب فيه الشاعر من ممدوحه أن ينقد شعره لأنه رأى المدلسين والمقلدين قد كثروا ويخاف أن يضع شعره الصحيح بين أشعارهم المزيفة . قال
أني نثرت عليك دراً فأتقده كثر المقلد فاحذر التديسا
ومن اتبع مبدأ الاصوليين في قولهم « عموم اللفظ لا خصوص السبب » جازله
أن يتذرع بهذا البيت ليعطى لنفسه الحق في نقد شعر أبي الطيب . حتى لكان الرجل
قد أباح لكل مطلع على ديوانه أو بعبارة أصح قد طاب منه أن يبدي رأيه في شعره
ويظهر مواضع الكمال والنقص من أبياته
فبعد الاستئذان من أبي الطيب أو بناء على أمره هذا نشرع بحول الله في عرض
الانتقادات جملة لا تفصيلاً

هل شعره حتى في جملة ؟

قد يجوز أن يكون في شعر أحد الشعراء بعض العيوب ومع هذا فإن الشعر يعيش
وتتناقله الأفواه ويسير في الناس - وكلما يخلو الشعر من عيب لفظي أو معنوي أو لغوي
أو بياني أو عروضي أو غير ذلك - وقد ترى بعض الشعر ساجماً من العيوب بريئاً من
العال ولكن ليس له من حفظ الوجود إلا أنه مدفون في بطون الكتب - فهلا تسائل
نفسك أمام هذا الفرض الغريب كيف يعيش العليل ويموت سليم ؟ فهل من سبب
لذلك ؟ نعم . هناك سبب لا يصعب الاهتداء إليه بقليل من التفكير .
إن العلة لا تقتل الإنسان فقد يعيش العليل رغم أدوائه مادامت فيه حياة وما
دامت الروح متصلة ببدنه سارية في أجزائه - فإذا ما زهقت تلك الروح وفارقت جسم
الإنسان لم نغن عنها سلامة الأعضاء ولا قوة البدن
هذا ما يقال عن الإنسان وهو نفس ما يقال عن الشعر أيضاً فالعنصر الأول
الواجب توفره في الشعر إنما هو الروح ولا حياة للشعر بدونها . فإذا ثبت أن الشعر

حي سار في الناس و تقى فيهم على الرغم من تشوّهاته و عاهاته - حتى ولو كان يمشى مشية العرج - وأما إذا ولد الشعر ميتاً فلا تحاول استبقائه وقل عليه العفاء
تنظر الى بعض الشعر فكأنه خلاء قفر او طلال بل او منزل خرب لا تشعر فيه بدبيب الحركة ولا تحس منه باثر من آثار الحياة بينما ترى شعراً آخر وكأنه الربيع المأهول والبيت المقصود المعمور تعرفه بحركة سكانه وتكاد تسمع منه نغماتهم التي تتردد بين جوانبه

والفرق بين الشعرين ان الاول ميت بلا روح أما الثاني فقد أعاره صاحبه بعضاً من نفسه ووجهه جزءاً من روحه الحساسة .. فإذا مات الشاعر بقيت روحه تتلألأ في شعره يعرفه بها الناس ويذكرونه كلما أشرفت عليهم من خلال أقوله - ومن النوع الثاني كان غالب شعر أبي الطيب كما أظن . ولولا ذلك لما سار بين الناس مسيره الغريب

هل كان أبو الطيب من المقالين او المبكثرين ؟
هذا أول ما يجب ان نتساءل عنه . يبلغ شعر أبي الطيب حوالي الستة آلاف بيت وقـ ذكر عدتها بالضبط أحد شراح ديوانه وهو العالم الكبير « الواحدى » في آخر كتابه قل : « هذا آخر ما اشتمل عليه ديوانه الذى رتبته بنفسه وهو خمسة آلاف وأربعمائة وتسعون قافية » - ولم يذكر هذا البيان في شرح الواحدى المطبوع فى أوروبا وإنما عثرت عليه فى آخر احدى النسختين الخطيتين المحفوظتين فى المكتبة الازهرية .
وإذا عرفنا ان أبا الطيب قال الشعر قبل ان يبلغ العشرين ومات بعد الحسين فيكون متوسط ما قاله فى السنة ١٨٠ بيتاً (أى نصف بيت فى اليوم) فإذا راعينا ان أبا الطيب لم يشتغل الا بالشعر وليس له شىء من النثر ولم يتول عملاً من الاعمال يشغله عن النظم بل كان منقطعاً له حكماً عليه بأنه من المقالين من جهة كمية الشعر ولكن اذا لاحظنا ان أبا الطيب كان شغوفاً باللغة منكباً على درسها يكثر المطالعة ليلاً وان الشخص الذى يكثر من الدرس لا يجد فى نفسه كبير ميل الى الكتابة لا سيما وان شعر أبي الطيب غالبه تفكير عقلى - اذا لاحظنا ذلك شهدنا لأبي الطيب بأنه من المبكثرين

علي لم أعتبر علي حكم أحد من أهل الادب في هذه النقطة
ويلاحظ أيضاً من جهة مقدار الشعرات الشاعر في غالب أوقاته نديم للامراء
يمضي جزءاً عظيماً من زمنه في محرم فهو ليس منصرفاً تمام الانصراف الى النظم كأبي
العلاء المعري مثلاً الذي كان منقطعاً للدرس والتأليف

هل كان سمح البديهة سريع الخاطر؟

يقول ابن رشيق في كتابه «العمدة» «وقد كان أبو الطيب كثير البديهة
والارنبجال الا ان شعره فيهما نازل عن طبقتة جداً وهو لمعري في سعة من العذر» (١)
وفي ديوان أبي الطيب أشعار كثيرة قيات على البديهة وأحسن ما يستدل به على
بديهة أبي الطيب قوله بعد ان أنشد بعض أبيات ولم يظهر معني البيت الاول لقوم كانوا
في المجلس (عند سيف الدولة)

أتيت بمنطق العرب الاصيل وكان بقدر ما عاينت قبلي
فعارضه كلام كان منه بمنزلة النساء من البعول
وهذا الدر مأمون التشظى وأنت السيف مأمون الفلول
وليس يصح في الافهام شيء اذا احتاج النهار الى دليل

والبيت الاخير قد سار بين الناس مسير الامثال حتي استشهد به المذاطقة في

أبحاثهم

وشعر أبي الطيب المرتجل كثير خصوصاً عند ما كان في حاشية بدر بن عمار -
ودخل عليه ابو علي هارون بن عبد العزيز الاوراجي الكاتب فقال له وددنا يا أبا
الطيب لو كنت اليوم معنا فقد ركنا ومعنا كلب لابن ملك فطردنا به ظيماً ولم يكن لنا
صقر فاستحسننا صيده . فقال أنا قايل الرغبة في مثل هذا . فقال أبو علي انما اشتبهت
ان تراه فتستحسنه فنقول فيه شيئاً من الشعر . قل أنا أفعل . أفتحب ان يكون
الآن . قال أيمن مثل هذا ؟ قل نعم وقد حكمتك في الوزن والقافية . قال لا بل

الامر فيهما اليك . فأخذ أبو الطيب درجا وأخذ أبو علي درجا آخر يكتب فيه كتابا
فتطع عليه أبو الطيب الكتاب وأنشد : « ومنزل ليس لنا بمنزل » وهي أرجوزة مطولة
تعد من حسنات أبي الطيب

الا ان هذه البديهة قد خاتته وهو في حاشية سيف الدولة وله قصيدة يشير فيها
الى ذلك وعنوانها في الديوان : « وقال وقد استبطأ سيف الدولة مدحه وتنكر لذلك »
وفيهما يقول

كفرت مكارمك الباهرا ت ان كان ذلك مني اختيارا
ولكن حمى الشعر الا القليل هم حمى النوم الا غرارا

هل كان من المتكسبين بالشعر ؟

بلا نزاع . وقل في تاريخ الادب عندنا — بعد متقدمي الجاهلية — ان يوجد
شاعر لم يؤثر على شعره وهذا ما أضع كثيراً من قيمة الشعراء وحط من منزلتهم
في نظر الناس

روى صاحب الصبوح المتنبى انه وصل الى أبي الطيب من صلوات عضد الدولة
أكثر من مائتي ألف درهم . وقل بعض الرواة الذين أخذ عنهم المؤلف المذكور على
ذكر مقتله : « وافاني المتنبى ومعه بغال موقرة بكل شيء من الذهب والفضة والطيب
والتجملات النفيسة الخ . . . » فهو اذن ممن أتروا من صناعة الشعر — وقليل ما هم —
ولا ينبغي ان ننسى ان « أسعار » قصائده كانت في أول الامر أقل من هذا
بكثير — فقد أعطاه ابن منصور الحاجب ديناراً واحداً على قصيدة « بابي الشموس »
فسميت الدينارية

هل كان كل شعره من طبقة واحدة ؟

يطمع كثير من الناس ان يروا شعر الشاعر او نثر الناثر من طبقة واحدة طول
حياته ويستنكرون التفاوت الذي يلاحظونه بين أجزاء الشعر او النثره ويخيل الي

نه يتعذر على الشاعر ان ينظم طول حياته على نمط واحد خصوصاً الشعراء الذين يتصلون بمحاشية الامراء فقد يفاجئون بطلبات من امرأهم في ساعات لا يتوقعون فيها مثل تلك الطلبات . أضرب لذلك مثلاً: الشاعر في لهوه مع أصحابه يحسنون الكؤوس بين هو وطرب وسماع ثم يفاجأ بخبر موت عزيز علي الأمير فيطلب من الشاعر ان ينظم في الرثاء . في هذه الحالة لا يستطيع الشاعر ان ينظم الا شعراً نازلاً عن طبقة يظهر فيه التصنع والتكلف وهذا ما يجب ان ينظر اليه في الحكم على شعر المأجورين - او المتكسبين - من الشعراء فينبغي اللطف في مواخذتهم لأنهم مضطرون في مثل هذه الظروف ان يقولوا على خلاف ما في أنفسهم اذ يطلب منهم البكاء وهم فرحون او ان يفرحوا وهم محزونون الى غير ذلك مما يوقع الشعراء في الحيرة فيجيبون بشعر ردىء يعد عليهم سيئات فيما بعد

يقول ابن الاثير في المثل السائر : د ولما تأملت شعره بعين المـمدلة البعيدة عن الهوى وعين المعرفة التي ما ضل صاحبها وما غوى وجدته أقساماً خمسة : خمس في الغاية التي انفرد بهادون غيره وخمس من جيد الشعر يساويه فيه غيره وخمس من متوسط الشعر وخمس دون ذلك وخمس في الغاية المتقهقرة التي لا يعابها وعدمها خير من وجودها ولو لم يقاها أبو الطيب لوقاه الله شرها فانها هي التي ألبسته لباس الملام وجعلت عرضه شارة لسهام الاقوام « (١)

هل كان أبو الطيب شاعراً مطبوعاً او كان من أصحاب الصناعة ؟
الاحظ هنا ملاحظة على تسمية الشاعر بالمطبوع لأن الشعر في ذاته صناعة وتكلف غير طبيعي في الانسان ولا أظن هذه التسمية الا نسبية فقط ففلان يعد من الشعراء المطبوعين بالنسبة لفلان الآخر ولكنه صاحب صناعة بالنسبة لنفسه . أليس الوزن تكليماً ؟ أليست القافية تصنعاً ؟ وكفى مما لا نزاع فيه ان كل المتأخرين من أصحاب الصناعة يجتهدون في ادخال

المحسنات في نظهم على خلاف شعراء الجاهلية وصدر الاسلام الذين لم يكونوا يعنون بهذه المحسنات ولو انها كانت تأتي عفواً في أشعارهم ولكن الشاعر اذا لم يكن قد فطر فطرة شاعرية وطبع هذا الطبع فان الصناعة لا ترفع من شأن شعره ولا تزيد على انه كلام موزون مقفى

فالتنبي شاعر من المتأخرين وهو بلا شك من أصحاب الصناعة وصناعته ظاهرة جلية في شعره وسنرى أسرارها ومميزاتها فيما بعد وهذا لا يفيد انه نظام فقط بل انه مطبوع طبعا شعريا جعل أقواله الحكيمية تسير في الناس بفضل روحه الشعرية التي تشرب بها الشعر الا انه قد تغلب عليه الصناعة في بعض الاوقات فيظهر تكلفه وفي بعض الاحيان يستسلم للطبع ولا ينظر الى التنميق طبعا في ان يجيء بشعر بدوي صميم مذهبه في الصناعة :

مما لا شك فيه ان المتنبي من أصحاب الصناعة وهو يشبه في بعض الاحوال أبا تمام وفي بعضها ابن الرومي وفي بعض المطالع يكاد يكون من مقلدي دعبل في أسلوبه وفي باب الحكم ما عدا الزهد يقرب كثيراً من أبي العتاهية

وللقاضي الجرجاني حكم في صنعة أبي الطيب يحسن إرادته هنا . قل : « وأما أنت أحد رجالين اما ان تدعى له الصناعة المحضة فتلحقه بأبي تمام وتجهله من حزبه او تدعى له فيه شركا وفي الطبع حفا فال مات به نحو الصناعة فضل ميل صبرته في جنبه مسلم وان وفرت قسطه من الطبع عدت به قليلا نحو البحري . وأنا أرى لك اذا كنت متوخيا للعدل . مؤثراً للانصاف ان تقسم شعره فتجعله في المصدر الاول تابعا لأبي تمام وفيما بعده واسطة بينه وبين مسلم ... » (١)

الا ان المتنبي قد أكثر من التكلف في مواضع وأهفي طبعه لكي يحسن فأساء مع ان له مبدءاً جاء عرضاً في شعره يحض فيه على ترك العمل والالتقياد للطبع لأن ذلك خير كغليل بالنجاح - قرر المتنبي هذا المبدأ في قصيدته التي قلها في بدر بن عمار « وقد فصدته الطيب فخاص الموضع فوق حقه فأضربه ذلك » :

يقول عن الطيب :

جاز حدود اجتهاده فأتى غير اجتهاد لأنه الهبل
أبلغ ما يطلب النجاح به الطيب - مع وعند التعمق الزلل
يعترف البازجى لأبي الطيب بما « ركب في طبعه من السلاسة وقوة البادرة
والنزاهة عن التكلف » (١) وما عدا ذلك من تعمل أو تقليد فعرض طارئاً لأسباب

(١) العرف الطيب ص ٦٧٠ - واليك بعض أحكام مقتطفه من ذلك البحث
الممتع : « وما أدري كيف يقع من يأتي بأمثال هذه البدائع الباهرة والروائع
الساحرة التي انفرد بها عن مواقف الاشباه وعجزت قرائح المتحدين عن بلوغ
مداه أن ينشط بعدها لمثل تلك السفاسف التي لا يتصور في أضعف الشعراء
ان تصدر منه ... وكأني بالمتنبى على طول باعه في صناعة الأدب وفضل علمه
بمواقع الاساءة والاحسان كان قليل النقد لشعره حريصاً على كل ما يبدر من
خاطره لا يسمح بشيء منه مع طول قصائده واستقلالها بعد حذف كثير من
أبياتها لو اقتصر منها على الجيد وحده وما كان اجدره ومنزلته من الأدب ماهي
ولا صنعة له غير الشعر ان يتوفر على تنقيح ديوانه وينفي منه كل بيت لا يطرد
على مكانته ولو فعل لساد امرء الشعر بلا مدافع ولم تجد في تقدة الكلام وجهابذة
الأدب من يقدم شاعراً عليه ... على انك اذا تفقدت تلك المعجمات من ابياته
فأكثر ما تجدها في اوائل شعره حين لم تستحكم فيه ملكة النظم ... بل ربما
ركب مثل ذلك عمداً حينه ذلك. اذ المرء في أول قرعه لباب الشعر والانشاء
وتسليمه على محضر الأدب قد يدفع نفسه الى ما هو وراء موقفها ويكلف سجيته
ماليس في مطبوعها تألقاً في الخطاب وتواخياً لمواقع الاحسان والاعجاب وربما
نزع الي تقيل بعض الكبراء من أهل خطته ومن وقع في نفسه منهم موقعا
جليلاً فيخطو على آثاره ويطيع على غراره تدرجاً الى مماثلته وتبوء مثل مقامه في
الصدور وهذا انما ينجح حيث يوافق شبيهاً من الذوق وميلاً من الطبع فيتلبس
بمنتحله حتى يصير مع التكرار ملكة راسخة
« وما احسب المتنبى الا كان في صدر أمره يتوخي طريقة ابي تمام اعجاباً

وقتيه ثم لا يلبث ان تغلب عليه فطرته الاولى -

به واستعظماً لأمره وشهرة ابى تمام يومئذ ملء المسامع ومنزلته في اللغة والأدب مطمح عيون المطامع الا ان المتنبي لم يكن في طبعه من أهل هذا المذهب ولا في سجيته قبول هذا المسلك لما كان عنده من « بداهة الخاطر وحدة البادرة والبعد عن التكلف والتعمل » ولذلك كان هذا في أوائل شعره وقبل ان تستوسق ملكته وتستقل طريقته أكثر واظهر . فكان ينحون نحو أبى تمام في الخوم حول موارد الاغراب والتنقيب عن الوحشى من كلم الجاهلية والتورك على الصبيخ الشاذة والتراكيب الجافية والتجذلق في اسلوب الخطاب حتى كأنه يدفع في صدر السامع ...

« ومن تفقد أوائل ديوانه رآها كذلك الوانا تبعاً لمقامات الكلام ومراتب المخاطبين وكلما امعن فيما وراء ذلك وجد هذا التلون فيه أختي آثاراً وأقل عروضاً الى ان استقلت طريقته وأقلع عن موقف التقليد الا انه لم يزل في ملكته شيء من ذلك القديم أشبه بعداد السليم يعاوده حيث يحتفل ويقصد الاغراب والمبالغة في الاحسان فيأتى كلاهه معتداً بادي التكلف ... ولهذا ترى شعره في أبى العشائر مثلاً أسهل أسلوباً وأظهر أضراراً من بعض شعره في سيف الدولة مع أنه ولا شك كان أيام اتصاله بسيف الدولة أغزر مادة وأقدر على التصرف بأزمة الكلام ... وذلك انه عند اتصاله بسيف الدولة وقف منه بباب حافل بالشعراء والعماء ... ولذلك لم يكن لمتنبي بد من حشد القريحة في مدائح سيف الدولة والاكتثار من التحري والتنطس في ألفاظه ومعانيه والاععان في الاحتفال الى ما وراء طبعه حتى تنقلب قريحته صنعة وبادرتة تكلفاً »

« ثم اذا انتقلت الى شعره في كافور وجدته قد عاد الى السهولة والرشاقة فاشبهه شعره في أبى العشائر ومن قبله . وشعره في ابن العميد متأخر عن شعره في كافور لكنه أشبهه بشعره في سيف الدولة لان ابن العميد كان من مشاهير علماء الأدب وأمراء النقد وله على المتنبي ما أخذ ... أما شعره في عضد الدولة فأنزل رتبة من ذلك لانه كان يرسل الكلام من فضل القريحة لقلّة المزاحمين والنقاد فلم يكن يتوخى الاحتفال ولا الاختراع الا ما ساقته القريحة عفواً .

ولصاحب الصبح المنبي إشارة في هذا الموضوع (١)

النقد البياني - نقد الجزئيات

الاحظ هنا من باب التذكيرة ان النقد عندنا يتناول الجزئيات ولا يمتد الى الموضوع في جملة. نجد الناقد يتعرض لبعض الفاظ خرجت عن قواعد اللغة أو بعض تراكيب لا تناسب الذوق العربي الاصلى أو يؤخذ على غاظة نحوية أو سقطلة بيانية الى غير ذلك. ولكننا لا نرى ناقداً ينجار الى القصيدة ويقدرها في مجموعها بنظرة اجمالية من حيث تناسب اجزائها وارتباط بعضها ببعض وقيمتها من حيث موضوعها ومرماها وأسلوب انشائها وموافقته لموضوع القصيدة الى غير ذلك من الاعتبارات التي لا دخل لها في الالفاظ والتراكيب. ولهذا قل كثير ممن غنوا بدرس آداب العرب من الاجانب بأن النقد العربي نقد بياني محض (٢) - ولكن النقد العربي قد وقف في طريقه منذ

لكنه لما نظم فيه أرجوزته ، ما أجدر الايام والايامى ، عاد الى دأبه الاول من الاغراب والتكلف لانه كان في أرجوزته يقصد محاكاة البدويات . ولذلك ترى كل ماله من هذا النوع معقداً جافي اللفظ والتركيب لا يشبهه سائر شعره ولا عليه شيء من طلاوته وانسجامه " (ص ٦٦٥ - ٦٧١)

(١) ص ٨٧ ج ١ " وأحسن قصائد ابي الطيب في سيف الدولة . وتراجع شعره بعد مفارقتة . وسئل عن سبب ذلك فقال : قد تجوزت في قولي وأعفيت طبعي وأغتنمت الراحة منذ فارقت آل حمدان وفبهم من يقول . . . (يعنى ابافراس و ابا زهير و ابا العشائر)

(٢) لذلك رجع (نيكولسن) الانجليزى الى الانتقادات البيانية التي جاءت في (اليتيمة) ليحكم على قيمة المتنبي في نظر الشرقيين لا في نظر الغربيين - وفي دروس الاستاذ (نلينو) الايطالى التي القاها بالجامعة المصرية على تاريخ الآداب العربية ملاحظات كثيرة على النقد البياني عندنا وانصراف النقدة العرب الى هذا النوع دون غيره - واليك خلاصة مقاله الثعالبى في يتيمة الدهر

العصور الأولى للإسلام، فلو أنه سار سيره الأول لكان فذاً كاملاً لا يعيبه عائب ولا ينتقصه منتقد

(ص ٩٥ - ١٦٢) في نقد شعر المتنبي - وهو منقول برمتيه تقريباً في الصباح المنبهي. وأنا تقتصر هنا على ذكر رؤوس المواضيع. قال: «والآن أذكر ما ينعي على أبي الطيب من معائب شعره ومقابحه... فمنها قبح المطالع. اتباع الفقرة الغراء بالسكنة العوراء. استكراه اللفظ وتعقيد المعنى. عسف اللغة والأعراب الخروج عن الوزن. استعمال الغريب الوحشي. الركافة والسفسفة بالفاظ العامة والسوقة ومعانيهم. إبعاد الاستعارة والخروج بها عن حدها. الإفراط في المبالغة والخروج فيها إلى الاستحالة. تكرير اللفظ في البيت الواحد من غير تحسين إساءة الأدب بالأدب. استكراه التخلص. قبح المقاطع... هذا آخر المقابح والمعائب وأول المحاسن والروائع والبدائع والقلائد والفرائد التي زاد فيها على من تقدم وسبق بها جميع من تأخر: فمنها حسن المطلع، حسن الخروج والتخلص النسيب بالأعرابيات. حسن التصرف في سائر الغزل. حسن التشبيه بغير اداة التشبيه. الإبداع في سائر التشبيهات والتثنيات. التمثيل بما هو من جنس صناعته. المدح الموجه. حسن التصرف في مدح سيف الدولة بجنس السيفية. الإبداع في سائر مدائح. مخاطبة الممدوح من الملوك بمتل مخاطبة المحبوب والصديق مع الاحسان والإبداع. استعمال الفاظ الغزل في أوصاف الحرب والجد. حسن التقسيم. حسن سياقة الأعداد. ارسال المثل في انصاف الأبيات. ارسال المثليين في مصراع البيت الواحد. ارسال المثل والاستملاء والموعظة وشكوي الدهر والدنيا والناس وما يجري مجراها. افتضاضه إبتكار المعاني في المرثي والتعازي. الإيجاع في الهجاء. إبراز المعاني اللطيفة في معارض من الألفاظ الرشيقة والرمز بالطرف والملح. حسن المقطع»

لقد عرض الثعالب شعر المتنبي على الأبواب المختلفة في علم البلاغة كما يفعل ناقد المعادن والأحجار الكريمة. عند ما يعرض الجواهر على محك أو يفحصه في سوائله الكشافة أو ينفخ عليه في كيره فاستوفي بذلك كل ما في الشعر من

وأهم نقطة تستوقف النظر في نقد أبي الطيب هي السرقة ولذلك أطلنا عليها الكلام نوعاً ما

سركات أبي الطيب (١)

لا تتصفح كتاباً من كتب الأدب أو البيان أو النقد الا وتجد مؤلفه قد تكلم فيه على سركات المتنبي . وكل الأمثلة تقريباً في كتب البلاغة على انواع السرقة . مأخوذة

البحث وتناوله بالتحليل الدقيق بقدر ما تصل اليه طاقة النقد في عصره : فاذا ما وجه أي اعتراض الى ما جاء في نقد الثعالبي وأمثاله فانما يوجه الى طريقة الانتقاد نفسها والى عدم نضج الانتقاد لا الى الناقد نفسه اللهم الا ان يطلب منه ان يكون مبتدعاً أو مجدداً في الادب وهذا لا يطالب به أحد لانه في الغالب توفيق فوق الاجتهاد .

(١) التعمير بالسرقة بين الشعراء :-

كانت السرقة شراً ما يعير به الشعراء - ان صدقاً وان كذباً - وهذا الايلام القاتل قد عرفه الشعراء وما أصدق أبا الطيب حين استعاذ من عداوة الشعراء بقوله « وعداوة الشعراء بنس المقتنى » انظر الى الفرزدق كيف يقول في البيث :

اذا ما قلت قافية شروداً تنحلها ابن حمراء المعجان

وجرير في الفرزدق :

سيعلم من يكون أبوه فينا
ومن عرفت قصائده اجتلابا
والفرزدق في جرير :

ان استراقك يا جرير قصائدي

مثل ادعائك سوي أبيك تنقل

والى قول ابن الرومي في البحتري :

قد قلت اذ نحلوه الشعر « حاشله »

ان البروك به أولى من الخبب

الى ان يقول بعد ان سخر كثيراً من لحية البحتري

قبحاً لاشياء يأتي البحتري بها

في شعره الغث بعد الكد والتعب

وقد يجيء بخلط فالنجاس له

وللاوائل ما فيه من الذهب

سمين ما نحلوه من هنا وهنا

والغث منه صريح غير مجتلب

من شعر أبي الطيب . وأعجب من هذا ان يفرد لسرقاته فصل مطول يستغرق معظم الكتاب الذي يدرس فيه ابو الطيب كما تجد ذلك في « الوساطة » و « الصبح المتنبي » وأغرب من هذا وذاك ان يخصص لسرقات المتنبي كتاب على حدته لا يدور البحث فيه الا على استقصاء تلك السرقات وردها الى أصحابها مثل كتاب العميدى الموسوم « بالابانة عن سرقات المتنبي » أو كتاب « المآخذ الكندية من المعاني الطائفة » لابن الدهان (١)

يسىء عفاً قالت اكدت وسائله أجاد لصاً شديد البأس والكلب
ان الوليد لمغوار اذا نكلت نفس الجبان بعيد الهم والسرب
عبد يغير على الموتى فيسلبهم حر الكلام بجيش غير ذى لجب
ما ان تزال تراه لا بساً حلالاً : أسلاب قوه مضوا فى سالف الحقب
شعر يغير عليه باسلاً بطلا وينشد الناس اياه على رقب
يقول مستمعوه الجاهلون به أحسنت يا أشعر الحضار والغيب
حتى اذا كف عن غاراته فله شعر يئن مقاسيه من الوصب
ثم وجه الحديث للوزير أبي عيسى العلاء بن صاعد يطلب اليه ان ينكل بالسارق
حسنت الاوائل القاتل سامعيه بشعره الرديء

أيسرق البحتري الناس شعرهم جهرأوانت نكل الاصر ذى الريب
وتارة يترز الارواح منطقة فالخلق ما بين مقتول ومغتصب
فهذا البحتري أيضاً قد انتظم في سلك اللصوص ولا لوم على هؤلاء والشعراء ولا
تثريب فقد قال من هم أحق منهم بالعطف والمرحمة « ان يسرق فقد سرق أخ له من
قبل » هكذا قال أبناء يعقوب فى يوسف وأخيه ... — الا ان عشاق اللغة
العربية يتمنون لو ان هذه اللغة الكريمة تبلى كل يوم باصر أو لصين من امثال
البحتري والمتنبي لانها فى حاجة الى هؤلاء الاشرار وقد كفها بكم الاخيار
أجيالاً طوالاً

(١) هو ابن الدهان النحوى البغدادي (ولد سنة ٤٩٤ وتوفى سنة ٥٦٦
وقيل ٥٦٩) له كتاب « المآخذ » ويسميه ابن خلكان « الرسالة السعيدية فى
المآخذ الكندية » ويسميه الصبح المنبى « المآخذ الكندية من المعاني الطائفة »
مآخذ المتنبي (الكندى) من معانى أبى تمام والبحتري (الطائين)

حتى لكان أبا الطيب لم يعرف في عالم الأدب إلا باصوحيته . وسواء صحت فكرة السرقة في شعر المتنبي أم لم تصح فإن تلك التسمية في ذاتها شديدة الوقع على النفس ولو أنها تمثل الحقيقة نميلاً صادقا . وقد أحسن الفنقشندي صاحب كتاب « صبح الأعشى » في تسمية هذا الباب بالتقليد . وهذا التعبير أخص من السرقة . وأعم من هذين اللفظين « الأخذ » وهو أخذ الشعراء بعضهم عن بعض . ويظهر أن خصوم أبي الطيب اختاروا تلك التسمية المؤثرة تحقيراً لخصمهم وتشبيهاً عليه - أما الثعالبي فإنه أنصف أبا الطيب في هذا الباب كما أنصفه في غيره من الأبواب وذكر أخذه عن الشعراء كما ذكر أخذ الشعراء عنه - وهذا هو العذل المطلوب من كل ناقد

ولعل أهل الأدب أرادوا بهذه التسمية المؤثرة أن يدفعوا الطامعين عن مد أيديهم إلى ثمرة أفكار الغير وعصارة عقولهم (١)

يقول صاحب « الأباية » عن سرقات المتنبي : « ولقد تأملت أشعاره كلها فوجدت الأبيات التي يتفخر بها أصحابه ، وتعتبر فيها آدابه ، من أشعار المتقدمين منسوخة ، ومعانيها من معانيهم منسوخة - فإن صحت هذه الدعوى من « العميدى » فإذا الذي بقي من اسم المتنبي الضخم ؟

أجل لقد بقي له فضل آخر لا ينكره المؤلف المذكور فقد قال : « ولست - يعلم الله - أجحد فضل المتنبي وجودة شعره وصفاء طبعه وحلاوة كلامه وعدوابة انماظه ورشاقة نظمه » ولكنه يبين بعد ذلك موضع الضعف فقال « ولا أنكر اهتدائه لاستكمال شروط الأخذ إذا لحظ المعنى البعيد لحظاً ، واستيفائه حدود الحدق إذا سلخ المعنى وكساه من عنده لفظاً » وأقرب ما نشبه به رأى العميدى أن المتنبي لم يكن « مهندساً » بل كان « بناءً » لا يستطيع أن يخطط بنفسه وإنما هو يبني على ما رسمه غيره من قبل إلا أنه بناء ماهر

(١) يقول صاحب ابن عباد في أديب اتحل شعره

سرق شعري وغيري	يضام فيه ويخدع
فسوف أجزيك صفعا	يكدر رأسا وأخدع
فسارق المال يقطع	وسارق الشعر يصفع

بشهادة العميدى حيث يقول : « ولا أشك في حسن معرفته بحفظ التقسيم الذى يعلق بالقلب وقعه ، وإيراد التجنيس الذى يملك النفس ميمه ، ولحاقه في أحكام الصنعة ببعض من سبقه ، وغوصه على ما يستصفي ماؤه ورويقه ، وسلامة كثير من أشعاره من الخطأ والخلل والزلل والدخل ، والنظام الفاحش الفاسد ، والكلام الجامد البارد ، والزحاف القبيح المستبشع ، واللحن الظاهر المستشنع ، وأشهد انه عن درجة غيره غير نازل ولا واقع ، وأعترف انه مليح الشعر غير مدافع »

السرقه عند البيانين

بجمل الى ان آذ باب في البلاغه هو هذا الباب وما ذلك الا لان السرقه لاتكون الا في المعانى الغالية النادرة . وفي هذا الباب نرى تدرج المعانى وترقيها فنجد المعنى القديم في بداوته وخشونته وقد أخذه شاعر حديث هذبه قليلاً ثم يأتي شاعر أحدث يزيد في تجميله وتحسينه وهكذا حتى كأننا نستعرض أدوار الارتقاء والتقدم في الافكار الشعرية المهمة وننظر اليها وهي صاعدة تنحطى درج ذلك السلم حتى تصل الى ناصيته وقد كساها كل جيل ثوبا البق وأجمل

وهذا الباب علي ما فيه من اللذة للمطلع كثيراً ما يوحى الى النفس احكاماً ظالمة وكثيراً ما حاد علماء البلاغه عند وضع قواعده عن جادة الانصاف حتى وصلوا في مواضع الى التحكم الممقوت والاجحاف المغيب

واني أكتفي بمثال واحد هو (الالتقاط والتلفيق) - جاء في الجزء الثانى من (العمدة)

في باب السرقه : « أما الالتقاط والتلفيق فمثل قول يزيد بن الطثرية :

إذا ما رأيتى مقبلاً غص طرفه كأن شعاع الشمس دونى يقابله

فأوله من قول جميل :

إذا ما رأونى طالعا من ثنية يقولون من هذا وقد عرفونى

ووسطه من قول جرير :

ففض الطرف انك من غير فلا كعبا بانغ ولا كلابا

وعجزه من قول عنتره الطائي :

إذا أبصرتني أعرضت عني كأن الشمس من حولي تدور،

أليس هذا حجراً على الناس في استعمال الالفاظ والتراكيب ؟
ربما يتبادر الى الذهن انى أبرر السرقة — كلاً فانى أعتقد ان ذلك اللص الذى يخرج تحت جناح الظلام من خلال البيوت يتسور الجدران ويتخذ المفاتيح المصطنعة ويسلب أموال الناس ثم يعود بها الى مأواه ويجعلها لنفسه ويتمتع بها الى ما شاء الله — ليس أكبر جرماً ولا أعظم مسئولية من ذلك الاديب الذى يجاس بين الدفاتر والمحابر يسطو على ثمرة مجهود غيره ويلتقط من هنا ومن هناك يأخذ ملح هذا وينهب طرائف ذلك ويسلب مبتدعات ذلك وينتحلها كلها لنفسه ويطبعها بطابعه ويسجلها باسمه والله يعلم واولى العلم يشهدون بانها دعوى عقيم تدعى ولدا

أما الرأى الخاص الذى أستنتجه فهو ان البحث في السرقة لم يكن ولا ينبغي ان يكون الا مباراة في الحفظ ورياضة عقاية وتنبيهاً للذاكرة كي تستحضر ما يتراكم في خزائنها من المعانى وتحريضاً للعقل على مقارنة الافكار بعضها ببعض — أما تلك الشحناء والمخاصمة وتحقير هذا وانكار فضل ذلك كل ذلك لا أراه من مرامي هذا البحث الجليل (١)

(١) انى أشبه الناقد عندنا — والنقد قد وقف عن الترقى والتقدم منذ مئات السنين) — أشبهه برجل يشرف من موضع استطلاع على بناء كبير ولا يبدي أى رأى عن ذلك البناء فلا يقول من أى طرز هو . وعلى أى طريقة بنى . وهل هو حسن التقسيم . متناسب الاجزاء . جميل الوضع . يؤدى الى الاغراض التى قصدت من تشييده الى غير ذلك من الاعتبارات التى تعد حكماً كلياً على الشئ فى مجموعها — ولكنه ينتظر ريثما يصل الى ذلك البناء فيدقق النظر فى قطعة من الخشب أو الحديد يقول هذه مسروقة من منزل فلان ثم ينظر الى شباك فيقول هذا يشبه شباك فلان ولعله تقليد له الى غير ذلك من الملاحظات الجزئية التى لا

مرقات أبي الطيب من معاني أرسطو

لم يكتب بعض النقدة بادعاء السرقة على المتنبي من المعاني العربية كما فعل العميدى « المدعى العمومي » بل قال بعضهم ان أبا الطيب أخذ كثيراً من معاني اليونان في حكمه وأمثاله - ففي شرح العكبرى :

« والظلم من شيم النفوس فان تجد ذاعنة فاعلة لا يظلم وهو من كلام الحكيم : الظلم من طبع النفس وإنما يصدها عن ذلك إحدى عاتين اما علة دينية او علة سياسية » (١)

وفي صبح الأعشى :

« واذا كانت النفوس كباراً تعبت في مرادها الأجسام

أخذه من قول ارسطاطاليس : اذا كانت الشهوة فوق القدرة كان هلاك الجسم دون بلوغ الشهوة » (٢)

وهن أهل الأدب من أحسن الظن بأبي الطيب في هذا الموضوع - وقد أشار الى ذلك جورجى زيدان فقد ورد في كتابه « تاريخ آداب اللغة العربية » (٣) : « وأبو علي محمد بن حسن الخنمي بين ما توارد من المعاني بين أبي الطيب وأرسطو ولم يتهم المتنبي بالسرقة بل قل : لما رأيت أبا الطيب قد أتى في شعره على أغراض فلسفية ومعان منطقية أردت الموافقة بين ما توارد به شعره مع أرسطو في حكمه لأنه ان كان ذلك عن فحس ونظر فقد أغرق في درس العلوم وان يكن ذلك منه على سبيل الاتفاق فقد زاد على الفلاسفة في ذلك وهو في الحالين على غاية الفضل - ثم أورد بعض أقوال أرسطو وما يقابها من أشعار المتنبي في نحو عشرين صحيفة اطعنا عليها

يمكن ان يعرف منها شخصية الشيء بكلمه وهل لصانعه فصل في عمله أم لا
وانى أخشى ان اسمي هذا التصرف قصراً في النظر

(١) التبيان ص ٣٦٥ ج - (٢) صبح الأعشى للقلقشندي طبعة مصر

ص ٢٩١ ج ٢ - (٣) ص ٢٤٨ ج ٢

في كتاب اسمه « راشد سوريا » مطبوع في بيروت سنة ١٨٦٨ «
ولم أثير على كتاب راشد سوريا ولكنني دثرت على نفس المأخذ كما أظن وهو
الرسالة الحاتمية التي أشرت إليها في صحيفة ١٣٥ من هذا الكتاب المطبوعة ضمن
مجموعة الجوائب الموسومة بالتحفة البهية والطارفة الشهية (١)

نوافق الخواطر

على ذكر أخذ المتنبي من معنى اليونان اعرض بعض الامثلة لالتى الشك (وهو
غاية ما أصل اليه) في أذهان المتشبعين بفكرة السرقة الواقفين تحت ظلال الألفاظ
الذين اذا ما رأوا تشابهاً بين عبارتين صاحوا بملء أفواههم «سرقة الاص!» ولكن
لا تلبث دعواهم ان تصبح «بلاغاً كاذباً»

قال فيكتور هوجو في قصيدته المشهورة: « بعد الموقعة » يصف جريحاً فقال
« Mort plus qu'à moitié » ويقابل هذا التعبير قول أبي الطيب (حتى رجعت
« بنفسي مات أكثرها »)

فهل ينبغي في هذا المقام ان نقول ان فيكتور هوجو الفرنسي الذي مات سنة
١٨٨٥ ميلادية قد سرق المعنى المتقدم من أبي الطيب العربي المتوفى في منتصف
القرن الرابع الهجري أي سنة ٩٦٥ ميلادية؟ كان الواجب ان نقول ان الشاعر
الفرنسي قد سرق ذلك المعنى من الشاعر العربي لأن هذا متقدم علي ذلك في الزمن
ولان حركة الترجمة والنقل من اللغات الشرقية الى اللغات الأوروبية كانت عظيمة
جداً في القرن الماضي حتى ان المستشرقين أحاطوا بكل دقائق الآداب والعلوم
والفنون التي كان يحسبها الشرق انها ليست في متناول أحد غير أهلها - هذه القرائن
الضعيفة التي ذكرتها هي التي أباحت من ادعوا السرقة علي المتنبي ان يثبتوا انه سرق
معانيه الحكيمة من اليونان لأنهم متقدمون عليه في الزمن ولأن حركة النقل في عصره
وقبل عصره كانت عظيمة

(١) الرسالة الحادية عشرة طبع القسطنطينية سنة ١٣٠٢

ان المثال الذي ضربته علي معني واحد مشترك بين أبي الطيب وفينكتور هوجو-
ربما لا يكفي لاثبات السرقة ولكني سأذكر مثالا آخر نرى من خلاله كثيراً من معاني
أبي الطيب وأفكاره الأساسية في شعر « الفريد ده فيني » A. de Vigny الشاعر
الفرنسي المتوفي سنة ١٨٦٣ ميلادية

من غريب المصادفات ان يظهر في القرن التاسع عشر من الميلاد بين أهل فرنسا
مهد المدينة الحديثة في الغرب رجل من بيوت المجد والشرف هو الفريد ده فيني
يضرب علي نعمة شاعرنا العربي أبي الطيب المنبي ويشاركه في كل أفكاره الكبرى
مع ان هذا الأخير قد تقدمه في الزمن بتسعمائة سنة ونشأ في بيت حقير وترعرع في
البادية ثم عاش في وسط المدينة الشرقية في ظل حضارة تختلف من جميع وجوها
ومظاهرها عن حضارة الغرب

أجل من غريب المصادفات ان يتلاقى هذان الشاعران في مبادئهما الأساسية
على ما بينهما من بعد المدى التاريخي وتناهي المنبت واختلاف المنشأ والحضارة واللسان
أول ما يتفق فيه الشاعران أنهما حكيمان والشاعر الحكيم قليل جداً في كافة الأمم
لاختلاف مجال الشعر عن مجال الحكمة كما بينت في موضع آخر . فكما أننا لانعرف
من بين تلك الوجوه النضرة التي بنخر بها تاريخ آدابنا العربية الا أفراداً قليلين
استطاعوا ان يؤلفوا بين هذين الفنين المتنافرين قد بزعم أبو الطيب وأحرز قصب
السبق عليهم فكذلك الأدب الفرنسي لم يرزق في هذا الباب الا عدداً قليلاً كان
الفريد ده فيني حامل لوائهم وزعيمهم المشار اليه بالبنان

يقول الكاتب الكبير والناقد الشهير « اميل فاجيه » (١) عضواً كادمية الفرنسية
في « أبحاثه الأدبية عن القرن التاسع عشر » عن أفكار ذلك الشاعر بأن النبوغ أو
العبقرية هبة سامية ولكنها تسجن الانسان بين العظمة والمزلة والكآبة - ولم يقتصر
الناقد على العبقرية وحدها ولكنه قل بأن كل عظمة أياً كانت فانها تخالف الطبيعة

(١) Emile Faguet-Études Littéraires. xix siècle , pp 132 et
suiv *

وتحرم السعادة الخ . - أليست هذه الفكرة هي بمينها قول أبي الطيب
وإذا كانت النفوس كبارا تعبت في مرادها الاجسام
أو قوله

ذو العقل يشقى في النعيم بعقله وأخو الجهالة في الشقاوة ينعم
والمرجلة الثانية - على رأى فاجيه - حتمه على الدنيا وعلى الأقدار وعلى المظالم
التي يذهب فيها البرئ مع الجاني بل ان البرئ هو الذي ينال من العقاب أكثر
يا ينال الأثيم . - وتلك هي أفكار أبي الطيب المنتشرة في ديوانه من أمثال قوله
فاضل الناس أعراضا لذا الزمن يخلو من أخلاهم من الفطن
وقوله في موضع آخر

وحقد على الأيام كالنار في الحشا ولكنه حقد الأسير على القد
والدرجة الثالثة كما يقول ذلك التمامة هي فكرة الجلد الذي قال به أصحاب
الرواق من فلاسفة اليونان فقال ده فيني شبه قولهم وعاب كل من يظهر الجزع والالتم
والبكاء وهذا هو رأى أبي الطيب حين يقول -

..... ومن شر السلاح الأدمع

وإذا حصلت من السلاح على البكا فحشاك رعت به وخدك تقرع
يقول ده فيني عن المرأة انها الظفل المريض وانها ملوثة بالادناس المضاعنة وانها
خائنة غادرة الى غير ذلك من الصفات الممقوتة. وهذا أيضا رأى أبي الطيب في قوله
ومن خبير الغواني فالغواني ضياء في بواطنه ظلام

أو قوله

إذا غدرت حسناء وفّت بعهدها فمن عهدها ان لا يدوم لها عهد
والشاعران قد اتفقا على حب العزلة والحرب من شرور الناس وانفقا أيضا على
سوء الظن بهم

كان يجب - على رأى أصحابنا - ان تقول حبال هذه المواقفات الغريبة بين
الشاعرين بأن المتأخر قد أخذ عن المتقدم او سرق منه وتكون السرقة هنا أكبر

لأنها ليست في لفظ أو معنى بيت ولكنها في رأى بأكمله. ولكن الذين يعتقدون بأن « العقول الكبرى تتلاقى » كما يقول الفرنسيون يربطون بأنفسهم عن مثل هذه التهم وينظرون الى أفكار كل شاعر بأنها له ولو أنها تشابه أفكار غيره حتى ولو كانت هي بذاتها لأن توافق الخواطر واشتراك الناس في العواطف وغيرها مما لا سبيل الى أنكاره

في كتاب « الوساطة » للجرجاني فصل مستفيض في ما ادعى على أبي الطيب السرقة فيه (ص ١٦٧ - ٣٠٥) وهو بحث يشفي غلة طالب الأدب لما حواه من دقائق الاخذ والمقارنة بين المعاني المتقاربة . ولكنني بهذا الفصل أشهد لأبي الطيب بسعة الاطلاع وفضيلة الصبر على انتقاء المعاني والتقاطها من أشعار المتقدمين - از كان قد فعل ذلك عمداً - انظر الى أسماء الشعراء المختلفين الذين وردوا في هذا الفصل وأخذ منهم أبو الطيب معانيهم . ندع المشهورين جانباً من أمثال البحتري وأبي تمام والنايفة الذبياني والفرزدق والعباس بن الاحنف وأبي نواس وعنترة وغيرهم ونشير الى المجهولين أو الذين لا يعرفهم الا غواة الشعر : بكر النطاح ، محمد بن وهيب ، أحمد بن أبي قنن ، عروة بن عتبة الكلابي ، الجلاح ، عقيل بن غنلة ، عين بن مالك ، ابن المعتل ، شمعة ابن قايد ، الخز بن الدؤلى ، على بن الخليل ، علاقة بن عربي ، كعب بن الاجزم ، الابيرد ، ابن الناصر ، الخزبي ، الاعورالثني ، المؤرج ابن عمر ، الحادرة ، عنترة بن الاخرس ، سويد بن أبي كاهل ، ابو جويرية العبدي ، أبو جبلة ، هدبة بن حشرج ، الجاني ، أبو بكر العرزمي ، خداس بن زهير ، حمزة بن بيض ، الطرمي ، سالم ابن وابصة ، مزرد ، أسحق بن خلف الخ . . .

ان مدعى السرقة على أبي الطيب يجهلون بأمثلة يرى فيها الاستشهاد متكلفاً أو لا محل له بالمرّة : انظر بعض ما جاء في الوساطة « الطرمي في رطازاته (أى خرافاته)

ورأى مرفوع الى النجم كما قفأى الى صلي بنحيط بنحيط

(كما أى كأنما) - فبعه بعض الرطازين

ورأسي مرفوع اليه كأنما برأسي مسمار الى النجم موتد
 أبو الطيب وهو من فرائده
 بعيدة ما بين الجفون كأنما عقدتم أعالي كل هذب بحاجب» (١)
 مثال آخر - « دعبل :

هي النفس ما حسنته فمحسن لديها وما قبحته فقبيح
 أبو الطيب :

وما الخوف الا ما تخوفه الفتي وما الأمن إلا ما رآه القتي أمنا» (٢)
 فانظر الي أي حد يبالغ تغتيش الادباء عن أوجه الشبه بين معاني الشعراء. فخصوم
 أبي الطيب يريدون منه ان يقول ما لم يسبق اليه معني ولفظاً وأسلوباً
 وهذا على رضى الله عنه يقول : « لولا ان الكلام يعاد لنقد» (٣)

من أجل ذلك أرى ان الكلام في باب السرقة مما لا طائل تحته ، وسنرى في
 أسلوب أبي الطيب انه يأخذ المعاني المتداولة بين الجمهور وينفخ فيها من روحه ويكسوها
 ثوباً من عنده فتصبح أفكاراً جديدة تنسب اليه وينقلها الناس عنه ويستشهدون بها
 في كتاباتهم كأنها حكم وضعها أبو الطيب والحقيقة انها أفكار شائعة او كما يقول أهل
 الفقه ملك على الشيبوع . . . وأظنني بذلك قد أرضيت القسائين بالسرقة في شعر أبي
 الطيب ولكنني من جهة أخرى قد خالفتهم لأنني لا أرى لهمتهم التي يرمون بها أبا
 الطيب وجهاً يحط من قدر الرجل او ينقص من كرامته لأن الافكار والخواطر
 والالفاظ والمعاني قدر مشترك بين الناس . وما أصدق الشاعر الجاهلي عنزة العبسي
 حين يقول « هل غادر الشعراء من مترنم ؟ - وله الحق في هذا التساؤل لأنهم لم يتركوا
 له معني ينظمه - ولو فتشنا دواوين كل الشعراء وحققنا نسب كل قول قاله أحدهم لرأينا
 ان غالب ما ورد في شعره من المعاني قد ورد في شعر من تقدموه - وكما ان
 هذا القول يحكم به على الشعراء فكذلك يحكم به على الناثرين الا ان لكل ناظم أو ناثر
 طريقة وأسلوباً ومميزات قل ان تصادف عند غيره من أهل فنه ومنها تظهر شخصيته

(١) ص ٢٨٧ (٢) ص ٢٩٧ (٣) العمدة ص ٥٧ ج ١ باب المحدثين والقدماء

وتتجلى أسرار صنعته

نثر أبي الطيب

نثر المتنبي قليل . فلا يعرف له الا بعض قطع صغيرة وغالبها كانت محادثات نقلت عنه في ظروف مختلفة ولم يشهر عنه انه كان كاتباً ولا انه راسل او ناظر أحد من معاصريه الا ان ادعاء النبوة المنسوب اليه والقرآن المزعوم انه أنزل عليه مما يدعو الي الظن بأنه كتب في أيام صباه شيئاً من النثر على طريقة « العبر » التي سبق الكلام عليها في ترجمته ومثل هذا النثر محادثته مع اللاذقي ، ونثره مسجوع تكثر فيه المقابلات كما سنرى ذلك في مميزات شعره - وقد تقدمت تلك المحادثة في باب ادعاء النبوة وروى له ابن خلكان خطاباً كتبه لأحد أصحابه : وها هي الفقرة التي ذكرها ذلك المترجم الشهير : « ولما كان بمصر مرض وكان له صديق ينشأه في علته فلهذا أبلت انقطع عنه فكتب اليه « وصلني ، وصلك الله ، معتلاً ، وقطعتني مبلاً . فان رأيت ان لا تحبب العلة الي ولا تكدر الصحة علي فعات ان شاء الله تعالى »

من نثره أيضاً مخاطبته لأبي نصر محمد الجبلي التي أوردناها عند الكلام على مقتل المتنبي . وهي أشبهه بشيء بخطب الجاهليين فيها النعرة العربية او بعبارة أخرى الغرور الذي أدى الى هلاكه . وللشعراء والمتأدبين كلمات ، أثورة ولكني لم أعثر على شيء منها للمتنبي اللهم الا ما رواه صاحب الصبيح المنبي وهي كلمة موجزة ولكنها شعرية رقيقة : « حكي عبد العزيز بن يوسف الجرجاني وكان كاتب الانشاء عند عضد الدولة عظيم المنزلة منه قال لما دخل أبو الطيب المتنبي مجلس عضد الدولة وانصرف عنه أتبعه بعض جلسائه وقال له سله كيف شاهد مجلسنا وأين الامراء الذين لقيهم منا قال فامتثلت أمره وجاريت المتنبي في هذا الميدان وأطأت معه هذا القول فكان جوابه عن جميع ما سمعه . نى ان قل « ما خدمت عيناى قاي كاليوم » ولقد اختصر اللفظ وأطال المعنى وأجاد فيه وكان ذلك أوكد الأسباب التي حظى بها عند عضد الدولة (١)

الباب الرابع

تقسيم شعر أبي الطيب ودرسه

جزئيات الموضوع

- نظر المتقدمين في التقسيم - رأي خاص - شعر وجداني وشعروصفي وشعر حكيمى -
- (١) الشعر الوجداني : عموميات - (الغزل) - مواقف المتنبي فيه - حكمه وقواعده في العشق - تصوير العشاق - جمال المرأة - الكآبة والكبرياء (المرآني) - وجدان ضعيف - وصف وحكمه - خاتمة -
- (٢) الشعر الوصفي : (الطبيعة) - مناظرها - حيوانها - الالوان والاضواء - (الحرب) - لوقائع - الخيل - الحركة والتمقل في الموصوفات -
- (٣) الشعر الحكيمى : الشعر والحكمة - ما أخذته الفلاسفة - العبر والامثال - الفاظ المناطقة والفلاسفة - الحكمة العمياء - الاخلاق والنفوس - ضرب الامثال وطريقته - صغيفة الاتهام - الشكوى - خطته في الحياة - حالات النفس -

تقسيم شعره

اعتاد الأدباء والنقاد ان يقسموا شعره من يريدون ان يتكلموا عنه الى الابواب المعروفة التي تسمى فنون الشعر تلك الابواب التي كانت قائمة العدد في اول الامر حسب اقوال المتقدمين من اهل الأدب لا تخرج عن الوصف المديح والهجاء والفخر والتشبيب والثناء . وبعض من لم الكلمة المسموعة في الأدب يظنون ان الابواب الأصلية في الشعر أقل بكثير مما تقدم . وبعضهم يعد المديح والثناء باباً واحداً خلا ان الاول يقل في الأحياء والثاني في الاموات (١)

ولقد اشتقت من هذه الأصول فروع عدة . فكما تقدم الزمان ظهر باب جديد في الشعر لم يكن يعرف من قبل واجتهد النقاد في رده الى أحد الابواب الأصلية وامتشهدوا عليه بأقوال الجاهلدين . فزادت تقاسيم الشعر زيادة مستفيضة حتى عرفت أبواب جديدة تروبو بكثير على الانواع القديمة . فمن ذلك الاعتذار والعتاب والتهاني

(١) العمدة ١١٧ ج ٢

والخبريات والزهريات والمداعبات والوصايا والحكم والزهد الى غير ذلك من التقاسيم التي بني أساسها في الحقيقة على الغرض الذي قيل فيه الشعر - وهذا الاساس الذي اعتمده المتأخرون هو نفس الاساس الذي وضعه المتقدمون وهذا محض تقليد من أولئك فانهم اتبعوا رأى هؤلاء بلا تعريف ولا اجتهاد. فالأولون والآخرون ينظرون في التقسيم الى الغرض او بعبارة أخرى الى الحامل الذي بعث الشاعر على القول فان كان يريد ان يمدح سمى شعره مدحا وان كان يريد ان يذم سمى شعره هجاء. ويعيب هذه الطريقة في التقسيم انها غير ممدوحة وانها تغير بتغير الزمان وتزداد من آن الى آن كأنها دقت احصاء وانما كما يقول الاصوليون غير جامعة ولا مانعة

من أجل ذلك رأيت ان أقسم شعر أبي الطيب بحسب ما فهمته الى أقسام ثلاثة :
القسم الأول - أبحث فيه عن شعره الصميم او « الشعري » الذي أوجاه اليه شعوره وأملته عليه عواطفه . أقول العواطف بمعناها العام ولا أخوض في تقسيمها الى بسيطة ومعقدة فان المقام لا يفسح لهذا البحث - تلك العواطف قد يكون منها الأنانية وحب الذات ثم تترقي الى حب الأهل والاقربين والعشيرة والجنس فيصدر عنها الفخر وقد يكون منها الحب او توافق الشعور أو الانفعال الجنسي فيصدر عنها التشبيب والنسب والغزل والمداعبات بأنواعها بين عفيف ومبتذل مما يجمعها باب النسبيات وغزل الذكور عند المتأخرين وهو وصمة من وصمات الشعر العربي - على ان شاعرنا والحمد لله قد سلم من هذا العيب الممقوت - وقد يكون من تلك العواطف الحقد والكراهة والبغضاء فيصدر عنها الهجاء وقد تكون تلك العواطف مخنفة جامعة بين طرفي الحب والبغض فيصدر عنها الاعتذار وقد تكون حزنا وكآبة فيصدر عنها الرثاء والشكوى وغير ذلك

هذا القسم أولى به ان يسمى وحي الخاطر الى الخاطر او شعر الوجدان والعواطف أو حديث النفس لأن شعره نفساني محض تجرد فيه ترجمة ما تؤديه النفس الحساسة وهو ينم عن طبيعة تلك النفس وهو مقياس الحساسية فيها ولا يحتاج الى علم واسع ولا دراسة محققة ولا نظر دقيق ولا تفكر في الأمور مما يحتاج اليها أنواع أخرى من الشعر

هذا القسم هو لب الشعر وصميمه واليه تأوى الشاعر به وفيه تسكن ومنه تنبعث أسرار الشعراء وأحاديث قلوبهم وخفارات نفوسهم مما لا يحويه حصر ولا يقبده ضابط من خيالات وأحلام وتصورات وأوهام تأيها الآمال الضاحكة والاماني الخادعة والوساوس السوداء والآلام القاتلة

أما النفوس الجامدة التي لا تحس ولا تتأثر بالمؤثرات المختلفة فلا تستطيع أن تجود بالشعر الحقيقي أو « الشعرى » كما سميت ولكنها تعطينا شعراً من نوع آخر قد يكون فيه نوع من الحسن سنعرض له عما ذلل في بحثنا . وأما النفوس الحساسة فأنها قادرة على الاجادة في هذا الصنف من الشعر على ان تلك الحساسية قد تكون قوية في باب من الابواب وضعيفة أو معدومة بالمرّة في باب آخر . اضرب لذلك مثلا الشعراء الفرسان والشعراء العشاق فان الاولين قد تغلب فيهم عاطفة الغضب على مساواها بخلاف الآخرين فان حساسية أنفسهم قد وجهت الى الحب وانصرفت عن غيره من العواطف . فهذا عنتر العبيسي مثلاً لا يستطيع ان يعطينا في شعره « الغضبي » مثل ما أعطانا العباس بن الاحنف من شعره « الغرامي » ولا يستطيع هذا ان يرد مورد صاحبه فكلاهما ذو حساسية قوية ولكنها منصرفة عند كل منها الى جهة معينة

عرفنا من هذا ان حساسية النفس ركن لازم في الشعر ولكنها ليست الركن الوحيد اذ لا بد لها من شريك هو الخيال وهو مادة هذا الشعر كما ان الحساسية هي روحه فان لم يجتمع هذان الركنان ظهر الشعر ضعيفاً ذاوياً أو بدأ عليه شيء من السذاجة المذرية والحفارة التي تقضى عليه شر قضاء

أقول ان الشاعر لا يستطيع ان يكتبني بحديث نفسه ليهزل الناس شعراً خالداً تتداوله الامم والأجيال بل انه في حاجة كبرى الى مادة لا تنفذ . تلك المادة هي كل ما عدا الشاعر من وسط وأقوام وحوادث ومعلومات وغير ذلك فهذه المادة هي قوام الشعر وهي الكفيلة ببقائه ولذلك فهي كلما كثرت واستطاع الشاعر ان يستخدمها في شعره ولم يقطع الصلة بينها وبين نفسه كلما جادت عليه بالمبدع والمغرب وفتحت أمام عينيه أسراراً مكنونة وعرفته أنواعاً من الجمال لا تنفذ وكان شعره ضمن رواج

وأطول بقاء، وأفيد في المطالعة والمداورة وهذا الركن هو الذي يتطلب كثرة الاطلاع والاحاطة بمعلومات شتى من كل فن .

هذا القسم من الشعر كان لأبي الطيب فيه نصيب وافر كما سنرى بعد حيث نبين حساسيته النفسية وجهة انصرافها وقوة خياله التي استطاع بها ان يؤلف بين فنون مختلفة متنافرة . - أقول ان نصيب أبي الطيب في هذا القسم نصيب وافر في ذاته ولو انه قليل بالنسبة الى نصيبه من القسمين الآخرين

القسم الثاني - أبحث في هذا القسم عن شعر أبي الطيب « المادى » الذى لا دخل فيه لتأثر النفس وانفعالاتها .

هذا القسم يحوى ما يدركه الشاعر بنظره فيؤديه بقوله - وهذا هو باب الوصف الذى لا يجيد فيه الا من رزق استعداداً خاصاً في ادراك المبصرات فيرى في النظرة المعجلى صورة خارجية يجد لها من فورهِ ما يقابلها في خياله من الأمثال والنظائر فتتقاد له التشايب الغريبة يستخرجها من ذهنه بلا مشقة ولا عناء لأن الصورة الخارجية قد أدركها الشاعر في لحظة قصيرة وقد وجد لها أشباهها ونظائرها في خزائنه فما عليه الا ان يخرجها من ذهنه ويقابل بين الأصل والمثال فتجد الوصف صادقا شاملا لدقائق الموصوف وخصائصه مشفوعا بالتشاييب والصور التي تزيد في ايضاحه وتقريبه الى الافهام . على ان هذا الشعر لا يرتاح اليه النفس كثيراً وأحياناً تمل منه سريعاً لأنه لا يخاطبها الا عرضاً ولا يجادتها الا من بعيد فكأنها لا تسمعه الا من وراء حجاب .

قد يظن بعض الناس ان شعر الوصف في متناول كل من يطلبه فاذا جاء واصف بشئ بدع قالوا اتنا نستطيع ان نأتى بمثله فاذا عاجلوا هذا الصنف من الشعر لم يوفقوا الى الاجادة وذلك لأحد سببين : اما ان تكون أداة الادراك المبصرة غير سليمة وليس لها ذلك الاستعداد الفطرى من كثرة الملاحظة مع سرعة التأثر والانفعال للالوان والاضواء والاشكال والحركات وغير ذلك واما ان تكون مادتهم الخيالية ومجموعة ما في أذهانهم من الصور قاصرة على شئ ندر لا يكفي لتمثيل الموصوفات الخارجية .

كل المبصرين يرون السحاب والماء والشفق والجيش وأنواع الحيوان ومنظر الكون المختلفة وغير ذلك من المبصرات ولكنهم لا يدركونها كما يدركها الوصفون لأنهم في الغالب لا يكافون أنفسهم - ثم مشقة التدقيق فيها للوقوف على أسرار أشكالها وألوانها وحركاتها ولو حاولوا ذلك فانهم لا يصلون الى شيء يستحق الذكر لأنهم لم يخفقوا له ولم يرزقوا تلك الهبة النادرة.

ولست في حاجة الى الكلام على وصف مدركات الشم والذوق واللمس لعدم توفر شاعرنا على قسط منه ولكني سأعرض فيما بعد لنوع من الشعر ترتاح اليه الاذن وبالجملة فالشاعر الوصف مصور من هذه الوجهة محتاج لا محالة الى عين سليمة - بالمعنى الذي قدمته - لا بالمعنى الطبي بالطبع - ويحق لي في هذا المقام ان انبه على مغالطة بشار بن برد « الضمير » حين زعم من طريق الاستفهام الانكاري انه وصاف :

عجبت فطمة من نعتي لها هل يجيد النعت مكفوف البصر
بنت عشر وثلاث قسمت بين غصن وكثيب وقمر
أيها النوام هبوا وبحكم واسألوني اليوم ما طعم السهر
فهذا ليس من الوصف الحقيقي في شيء وانما هو نوع من الشعر الوجداني جاء فيه
الشاعر نعت مبهم غامض لا يخرج عن تشبيه مشهور يجري على كافة الألسنة .
فالوصاف لا بد وان يكون قد خلق مصوراً ولكن هذا الاستعداد لم يخرج الى
حيز الوجود وقبر في نفس الشاعر علي ان يظهر في الشعر كلما جاءت مناسبة تستدعيه .
ولأبي الطيب في هذا القسم الثاني من الشعر نصيب أوفر من نصيبه في القسم
الأول ولكنه يعدل نصيبه في القسم الثالث .

القسم الثالث - وهو الأخير وأبحث فيه عن الشعر الذي أملاه عليه عقله وتفكيره
فيما يتعلق بالحكم والتجارب وقواعد هداية النفس ومبادئ الحياة في هذه الدنيا وما
وراءها وأصول السياسة وطرق النقد والاصلاح وما شابه ذلك من الاغراض التي
يحتاج فيها القائل الى اجهاد منطقي وعناء فكري ، ذلك هو الشعر « الفلسفي »

وهذا القسم ليس في الحقيقة من باب الشعر بل ان بين الشعر الصميم
هاوية لا يسر غورها لأن أحدهما جد محض بطبيعته والآخر هزل محض بطبيعته .
ولكن القالب الشعري - ولا ينبغي ان نستهين بتأثير هذا القالب في النفس - هو
الذي رفع هذا الجهد الى منزلة الهزل أعنى انه روج الحكمة الخاملة الذكرا الخشنة للمس
المرّة المذاق وجعلها تسير مسير الشعر رشيقه خلافة أخاذة .
وفي هذا القسم كان لأبي الطيب النصيب الأوفر والقدح المملى قدراً ومقداراً
حتى عرفته الأجيال الماضية وستعرفه الاجيال المقبلة بأنه الشاعر الحكيم وقد يرجح
شعره في هذا القسم على مجموع ما قله شعراء عديدون عرفوا بالانكباب على هذا
الضرب من الشعر بين جاهليين واسلاميين ومخضرمين ومحدثين .
هذه هي الاقسام الثلاثة التي عرّضت على درس شعر أبي الطيب على مقتضاها
وبحسب ترتيبها -

القسم الأول

الشعر الصميم (الوجداني)

سمّ هذا القسم شعر العواطف والوجدان او حديث النفس الى النفس او وحي
الخواطر الى الخاطر او مهبط الشاعرية او الشعر الحساس او همه كما نشاء مادنا قد اتفقنا
على معناه وطبيعته ومصدره



الشاعرية

عرفنا مما تقدم في ترجمة أبي الطيب أنه طرق باب الشعر وتعالى هذه الصناعة
بعد ان تأدب وتعلم وتلقى اللغة من أفواه البدو والعارفين بها من أهل الحضر وبعد
ان تردد على أسواق الوراقين وانكب على الحفظ ليلاً ونهاراً وروى شعر ابن الرومي
واتخذ أبا تمام أماناً بخلاف الكثيرين ممن وصلوا الى التبريز في الشعر والابداع فيه سابقه
وسجية وفطرة دون ان يحفلوا بمناقشات النحويين او يكلفوا أنفسهم مشقة الاطلاع

على مباحثات البيانين وكان كثير منهم من الأعمىين الذين لا يقرؤون ولا يكتبون . فكان شعرهم أقرب الى السلامة وأبعد عن الغموض وأسلم من التعقيد وأولى باقبال الجمهور واستحسانه ذلك لأنه شعر أهله عليهم عواطفهم الحساسة ولم يتصدوا فيه الى تعمق في العلم او تفوق على نظراء مادتهم فقه اللغة او ما شا كلها . من أجل ذلك خلت أشعارهم من تلك الاشارات الخفية ورموز الاصطلاحات وغريب المنقول وشاذ اللغة الى غير ذلك من المسائل التي لا يفتن لها الا أهل الصناعة ويضطر السامع في تفهمها الى اعمال فكره واجهاد عقله .

وللعامة والاطفل والنساء أقوال يتفرق فيها ماء الشاعرية ولولا أنها ليست من البحور العربية وإنما غير خاضعة للقواعد النحوية لكانت من أرق الشعر وأروجه . تسمع في الطرقات والبيوت الى أنواع كثيرة من الغناء والانشيد وما ينقيه النساء في الجنائز من الاقوال المرجعة وغير المرجعة وما تترتم به الامهات في مداعبة أطفالهن فانك تسمع كلاماً يكون تارة منظوماً أو مسجوعاً وتارة غير موزون ولا مسجوع لو وفق شاعر ذو حساسية قوية لجمعه وتهذيبه لأخرج منه ديواناً حافلاً بالشعر الحقيقي أى شعر المواطن والوجدان

سئل حماد الراوية عن شعر عمر بن أبي ربيعة فقال: « ذلك الفستق المقشر » (١) هذا حكم عادل في حق ذلك الشاعر وأمثاله . لأن شعرهم لا يروى الا على سبيل النفسكة كما تتناول الفاكهة بعد الطعام وهو لا يغذى الفكر ولا يملأ المنخ ولا يجد فيه طاب الألب الا استراحة قليلة عقب المجهودات العقلية . نعم انه صنف واحد لذيد الطعم سهل التناول ولكنه لا يكفي لغذاء الروح المتشوقة الى المعرفة . ولو جاز لي ان أحكم على شعر أبي الطيب كما حكم حماد الراوية على شعر عمر بن أبي ربيعة لقلت انه « مائدة كاملة » وما أحق تلك المائدة بوصف السيد توفيق البكري في قنزجه (٢)

(١) ص ٤٩ ج ١ « رنات المثلث والمثنى في روايات الاغانى »

(٢) القنزج : البالو - أنظر صهاريج اللؤلؤ ص ٤٨

حيث ابتدأ إحدى فقراته بقوله «... مماط المعز في قاعة الذهب، وجفنة ابن جدهان في العرب» وانتهى منها بقوله «موائد لا يفنى ما عليها ولا ينفذ، كأنه نعيم أهل الجنة كلما فني تجدد».

واني أشبه الشاعرية - وهي تلك الحساسية النفسية وانفعال العواطف - برخامة الصوت في المغنين - فكما إن جمال الصوت وحده لا يكسب صاحبه درجة الاجادة في الغناء فكذلك لا تكفي الشاعرية وحدها للنبوغ في الشعر وبقاء ذكرى الشاعر على مدى الايام وتداول شعره بين الناس وتنقله بين الاصماع والافواه .

لو أردنا ان نعقد المقارنة في الشاعرية وحدها بين عمر بن أبي ربيعة والمنبي لرجحت كفة عمر على كفة أبي الطيب لأن الأول شاعر بلا وصف آخر - فجهده محصور في تنمية الشاعرية في نفسه واستخراج ما تخترعه له من الأبواب المشهورة عند الجمهور . أما أبو الطيب فليس كذلك لأن فكره مقسم بين مطالب شقي وأغراض عدة فهو على الدوام في حيرة بين شواذ النحو وغريب اللغة ومستغلق الاعراب ودخيل المهني الحكيمه والاساليب البيانية وتصوير الاخلاق وتحليل الحالات النفسية الى غير ذلك من المطالب والاغراض وهو وان ضعفت فيه الشاعرية وجمدت فيه الروح الحساسة الى حد معلوم لأنه لم ينقطع لها ولا أنه اشتغل بغيرها الا انه قد قوى في نفسه ملكات أخرى رجحت شعره في مجموعه على شعر كثير من الفحول الممدودين وضمنت له البقاء الى ما شاء الله -

أجل ان أمثال عمر بن أبي ربيعة قد أمرفوا في احتجاجهم داخل نفوسهم بحيث لا يرون غيرها مما في هذا الوجود . فالمطالع على شعرهم يمل هذا النوع الوحيد من القول فيزهده فيه سريعاً كأنه يسمع غناء موقفاً على نعمة واحدة ويحس من نفسه الاشتياق الى أنواع أخرى ينتقل بينها - فإدانة الخيال في هذا الشعر قليلة ومجاله ضيق واذا تكرر وقعه في النفس شعرت بخلوه من تنوع الفوائد المطلوبة : (١)

ومن هذا النوع شعر النساء في جملته . نعمة واحدة وصوت واحد مهما كثرت الشعر،

(١) راجع كتاب اميل فاجيه المتقدم ذكره (ص ٢٦٥ وما بعدها)

ومن هنا نظهر الحكمة - على ما أظن - في عدم تداول شعر النساء وبقائه على مدى الأيام مع ان شعرهن أعرق في الشعاعية من شعر الرجل وأقرب منها رحماً لامتيازهن بتلك الحساسية من جهة ، ومن جهة أخرى لأنهن ينهين في أنفسهن ملكة التخيل أكثر مما يربين قوة التفكير - وبالجملة فانهن خلتن شواعر .
وبهذا للدليل - الذي جاء عرضاً - أخالني قد أزات بعض ما عاق بأفكار أنصار المرأة من الشكوك والريب عن ظلم الرجل لها حتى في الشعر . لأن حجة هؤلاء المستنصرين للنساء ان الرجال قد افتاتوا على حقوق النساء وظلموهن أيما ظلم وأنكروا عليهن كل فضل حتى تفوقهن في الشعر ولم يروجوا شعرهن كما روجوا شعر الرجال .
والحق ان شعر النساء على ما فيه من الروح الرقيقة ليس فيه من قابلية الحياة والتزام ما في شعر الرجال - وقد وصفن الكتاب العزيز بقوله « أو من ينشأ في الحاية وهو في الخصام غير مبين » - والحياة كلها نزاحم ونسابق - وهن « قوارير » كما قال الرسول الامين وشعرهن من هذا النوع أيضاً . فاذا دخل شعرهن الى ميدان النزاحم مع شعر الرجال حق عليه قول بشار بن برد « قوارير حجّام غداً تتكسر » . - ولقد كان أبو الطيب أكثر الشعراء رجولة في شعره فلا عجب ان تغلب شعره الذكوري على أشعار المؤنثين

أما الحساسية الشعرية في اقوال أبي الطيب فما لا يستطعم أحد ممن ضربوا في هذا الفن بسهم ان ينكرها عليه - وانما غاية ما يقال انها لا تصادف كثيراً في شعره وهي في الغالب أيما وجدت زاحمتها الصنعة وكان للتفكير العقلي نصيب وافر بجانبها - فلا تظهر في الشعر تلك الروعة التي تؤثر دفعة واحدة في العواطف قبل ان يستتيعظ العقل وينكر وتفعل في القلب فعلها قبضاً وبسطاً حتى تدعه وهو كالعصفور يشب في قفصه حيران مضطرباً .

أجاد أبو الطيب في أبواب شتى من الشعر وانفرد بفنون قل ان يزاحمه فيها مزاحم ولكنه في باب الحساسية النفسية لا يستطيع ان يعطينا مثل ما أعطانا في الابواب الاخرى

والسبب في احتجاب الحساسية عن شاعرنا ونفورها منه ان المصادفات لم ترم به في
المواقف التي تبعث على ايقاظ هذه الروح حتى كاد طبعه ان يتحجر ولا يتقبل
التأثرات لكي يستطيع ان يؤديها في شعره بنفس القوة التي اندفعت بها الى قلبه -
ويظهر انه اعترف بهذا الجمود حين قال :

أصخرة أنا ؟ مالي لا تحركني هذى المدام ولا هذى الاغاريد ؟

هذه أشعاره في الغزل والرثاء مثلاً - والحساسية في هذين البابين أظهر فيهما من غيرهما -
فاننا لانجد روحه الشعرية أو عواطفه فيهما الا ضعيفة متكلفة والا نائرة مستعصية ولولا
قوة تفكير الشاعر واتقان صنعه ومهارته في التأليف لما بقي لكثير من أشعاره في هذين
الفنيز روتق ولا ديباجة - لانه حينما ينبغي أن يحدث العواطف تجده يخاطب العقل
المفكر فيغيب عنه الشعر الوجداني.

قد منا ان وجدانه لا يهيج الا في مواضع معلومة - ولكل شاعر ما يهيج به وجدانه -
قل عبد الملك بن مروان لأرطاء بن سمية دهل تقول الآن شعراً ؟ قل ما أشرب ،
ولا أطرب ، ولا أغضب ، ولست أقول الشعر الا بواحدة من هذه ، (١)

ان شاعرنا لا يتحرك للشراب ولا للغذاء ولا يكاد يعرف الحب ولا يحن الى
الاطوان المائية ولا يبكي على عزيز مضى ولكنه يعرف فنونا اخرى . انه كالوحش
الضارى اذا اثرت غضبه . فاغضبه ان شئت ثم انظر اليه كيف يجيد القول ، أحزته
بالحرمان ثم دعه يشعر ، أخبر عنه العطاء ثم استمع لشكواه ، عده الولاية وتناقل عنه
قليلاً ثم أتركه يذهب غيظاً على الزمن . ثم انظر اليه وقد تولته الكتابة واخذت عايه
جميع المسالك فيزهد في الدنيا ثم لا يابث ان يبرقه بريق الامل فيفيض في استعطافك ،
ثم يستريبك في وعدك فيصب عليك ثقاته صباً

وفي هذا الباب سأقتصر على الغزل والرثاء وسأشير في خلال البحث الى فنون
الشعر التي ظهر فيها وجدان أبي الطيب كلما جاءت المناسبة

(١) مجلة " أنس الجليس " ح ٦ سنة ٤ " ١٩٥١ " : الشعر العصري

الغزل (١)

بلاحظ علي مواقف الغزل في شعر المتنبي أربع ملاحظات :
الأولى ان غالب مواقفه مع النساء انما هي مواقف فراق وتوديع - الثانية ان

(١) ان شاعر الغزل او كل من يكتب في هذا الباب لا بد وان يفتات على الحياء بصورة ما - نعم ان حديث المهور بالنساء وذكر محاسنهن والأخذ والرد معهن وما يكون من اعتراضاتهن أو اعترافات الغير لهن وبالجملة كلما يسمي غزلاً سواء كان عفيفاً أو غير عفيف - كل ذلك يدعو الشاعر او السكاتب او الناقد لأن يتجرد عن نفسه الحمية ويخضع العذر كما يقولون
الا ان المتأدين يتكلمون في الغزل كما يتكلمون عن أي أمر عادي لادخل فيه للخلق يتكلمون عنه كما يتكلمون عن ثمن الملابس مثلاً وبتناقشون في المعنى الغزلي كما يتناقشون في نص فقهي سواء بسواء -

وليس شأن الغزلي هنا بأعجب من شأن الجراح مثلاً . ألا تراه يشمر عن ساعديه ويشق بمديته جثث الأموات وأجساد الأحياء لا ينهض له عرق من الخوف أو الاشفاق كأنه يعبت بما يتأبى به الناس - فهل تراد في موقفه دليلاً على ان عمله في ذاته ليس مما ينير العواطف ويوقع الرعب في القلوب .
أنظر اليه يوم انضم الي أهل هذه الصناعة وأخذ يتلقى فنونها . لقد كان مثل كل واحد من جمهور الناس اذا ألقى ببصره الى تلك المناظر الخفيفة لا يلبث ان تضطرب أحشائه فلا يسيغ طعاماً ولا شرباً مدة من الزمان ويرى الاحلام والرؤي المنزعجة في نومه ولكنه مع الزمن يطمئن شيئاً فشيئاً الى صناعته ويروض نفسه عليها قليلاً قليلاً فيعتادها بالتدريج بعد ان كان يأنف منها ويستثقل ظلها وينال منه الرعب كلما فكر فيها - فالعمل في ذاته مريع الا انه تعودت تخمدت نفسه بحكم العادة او بحكم الضرورة .

وكذلك الغزل فانه في ذاته مدعاة للخجل في أول أمره - أنظر الى المبتدئين في الأدب كيف يخفون في ثنايا ثيابهم ما يختارون من الاقوال الغزلية . فاذا فاجأهم وهم يتناقشونها بدا عليهم الاضطراب كأنهم يرتكبون جرماً . ولكنهم

تلك المواقف تصادف ساعات الرحيل - الثالثة ان رحيل تلك المحبوبات لا يكون الا
علي العيس كأنهن ينوين سفراً بعيداً الى ما وراء البيد والقفار - الرابعة ان هواه لا
يصيب الا امريات والبدويات - وقد يجمع أحياناً بين بعض هذه الحالات : - (١)
قد كنت تهزأ بالفراق مجازة ونجر ذبلي شرة وعرام.
ليس القباب على الركاب وانما هن الحياة ترحلت بسلام

كما زادوا في المدرس زادت فيهم الجرأة على الاقبال على مثل هذه المعاني
وتقليدها وابتكار ما يفوقها حتى ينالوا درجة الاجادة والاتقان .
أما أثر ذلك الفن في النفوس من وجهة الاخلاق فهو مما يجب ان أستأنس في
اثباته بأحكام ذوي الحكمة المسموعة في الادب .
- لا أضن ان امرأ القيس سمي بالملك « الضليل » الا من جراء هذا الفن .
وقد قيل عن شعر عمرو بن أبي ربيعة « ما دخل على العواتق في حبالهن شيء
أضر عليهن من شعر ابن أبي ربيعة - وقيل « لا ترووا فتياتكم شعر عمر ابن
أبي ربيعة لا بتورطوا في الزماتورطاً » وقيل عن شعر بشار بن برد « ما شيء
أدعى لأهل هذه المدينة الى الفسق من أشعار هذا الاعمى »
(١) أمثلة أخرى :

حشاشة نفس ودعت يوم ودعوا	فلم أدر أي الظاعنين أودع
أشاروا بتسليم فخذنا بأنفس	تسيل من الآماق والسم أدمع
(السم بمعنى الاسم)	
لما تقطعت الجمول تقطعت	نفسى أسي وكأنهن طلوح
وجلا الوداع عن الحبيب محاسناً	حسن العزاء وقد جلين قبيح
وتوقدت أنفاسنا حتى لقد	أشفقت تحترق العواذل بيننا
أفدي المودعة التي أودعتها	نظراً فرادي بين زفرات ثنا
في الخدان عرم الخليط رحيلا	مطر تزيد به الخدود محولا
يا نظرة نمت الرقاد وغادرت	في حد قلبي ما حيت فلولا

ولم أر كالأحاط يوم رحيلهم
أدرت عيوننا حائرات كأنها
عشية يعدونا عن النظر البكا
بعين بكل القتل في كل مشفق
مرجة أحداقها فوق زئبق
وعن لذة التوديع خوف التفرق
رعى الله عيسا فارقتنا وفوقها
بواد به ما باللوب كأنه
إذا سارت الأحداج فوق نباته
ومها كلها يولى مجننيه خده
وقد رحلوا جيد تائر عقده
تفاح مسك الغانيات ورنده
وحوال كأحداهن رمت بلوغها
ومن دونها غول الطاريق وبعده

سوائر ربما سارت هوادجها
وربما وخذت أيدي المطى بها
أظعن يا قلب مع من ظعن ؟
حبيبين ؟ اندب نفسى اذن !
ليالى بعد الظاعنين شكول
بين لى البدر الذي لا أريده
وما عشت من بعد الأجابة سلوة
وان رحيلنا واحداً حال بيننا
تنفست عن وفاء غير منصدع
ان كنت ظاعنة فان مدامعى
لقيننا والحمول سائرة
كل مهة كأن مقلتها
فيهن من تقطر السيوف دما
يا حادى غيرها واحسبنى
قما قليلا بها على فلا
فنى فؤاد المحب نار جوى
منبعة بين مطعون ومضروب
على نجيع من الفرسان مصبوب
طوال وليل العاشقين طويل
ويخفين بدرأ ما اليه وصول
ولكننى للنائبات حمول
وفي الموت من بعد الرحيل رحيل
يوم الرحيل وشعب غير ملتئم
تكفى مزادكم وتروى العيما
وهن در فذب أمواها
تقول اياكم واياها
إذا لسان المحب سماها
اوجد ميتا قبيل افقدتها
أقل من نظرة أزودها!
أحر نار الجحيم أربدها

ما أوجه الحضرة المستحسنة به كأوجه البدويات الرهايب
حسن الحضارة محبوب بتطرية وفي البداوة حسن غير محبوب

والمستعصى لما قدمت من الأمثلة لا يسهه الا ان يستنتج أحد فرضين : اما ان يكون الشاعر قد أراد بقوله هذا أن يعبر عن ذكرى حقيقة أثرت في نفسه أثراً بليغاً ولم تنزعها الايام من مخيلته، ولعلها ذكرى حادثة مهمة في حياة الشاعر، فهو كما أراد أن يشبب بالنساء، ثمت له تلك الحادثة فيصفها كما وقعت وكما رآها - هذا فرض مقبول، معقول الا ان الدليل النقلى التاريخى ينقصنا فلا نستطيع اثباته وترجيحه وغاية ما في الأمر انه جائز محتمل الصحة . . . الفرض الثاني ان تلك الأقوال متخيلة لا حقيقة لها وانما هي أثر ما بقي في نفس الشاعر من طبعه البدوى وما نقش في ذهنه من صور البيداء وما يقع في نواحيها - فاذا ما تخيل لم يتمثل أمام عينيه الا ما انطبع في ذاكرته من المناظر الاولى فأقواله انما تنم عن فطرته وطبعه وأميله وذوقه الاول وما اكتسبه في حياته الاولى ولو صح هذا الفرض لكان أبو الطيب بقى على غريزية البدوية على الرغم من تحضره ولم يزل متمسكا بمصيبة الفطرية للعربية والبداوة - هذا وانى لم أعتز في شعر المتنبي الاعلى امين من اسماء النساء وهما « جمل » و « ريانا » وكلاهما بدوى صميم لم يعرف أبو الطيب باللهو والمجون ولم يذكر له في تاريخه حوادث نسائية من أمثال

بالواخداث وحاديها زبى قرأ	يظل من وخذها في الخدر غشيانا
قد كنت أشفق من دمعى على بصري	فاليوم كل عزيز بعدكم هانا
عدوية بدوية من دونها	سلب النفوس ونار حرب توقد
هام الفؤاد باعرابية سكنت	بيتنا من القلب لم تمدد له طنبا
في مقلتي رشاً تديرهما	بدوية فتنت بها الحلل
من الجآذر في زي الاغارب	حمر الحلى والمطايا والجلابيب
لم زورة لك في الأعراب خافية	أدهي وقد رقدوا من زورة الذيب؛
أزورهم وسواد الليل يشفع لي	وانثنى وبياض الصبح يعزى بي

ما ذكر للشعراء العشاق والغزليين والكجانيين بل كانت حياته كلها من أولها الي آخرها سلسلة مجاهدات يرجو من ورأها ان يرضى مطامعه التي لاتقف عند حد . من أجل ذلك شغل عن النساء واللهو بهن بما هو أكبر وأشق كما أن حوادث الدهر وتقلبات الزمن - في نظره - قد أخذت عاياه المسالك ولم تترك له من نفسه ما يابي به نداء الحب اذا دعاه . وقد أصاب في الحكم على نفسه حين قال

لم يترك الدهر من قلبي ولا كبدى شيئا تميمه عين ولا جيد

فلا غرابة اذا ان رأى الناقد قلة شعر أبي الطيب في باب النسائيات بالنسبة لوفرتة في أبواب أخرى وكذلك روحه في الغزل فانها روح ضئيلة غير حساسة قليلة الانفعال ضئيلة بالشكوى والاعتراف لاتغضى الي الشعر بسرهما حتي كأن لاسرهما تغضى بالي أحد - والمطلع علي شعره لا يعثر فيه علي قدر كبير مما بعد في الحقيقة من صميم الحب ونبابه كلواعج العشق المبرحة والتعبير عن الوله الذي يستولى علي قلب المغرم فيسدد في وجهه الطرق ويضله ضلالا بعيداً : - وما أحكم أبا الطيب وأبعد نظره حين يقول نعر يضا بالحب المتصنع في شعر زملائه الذين يبدؤن قصائدهم بالغزل :

اذا كان مدح فالنسيب المقدم ! أكل فصيح قل شعراً متيم ؟

فالحقيقة ان شعر التميمين أثر في النفس من شعر الفصحاء وهما اجتمعا هؤلاء في اتقان الصنعة وهما تبسط اولئك في ابداء ما تكنه نفوسهم . - ولا عجب في ذلك فن لم يعرف تلك الحالات التي تنتاب الموهبين لا يستطيع أن يؤدبها وينقاها الي غيره . وقد ألم رجال الجدل والمناظرة عندنا بهذا المعنى في قولهم الموجز « فاقد الشيء لا يعطيه » قائمير مثلاً لا يعطيك غني والجاهل لا يعطيك هلم

أضف الي ما تقدم أن أبا الطيب سيء الظن بالنساء قد حكم عليهن احكاماً قاسية من أجل ذلك كان شعر أبي الطيب في النوع الذي أشرت اليه قليلاً لا يشفي الغلة فلا نطمع عند قراءة ديوانه أن تقع على شيء كبير من محادثة النساء أو مداعبتهم أو حكاية ما وقع له معهن الي غير ذلك مما تعثر على كثير منه في مثل أشعار امرئ القيس وعمر ابن أبي ربيعة وأبي نواس والعباس بن الاحنف ممن اذا ذكروا لا يخطر

بالبال الا وقتع الالهو وحوادث النساء وما شابههما - واتمه - أفصح المتنبي عن مكنون ضميره وكشف عن قلبه في مسألة النساء وحظه منهن فقال

وللخود هني ساعة ثم يذنا فلاة الى غير اللقاء تجاب

وغير فؤادي للغواني رميسة وغير بناني الزجاج ركاب

تركنا لا طرف القناكل شهوة فليس لنا الا بهن لعاب

انه لا يعرف كيف يحدث النساء محادثة العشاق المغرمين وانما تراه يخاطب المرأة

بشدة وعنف وغلظة وكبرياء فلا يقول كما قال جميل

لكل حديث بينهم بشاشة وكل قاتل عندهم شهيد

انظر اليه وقد ابتدأ قصيدته يخاطب عاذته قائلاً : « أيتها المجنونة .. أيتها الجاهلة الحمقاء .. »

كدعواك كل يدعي صحة العقل ومن ذا الذي يدري بما فيه من جهل ؟

فما هذا من خلق المجاملة مع النساء ولا من آداب المحادثة مع الجنس الذي لقبه

العصريون باللطيف . . . وقال في مطلع قصيدة أخرى يفضل الجياد على النساء

ألا كل ماشية الخيزلي فدى كل ماشية الهذلي

وفي قصيدة أخرى يدعو على الحسان بدل الدعاء لهن :

أيا خدد الله ورد الحدود وقد قدود الحسان القدود

وموضع الغرابة ان هذه الايات التي استشهد بها قد جاءت كلها في مطلع قصائده

وهو في هذا أشبه بالسوقة والرعاع الذين اذا تفا تها أو تمارحوا فيما بينهم تنابدوا

باللقاب وتراشقوا بالسباب وتبادلوا شتم الآباء ولعن الاجداد، هذا ان لم يتجاوز

تبسطهم ورفع الكلفة بينهم اطم الوجوه وصنع الاقنية كأنهم المعنيون بقول الشاعر القديم

« نحية بينهم ضرب وجيم »

وإذا أراد ابوالطيب أن يقلد الغزليين خرج الي غير المألوف وأخذت منه الصراحة

مأخذاً لا يتفق مع كرامة الحكماء أمثاله فذكرنا بحوالي امرئ القيس ومرضعاته - أظن

الى أقواله

أني على شغفي بما في خمرها لاعف عما في سراويلاتها

خف الله واستر ذا الجلال ببرقع إذا لحت حاضت في الخدور العواتق
يضمه المسك ضم المستهام به حتى تصير علي الاعكان أعكانا
عد واعدتها فخبذا تلف الصق ندي بثديها الناهد
أنأيته فدنا، أديته فنأي جمشته فنيا ، قبلته فأي
فمثل هذه الأقوال تتعدى حدود الغزل العفيف والنسب الظريف وان جاز ان
تدور مثل هذه الأفكار في خلد الانسان فان الحياء لا يسمح بخروجها من حيز
الهواجس النفسانية الى مجال التصريح والبيان (١)

انه لا يستطيع ان يقول للمرأة في التذلل اليها ما فله لسيف الدولة في مواطن
كثيرة - انظر اليه وهو يعتذر الى أميره وقد استبطأ مدحه وتنكر لذلك
أرى ذلك القرب صار ازوارا وصار طويل السلام اختصارا
تركتني اليوم في خجلة أموت مراراً وأحيا مرارا
أسارقك اللحظ مستحياً وأزجر في الخيل مهري سرارا
وأعلم أني اذا ما اعتذرت اليك أراد اعتذاري اعتذارا

(١) على أن بعض أهل الأدب عندنا بقرون هذه الاباحة ويرون أن
الكاتب أو الشاعر في حل من الاعتراف بكل ما توحيه اليه نفسه ويرخصون له
بإبداء كل ما يخطر له من الأفكار لاسيما اذا كانت وصفا للحقيقة غير مبالغين بما
تهتكه هذه الحقيقة المصورة من ستر الحياء . - هذا مبدأ (الرياليسم) عند
كتاب الغربيين . - أما جمهور المتأدين في كل بلاد الارض مها اختلفت
السننم والوانهم فانهم يأخذون على الشعراء والادباء خروجهم على الفضائل بهذا
الضرب من البيان ويكتفون في باب اللهو والنسائيات وما شابه ذلك بالتلميح
دون التصريح لان الأديب الماهر لا يتعذر عليه أن يؤدي بلفظ ظريف أي
معنى يندى له جبين العفة

يا أعدل الناس الا في معاملي فيك الخصام وأنت الخصم والحكم
وقد استطاع ان يقول لكافور ، لعبد الأسود ، الخنثي ، الأمة ، الحبلي ،
المشوه الخالئة ، المشقق الاقدام كما يدعى :

أنت الحبيب والكفى أعوذ به . من ان أكون محباً غير محبوب

يارجاء العيون في كل أرض لم يكن غير ان أراك رجائي
ولقد أفنت المناوز خيالي قبل ن نلتقي وزادى ومأني

وما أنا بالبغى على الحب رشوة ضعيف هوى يبغى عليه ثواب

إذا نلت منك الود فالمل هين وكل الذي فوق السراب تراب

وما كنت لولا أنت الا مهاجراً له كل يوم بلدة وصحاب

ولكنك الدنيا التي حبية فما عنك لي الا اليك ذهاب

فالذي يجيد مثل هذه الاجادة في التقرب الى الرجال واستعطافهم لا يتعذر عليه
ان ينسج على نفس المذوال في استمالة النساء . وانكن وقد عرفنا شأنه معهن وأمله فيهن
وانصرافه عنهن فقد أدركنا سر قصوره في باب الغزل . - ان موقفه مع المرأة موقف
متصنع كاذب . فتواده غير مشغول بخوف ولا أمل ، ولا كبده حرى من هجر ولا
قلى . - أما موقفه من سيف الدولة - أو كافور - حبال قطيعته اياه وغض طرفه عنها فهو
الحقيقة التي لا يستطيع أبو الطيب ان يهرب من أمامها وهي التي أخذت من نفسه
كل مأخذ وتحكمت في شعوره ووخزت ضميره وخزاً أليماً حتى رأى نفسه . وكأنه على
حافة الهاوية فاما الحياة ان استرجع مكانته عنده أميره واما الموت ان قصر في مهنته .
ذلك هو الموقف الذي يجيد فيه الشاعر المحب وهو بين الخوف والرجاء يتنازعه اليأس
والأمل وأبو الطيب لم يعرف مثل هذا الموقف مع النساء ولكنه عرفه في طلب الدنيا
وهو يجاهد في سبيل احرازها

شعر أبي الطيب في الغزل وملحقاته على العموم لا يكاد يخرج - الا القليل منه -

عن الاحوال الثلاثة الآتية :

الضرب الأول : - ان أبا الطيب حكيم يضع نفسه موضع المرشد الواعظ في كل ظروف الحياة - فنراه هنا أيضاً يخطط قواعد العشق ويرسم تعاريفه ويبدى الملاحظات التي تمن له عن المحبين وله في ذلك قسط كبير - واليك بعضاً مما قل وهي حسنات محسوبة له

وما العشق الا غرة وطهارة يعرض قلب نفسه فيصاب

وما صباية مشتاق على أمل من اللقاء كشتاق بلا أمل

ياعاذل العاشقين دع فذة أضلها الله كيف ترشدها ؟

عذل العواذل حول قاب التائه وهوى الاحبة منه في سودائه

لا تعذل المشتاق في أشواقه حتى تكون حشك في أحشائه

ان القنبل مفرجا بدموعه مثل القنبل مفرجا بدمائه

زيدى أذي مهجتي ازدك هوى فأجهل الناس عاشق حاقد

تذلل لها واخضع على القرب والنوى فما عاشق من لا يذل ويخضع

وعذات أهل العشق حتى ذنته فعجبت كيف يموت من لا يعسق

وعذرتهم وعرفت ذنبي انى عيرتهم فلقيت منه ما اتقوا

الحب ما منع الكلام الا لسانا وأذ شكوى عاشق ما أعلنها

لهو آونة تمر كأنها قبل يرودها حبيب راحل

مما أضر بأهل العشق انهم هروا وما عرفوا الدنيا ولا فطنوا

تفني عيونهم دما وأنفسهم في أثر كل قبيح وجهه حسن

الضرب الثانى : - انه يصف العشاق والمشوقين ويصور أحوالهم وما يعرض

لهم تصويراً دقيقاً فهو في هذا النوع مصور الاشكال المحسة والحالات الإنسانية التي

يدركها الفكر

لعبت بمشيته الشمول . وغادرت صنما من الاصنام لولا الروح
ما باله لاحظته فتضرجت وجناته وفؤادي المجروح ؟
ورمي ويا رمتا . يدها فصابتني سهم يعذب والسهم تريح
وجلا الوداع عن الحبيب محاسنا حسن العزاء وقد جاين قبيح
فيد مسامة وطرف شاخص وحشا يذوب ومدمع مسفوح -
وصف أعراض العشق من سقم ونحول وسهر فأجاد وأحسن قل في النحول
شيئا كثيراً كاه غرر ودرر

حلت دون المزار قال يوم لوزر ت ل حال النحول دون العناق
أراك ظننت السلك جسمي فمقته عليك بدر من لقاء الترائب
ولو قلم ألقيت في شق رأسه من السقم ما غيرت من خط كاتب
دون التعانق ناحلين كشكلكي نصب أدقهما وضم الشاكل

أبلي الهوى أسفا يوم النوى بدني وفرق الهجر بين الجفن والومن
روح تردد في مثل الخلال اذا أطارت الريح عنه الثوب لم يبين (١)
كفي بجسمي نحولا اني رجل لولا مخاطبتي ايك لم نرني
وشكيني فقد السقام لأنه قد كان لما كان لي أعضاء

وخيال جسم لم يخل له الهوى لما فينحله السقام ولا دما
وفي السهد وطول الليل :

بئس الليالي سهدت من طرب شوقا الي من يبيت يرقدها
أحييتها والدموع تنجدني شئونها والظلام ينجدها

(١) وفي رواية أخرى «روح تردد في مثل الخيال» ومن هذا الرأي
الشعراني خادم المتنبي وأبو الفضل العروضي

كان الجفون على مقلتي ثياب شققن علي كل
بعيدة ما بين الجفون كأنما عقدتم أعالي كل جنن بحاجب
الضرب الثالث :- وصف جمال المرأة

نشرت ثلاث ذوائب من شعرها في ليلة فارت ليالي أربعا
واستقيبات قمر السماء بوجهها فارتني القمرين في وقت معا

حسان الثني ينقش الوشي مثله اذا مس في أجسامهن النواعم
ويبسمن عن درتقلدن مثله كأن التراقي وشحت بالباسم

كأن العيس كانت فرق جفني مناخات فلما سرن سالاً (١)
لبسن الوشي لا متجملات وانكن كي يهنن به الجمالا
وضفرن الغدائر لا لحسن ولكن خفن في الشعر الضلالا

تشكو المطاعم طول هجرتها وصدودها . فمن الذي تصل ؟
ما أسارت في القعب من لبن تركته وهو المسك والصل

من كل أحور في أنيابه شنب خمر يخامرها مسك تخامره
نهج محاجره ، دعج نواظره حمر غفائره ، سود غدائره
أعازني سقم عينيه وحماني من الهوي ثقل ما تحوى ما آزره

ومع ما تقدم فان لأبي الطيب حسنة في الغزل الصميم جامعة لصنوف الحسن
يلم فيها بأغراض مختلفة و ينتقل من معني الى معني تنقل الفراش الجميل من الزهرة
الى الزهرة يقتطف ماها ويحجتي عبيرها - ففي الامثلة الآتية نراه يصف المحبوبة
ويشكو اليها ويداعبها ويذكر ما يقاسى من ألم التوديع ومرارة البعد وطول الليل الي
غير ذلك من الاغراض - أنظر الي قوله

(١) سال أي الدمع - سرن أو ثرن

يا طفلة الكف عبلة الساعد على البعير المقلد الواحد
زيدى أذى مهجتي ازدك هوى فأجهل الناس عاشق حاقد
حكيت بالليل شعرها الوارد فاحك نواها لجفني الساهد
طال بكائي علي تذكرها وطلت حتي كلاهما واحد
ما بال هذى النجوم حائرة وكأنها البهي ما لها قائد

أحيا؟ وأيسر ما قاسيت ما قتلاً والحب جار على قباي وما عدلاً
والوجد يقوى كما تقوى النوى أبداً والصبر ينحل في جسمى كما نحلاً
لولا مفارقة الاحباب ما وجدت لها المنايا الي ارواحنا سبلاً
بما بجفنيك من سحر صلى دنفا يهوى الحياة وأمان صدت فلا

فما أمر برسم ما أسائله ولا بذات خمار لا تريق دمي
تنفست عن وفاء غير منصدع يوم الرحيل وشعب غير ملتئم
قبلها ودهوعى مزج أدمعها وقبلتني على خوف فمأ لغم
فدقت ماء حياة من مقباها لو صاب تراباً لحيي سالف الامم
ترنو الي بعين الظبي مجهشة وتمسح الطال فوق الورد بالغم
رويد حكمت فينا غير منصفة بالناس كلهم أفديك من حكم !

ويلاحظ على شعر أبي الطيب في مجموعته روح الحزن والكآبة والافراط في البكاء
وذكر الفراق والرحيل وشدة السقم والنحول : آمال مقطوعة وآلام موصولة فهو غزل
لا تطير به النفس فرحاً كغزل ابن الاحنف وأضرابه - وغزل شاعرنا يشبه لما فيه من
رنة الامى والأتين غزل من جنوا بالفراق كالمجنون العامرى وأمثاله . -

ويلاحظ عليه أيضاً شئ من الجفوة والعنف او الكبرياء والفطرسية من أمثال قوله
اليك! فأنى لست ممن اذا اتقى عضاض الافاعي نام فوق العقارب!

او التلميح الي انه هو الذي تسمى النساء اليه - وهو في هذا الضرب من القول أشبه
بعمربن أبي ربيعة - وقد عاب صاحب العمدة هذه الطريقة في الغزل . يقول شاعرنا

يترشفن من في رشفات هن فيه أحلى من التوحيد
نضبي من - الادلال سكرى من العصبى شفت إليها من شبابي بريق
شنب معسول الثنيات واضح سترت في عنه فقبل مفرقي
شامية طالما خلوت بها تبصر في ناظري محياها
فقبلت ناظري تغالطنى وانما قبلت به فاها
وله بعض العذر في ذلك لأنه قال من قبل « وما كنت ممن يدخل العشق قلبه »

رائي

رائي أبو الطيب طول حياته عشرة أشخاص منهم جدته لأمه - ولهذا الإشارة
نده سأذكرها بعد - أما التسعة الباقون فهم محمد بن اسحق التوخى ووالدة سيف
دولة وابنه واختاه وعمده وأبو وائل الحمداني أحد أقرباء سيف الدولة وأبو شجاع
تلك وعمه عضد الدولة . ويباغ مجموع ما قاله في الرثاء اربعمائة بيت وثمانية أبيات
أما الحكم علي مراثيه فيجب أن نبقية الى ما بعد حتى نستوفى الملاحظات الآتية
ان قصائد أبي الطيب لا يستدل عليها من عناوينها لأنه لا يقيد نفسه بموضوع
أحد في قصيدة واحدة فانك تجد في قصائد مدحه ما هو أحق بالانتساب الى الهجاء
نال ذلك قوله : « أحق عاف بدمعك الهمم » في مطلع قصيدة مدح وقوله في البيت
رائي من قصيدة أخرى في المدح أيضا

ودهر ناسه ناس صغار وان كانت لهم جثث ضخام
وما أنا منهمو بالعيش فيهم ولكن معدن الذهب الرغام
أو قوله في مدح ابي المنتصر الازدى وقد انتقل بلا مناسبة من الغزل الى ما هو
شبه بخطب وعاظ المساجد :

ابني ايننا نحن اهل منازل ابدأ غراب البين فيها ينق -
نبيكي على الدنيا وما من معشر جمعهم الدنيا فلم يتفرقوا

الى آخر الايات التي تلاحظ أنها ليست في مكانها وانما غريبة عن موطنها
وكانها تنفر من أخواتها ولا تستطيع ان تساكنها

مثل الايات المتقدمة الزم بالمرائي ولكنها وجدت في غير موضعها وكذلك نجد
في مرثية ما ينبغي أن ينفي منها الى مواضع أخرى

يقصد من الرثاء أغراض شتى أهمها وأظهرها التفجع على المفقود ولا سيما اذا
كان زوجا او ولدا او اخا للمرائي او من ذرى قرابته او صديقا قد توثقت بينهما عروة
المحبة ففي مثل هذه الاحوال نجد الرثاء صادرا عن وجدان متأثر وتجد الشاعر لا هم له
الا ان يمر عما ناله من الألم وما دهمه من المصائب لعقد عزيزه فيخيل اليك وانت
تقرأ شعره او تسمعه كأنك مع الشاعر تنظر الى عينيه تقبض منها العبرات والى صدره
يصد الزفرات وتلمس قلبه يتألم وتدمع منه الاين القاتل وتتطلع من حديثه قدر
الخطب النازل به فتعلم لم اليقين انه صادق في قوله صادق في وده قد نزلت به نازلة
حقا وانه غير مأجور على شعره ولا مخادع في بكائه

مثل هذا الرثاء لا نعتز عليه كثيرا في شعر المتنبي لأن حزنه على من رثاهم لم يباين
به هذا المبلغ وان كان الحزن قد ناله احيانا فان شدة شاعرنا وعتوه وجفوة طبعه تحول
بينه وبين هذا المطلب الذي لا يصل اليه الا ذوو العواطف الرقيقة والطباع الحساسة
الذين يقولون مدفوعون من أنفسهم بألم الفاجعة لانما يقول هو مدفوعا بأمل النوال
والطمع في العطاء

انه لا يستطيع ان يعطينا في مرثية مثل ما اعطت الخنساء مثلا في أخبها صنة
لان وجدان المرأة قد بلغ من قابلية التأثير ما لم يباينه وجدان الرجل خصوصا في الحزن
فلا مطامع لشاعران يبلغ في الرثاء مبلغ النساء فهذا امتياز قد خصصن به في كل الازمان
وفي كل البلدان . - أقول ان أبا الطيب لا يستطيع ان يعطينا مثل مرثية الخنساء
ولا مثل مرثية شاعرة الامس في مصر المرحومة عائشة تيمور فهذه الشاعرة قد تركت
لغة العربية قصيدة في رثاء ابنتها لا أظن ان شاعرا من الفحول قد وفق الى الاتي
بمثلها ولا احسب ان رجلا يستطيع ان يقول ما قالته هي على لسان ابنتها العروس

أماه ! قد عز اللقاء . وفي غد سترين نعشى كالعروس يسير
قولى لب اللحد رقفاً بابنقى جاءت عروساً ساقها التقدير
صوفى جهاز العرس تذكراً فلى قد كان منه الى الزفاف سرور
أماه ! لا تنسى بحق بنوتى قبرى لثلاً يحزن المقبور
ولكنى أقول ان كل امرأة عاجت الشعر وأصيبت في أملها العزيز كما أصيبت
التيهورية تستطيع ان تعطينا مثل هذا الرثاء

اذن فلا نطمع في العثورة على شعر وجدانى مثل هذا في ديوان أبى الطيب ذلك
الرجل الذى أعطى الرجولة فوق ما ينبغى حتى نسب الى غاظ القلب وجفاء الطبع
فاذا كنا لا نجد في مرثى أبى الطيب شعراً وجدانياً فماذا الذى نجد فيها؟ وعلى أى
نوع من القول تقع اذا تصفحنا هذا القسم من شعره ؟

نصادف اولاً شعراً وصفياً ، وثانياً شعراً حكيمياً ، وثالثاً شعراً وجدانياً ولكن في غير
الحزن ثم بعد ذلك نمر على شعر وجدانى قبيل يعد حقيقة من الرثاء

النوع الاول - الشعر الوصفي : انظر الى الايات الآتية في رثاء التبوخي

ما كنت أحسب قبل دفنك في الثرى أن الكواكب في السراب تغور
ما كنت آمل قبيل نعشك أن أرى رضوى على أيدى الرجال تسير
خرجوا به واكلك باك خافه صعقات موسى يوم ذلك الطور
والشمس في كبد السماء مريضة والارض واجفة تكاد تمور
وحفيف أجنحة الملائك حوله وعيون أهل اللاذقية صور
حق أتوا جدثاً كأن ضربحه في قنب كل موحد محفور (١)

(١) وفي رثاء أم سيف الدولة

حصان مثل ماء المزن فيه كتوم السرصادقة المقال
مشى الامراء حوليها حفاة كأن المرو من زف الرئال
وأبرزت الخسدور مخبات يضعن النفس أمكنة الغوالى
اتهن المصيبة غافلات فدمع الحزن في دمع الدلال

هل تظن أن هذه الابيات تفعل في نفس السامع مثل ما تفعل أبيات عائشة التيمورية ؟ كلا . فان ابيات هذه الشاعرة قل أن يسمعها انسان الا ويبدد الدمع من جنونه اما ابيات أبي الطيب فانها تصور لسامعها جلال المرثي وهيبه جنازته وحالة الناس حولها وعظم الحادث في نفسه ومكانة العقيد عند قومه كل ذلك بصورة تدعو الى الانفعال ولكن انفعال الاجلال والاعظام لا انفعال الحزن والبكاء وأظن ان بعض الناس تصيبه هزة الاشرار من جلال هذا المقام ويتمني لو أنه ينال مثل ما نال هذا المرثي كما قل ذلك العاني الجبار في المصلوب الذي قبلت فيه قصيدة د علو في الحياة وفي المات »

النوع الثاني - الشعر الحكيم : مرثي أبي الطيب غاصقة بالحكم والخطرات السديدة والنظرات الصادقة وقد بقيت حافظة لانضرتها لم تقبر مع الموتى الذين قبلت بمناسبة موتهم بل بقيت لأنها بقيت في معنى حي لا يموت بل يتجدد كل يوم . فما أجمل تصويره للحياة والدنيا في مرثية يماك عبد سيف الدولة

ولو كان النساء كمن فقدنا لفضلت النساء على الرجال
فما التأنيت لاسم الشمس عيب ولا التذكير نحر للهِلال
وفي رثاء ابن سيف الدولة وهو وليد لم يفطم بعد
ترسكت خدود الغايات وفوقها دموع تذيب الحسن في الاعين النجل
بنفسى وليد عاد من بعد حمله الي بطن ام لا تطرق بالحمل
بدا وله عهد السحابة بالروي وصد وفينا غلة البلد المحل
وقد مدت الخيل العتاق عيونها الى وقت تبديل الركاب من النعل
وريع له جيش العدو وما مشى وجاشت له الحرب الضروس وما تغلى
ومثلك لا يبكي على قدر سنه ولكن على قدر الخيلة والاصل
الست من القوم الاولي من رماحهم نداهم ومن قتلاهم مهجة البخل
بمولودهم صمت اللسان كغيره ولكن في أعطافه منق الفضل
تسليمو علياؤهم عن مصابهم ويشغلهم كسب الثناء عن الشغل

وقد فارق الناس الأجابة قبلنا وأعبي دواء الموت كل طيب
سبقنا الى الدنيا فلو عاش أهاها مُنعنا بها من جيئة وذهوب
تملكها الآتي تلك سأل وفارقها الماضي فراق صليب
وفيها من الحكم المتفرقة مثل قوله
وما كل وجه أبيض ببارك ولا كل جنن ضيق بنجيب
كأن الردي عاد على كل ماجد اذا لم يعوذ مجده بعيوب
فرب كئيب ليس تندى جفونه ورب ندى الجفن غير كئيب (١)
وتجد في آخر مرثية أخت سيف الدولة الكبرى وفي مرثية عمه سيف الدولة افكاراً
متفرقة هي ما يسميه بعض الناس « فلسفة الموت » اما اشعاره في رباع أبي شعجاع
فان فيها آياتاً مكفولاً لها البقاء الى ما شاء الله (٢)

(١) ومن مرثية والده سيف الدولة

نعد المشرفية والعواني وتقتلنا المنون بلا قتال
وزتبسط السوابق مقربات وما ينجين من خب الليالي
ومن لم يعشق الدنيا قديماً؟ ولكن لاسبيل الى الوصال
نصيبك في حياتك من حبيب نصيبك في منامك من خيال
يدفن بعضنا بعضاً ويمشى أو اخرنا على هام الاوالي
وكم عين مقبلة النواحي كحيل بالجنادل والرمال
ومن مرثية أخت سيف الدولة الصغرى

ولذيذ الحياة أنف في النفس وأشهي من أن يمل وأحلى
وإذا الشيخ قال « اف ! » فمام ل حياة ولكن الضعف ملا

آلة العيش صحة وشباب فاذا وليا عن المرء ولى
أبدأ تترد ما تهب الدنيا فيا ليت جودها كان بخلا!

(٢) تصفوا الحياة لجاهل أو غافل عما مضى فيها وما يتوقع
ولمن يغالط في الحقائق نفسه ويسومها طلب المحال فتطمع
أين الذي اهرمان من بنيانه؟ ما قومه؟ ما يومه؟ ما المصرع؟

النوع الثالث - افعال وجداني غير الحزن : نري ابا الطيب هنا متأثر الوجدان ولكنه على غير المعهود في مقام الرثاء فهو لا يحزن ولا يبكي وانما يتميز غيظا ويهدد ويتوعد ويمترض على الايام وفعلها ويحقد على الزمن ونصرفاته . كنت اظن أنه في رثاء جدته يقول شعراً مبكياً او ينوح قليلا على هذه الامم الراحلة التي ماتت شوقا اليه وتفصيل الحادثة كما جاء في ديوانه أنه ورد على ابي الطيب كتاب من جدته تشكو شوقها اليه وطول غيبته عنها فتوجه نحو العراق فلم يمكنه دخول الكوفة على حالته تلك فانحدر الي بغداد وكانت جدته قد يمست منه فكتب اليها كتابا يسألها المسير اليه فقبّاب كتابه وحمّت لوقتها سروراً به وغلب الفرح على قلبها فقتلها

واذا كان في القصيدة بعض الشيء مما يناسب الرثاء فان معظمها خارج عن الموضوع ولو أنه جميل في ذاته وهو افعال غصبي متشعبة به القصيدة من أولها الى آخرها من ذلك قوله

هيبيني أخذت اثار فيك من العدى	فكيف بأخذى اثار فيك من الحى ؟
ولو لم تكوني بنت اكرم والد	لكان ابك الضخم كونك لى اماً
من لذي يوم الشامتين بيومها	لقد ولدت مني لانفهم رغماً
يقولون لى ما أنت في كل بلدة ؟	وما تبغى ؟ ما أبغى جلّ أن يسمى
كان بذيهم عالمون بأبني	جلوب اليهم من معادنه اليما
وانى لمن قوم كان نفوسهم	بها أنف أن تسكن اللحم والعظما

تتخلف الآثار عن أصحابها حيا ويدركها الفناء فتتبع ومنها في قصيدة اخري

ولم تزل قلة الانصاف قاطعة	بين الرجال ولو كانوا ذوى رحم
هوت على بصر عاشق منظره	فانما يقظات العين كالحلم
ولا تشك الى خلق فتشمته	شكوي الجريح الى الغربان والرخم
وكن على حذر للناس تستره	ولا يفرك منهم ثغر مبتسم
غاض الوفاء . فما تلقاه من عدة ؟	وأعود الصدق في الاخبار والقسم

وكذلك رثاؤه في أبي شجاع أحب أهل مصر إليه فإنه يخرج فيه من مقام الرثاء
المهيب إلى التعريض بكافور والغض من قدره وبعث على الدهر لأنه قضى على فاتك
بالموت وترك كافوراً يتنفس نسيم الدنيا ثم انهال على كافور بالنسب الموجه والهجاء المقذع
قبحا لوجهك يا زمان ! فإنه وجه له من كل قبح برقع
أيموت مثل أبي شجاع فأك وبعيش حاسده الخصى الاوكم ؟
أيد مقطعة حوالى رأسه وقفاً يصبح به الا من يصنع !
ابقب اكدب . كاذب ابقية - وأخذت أصدق من يقول وبسم
وتركت أنتن ربيعة مذمومة . وسابت أطيب ربيعة تتضوع

الرثاء الوجداني الحقيقي : ان ما قدمناه من الامثلة يعد من حسنات أبي الطيب
ولكنه ليس من الرثاء الوجداني - بالمعنى الذي بينته - على أن له أقوالاً جيدة في هذا
الموضوع تتجلى فيها رقة نفسه وقوة وجدانه ولكنها قليلة بالنسبة لمراثيه الكبيره . - قل
في رثاء أخت سيف الدولة الكبرى

غدوت ياموت ! كم أفنيت من عدد
وكم صعبت أخاها في منارلة ؟
أرى العراق طويل الليل مذنبت
يظن أنت فؤادى غير ملتهب
بلى ! وحرمة من كانت مراعية
فليت طامة الشمسين غائبة !
وايت عين التي آب النهار بها -
قد كان كل حجاب دون رؤيتها
ولا رأيت عيون الانس تدركها
يا أحسن الصبر زر أولى القلوب بها
وفي رثاء فاتك

واقعد أراك وما تلم لهمة
الا نفاها عنك قلب أصم

ويد كأن نوالها وقتالها
يا من يبدل كل يوم حلة
مازلت تخلعها على من شاءها
ما زلت تدفع كل أمر فادح
فظالمت تنظر لارماحك شرع
بأبي الوحيد وجيشه متكاثر
وإذا حصلت من السلاح على البكا
وصات إليك يدسواء عندها البازي
من المحافل والجحافل والسرى؟
ومن اتخذت على الضيوف خايفة؟
فرض يحق عليك وهو تبرع
أني رضيت بحلة لا تنزع؟
حتى لبست اليوم ما لا تخلع
حتى أتى الأمر الذي لا يدفع
فبما عراك ولا سيوفك قطع
يبكى ومن شر السلاح الأدمع
فخشاك رعت به وخذك تفرع
الاشيهب والغراب الأبقع
فقدت بفقدك نيرا لا يطام
ضاعوا ومثلك لا يكاد يطيم

خاتمة

قد رأينا شعر المتنبي في البابين المهمين من الشعر الوجداني وهما الغزل والرثاء. وتحققنا انه لا يعطيهم ما يستحقان من الانفعال الوجداني وخرجنا من درس هذين البابين بحكم لا نظنه الا عادلا وهو ان أبا الطيب مفكر، مصور قد رزق استعداداً شعرياً لا نزاع فيه، فالتفكير يغاب عليه في كل أقواله وكذا الوصف اما وجدانه فلا يستطيع الا في مواضع قليلة أهمها الغضب فتجد حقه صادقا وهجاءه متينا ونيله من أعراض الناس وحطه من قدر خصومه مما يشهد له بأنه متأثر الوجدان حقا وكذلك الخافه في السؤال وتذله عند الاقتضاء

الشعر الوجداني كثير عند المتقدمين والكنه قليل عند المتأخرين، ولا ينبغي ان نعيب المتأخر على هذا النقص كما لا ينبغي ان يفخر المتقدم بتوفر هذا الفضل لديه. فالقدماء ينظمون الشعر وهم مدفوعون اليه بوجدانهم ولم يكن الشعر قد دخل سوق التجارة ولم يكن الشعراء قد طرقتوا باب التكسب بالشعر. فاذا بكوا فعن حزن، واذا

ثنوا فمن شيكر ، واذا شذبوا فمن غرام ، واذا هجوا فمن غضب ، الى غير ذلك . أما المحدثون فهم أصحاب فن يؤجرون عليه عند الحاجة : يقولون للغير لا لأنفسهم ، فانفعالاتهم متصنعة ووجدانهم مكروه على التأثر ، وقل فيهم من ينظم الشعر في خصوصيات حياته . الا ان المتأخر قد استعاض عن الوجدان بالصناعة على اختلاف أنواعها . وقد تدرجت الصناعة في الدخول الى شعر المتأخرين حتى سادت على كل ما عداها من الاغراض . ونظمت القصائد لا لشيء الا للبديع الصناعي . فالفرق الظاهر بين الشعر القديم والشعر الحديث هو ان الاول وجداني في جملته واثاني صناعي في جملته . ولا فضل للأول ولا عيب على الثاني . لأن الظاهرة هنا طبيعية قد أوجدتها ظروف الأحوال . ولو راجعنا شعر المتأخرين الذين كتبوا ونظموا لأنفسهم متأثرين بوجدانهم مدفوعين بعواطفهم ولم يكونوا من المأجورين على شعرهم لرأينا الروح الشعرية الحقيقية ولصادفنا الوجدان المتأثر في أجلى مظاهره . هذه مرآة المتأخرين في أبنائهم أو أهلهم أو اخوانهم فانها لا تقل من حيث الوجدان عن مرآة الجاهليين بل انها تفوقها لعدوثة ألفاظها وسهولة تراكيبها . ومرثية التهامي في ولده من خير ما يستشهد به في هذا المقام . من ذا الذي يستطيع ان يثير وجدان الشاعر اذا كان ذلك الوجدان ميتاً لا حراك به ؟ كيف يلام الشاعر لأنه لم يبك على شخص لا يعرفه بل اضطر الى رثائه اضطراراً أو حباً في نوال ؟ الرثاء المأجور هو الذي يظهر فيه التصنع أكثر من غيره من فنون الشعر . الا أن الشاعر الماهر الذي لا يريد ان يظهر في شعره مثل هذا العيب يترك الشعر الوجداني جانبا ويقصد نوعاً آخر من الشعر . لأنه ليس مضطراً في الرثاء لأن يتفجع على الراحل ويكي عليه بل أمامه مادة للقول لا تنفذ أهمها حديث العقل بالتنبيه الى الحقائق التي لا ريب فيها من فناء الانسان ، وغرور الحياة ، وزوال هذه الظلال الكاذبة ، وخداع الاماني ، ثم الدعوة بعد ذلك الى التجميل بالصبر والخضوع للقضاء والاستسلام للقدرة النافذة أحكامها في العباد . هذه أغراض مختلفة يجدها الشاعر متى شاء تحمى شعره من دخول التكلف المحقوت والتأثر المتصنع . وهذا مادعا الشعراء المأجورين الى طرق أبواب التفكير المنطقي ، على ما أظن ، وتقل الشعر من حال

التخييلات السطحية الى الفلسفة العميقة

ويخيل الى ان التكلف الوجداني والصناعة اللفظية والتفكير الدقيق على طريقة المناطق هي التي أزالها باجتماعها روعة الشعر النفسية وجماله أشبه شئ به بالتحقيق وزهدت عشاق الشعر الحقيقي في نظم الشعراء الذين ينظمون مهنة وصناعة وجعلت ابن رشيق وأمثاله يفضلون شعر الكتاب والقضاة لأنهم يشعرون لأنفسهم كلما جاش الشعر في صدورهم - وعن الوزير ابن مقلة « يعجبني من يقول الشعر تأد لا تكسبا » - ولو كان لي ان اقول « يعجبني » كما يقول زعماء الادب لقلت يعجبني شعر الصوفية من كافة الملل والنحل لأنهم بوجدانهم يعيشون

وقبل الانتهاء من هذا القسم يحسن بنا ان نجيب ببعض الأمثلة على خيال أبي الطيب وتخييلاته - قال

بمشوا الرعب في قلوب الأعدى فكان القتال قبل التلاقي
وتكاد الضابي لما عودوها تنفخى نفسها الى الأعناق

ألم ير هذا الليل عينيك رؤيق فظهر فيه رقة ونحول
كان الهام في الهيجا عيون وقد طبعت سيوفك من رقاد
وقد صبغت الأسنة من هموم فما يخطرن الا في فؤاد

وقفت وما في الموت شك لواقف كأنك في جفن الردى وهونائم
نمر بك الأبطال كلى هزيمة ووجهك وضاح وثغرك باسم

ألقت اليك دماء الروم طاعتها فلو دعوت بلا ضرب أجاب دم
يسابق الموت فيهم ككل حادثة فما يصيبهم موت ولا هرم

خير أعضائنا الرؤوس ولكن فضلتها بقصدك الأقدام
قد لعري أقصرت عنك أولوف - - - ازدحام وللمطايا ازدحام
خفت ان صرت في يمينك ان تأخذني في هباتك الأقدام

وقال في الحمى :

وزائرتي كأن بها حياءً فليس تزور الا في الظلام
بذات لها المطارف والمشايأ فماقتها وباتت في عظامي
يصبق الجلد عن نفسي وعنأ فتوسعه بأنواع السقام
إذا ما فارقتني غسّلتني كأننا عاكفان على حرام
كأن الصبح يطردها فتجري مدامعها بأربعة سجام
أراقب وقتها من غير شوق مراقبة المشوق المستهام
ويصدق وعدّها والصدق شر إذا أقمناك في الكرب العظام

أست ترى من هذه الامثلة انه راقى الخيال دقيق التصور بعيد المرى فيه الى حد جعل أكثر العقاد يعيبون عليه بعض التشايبه لأنه قدبالغ في التخيل وخرج عن المهورد .

ومما يلاحظ على أبي الطيب انه قليل الفكاهة في شعره على الرغم من شيوع السخرية والطنز في العصر العباسي . فهو لم يجهد خياله الا في تصوير الجد منصرفاً عن تلك الفكاهات التي تروح النفس من آن الى آن .

الا ان هناك مسألة جذيرة بالالتفات في شعره وهي زيادة الخروج على الحياء في الهجاء والتعريض بالناس .. بالطبع لا ينظر من الشاعر الذي ينظم في الهجاء ان يمجّد خصمه او أن يذكره بالخير وانما المتوقع ان يعطيه من القول ما يؤلم نفسه ويخرج عواطفه ويحط من قدره بين الناس الى غير ذلك من الموجعات المعنوية . وهذه الغاية يوصل اليها من طريق التصريح المخجل الذي اتبعه أبو الطيب في غالب الأحيان وعد من سيئاته كما يوصل اليه من طريق التلميح والاشارات . وهذا النوع الأخير قليل في شعر أبي الطيب الا أنه ليس معدوماً منه بالرة . فنجد له بعض قطع فيها تهكم ظريف ما كان أولى أبا الطيب أن يحتذبه في كل هجائه مثل ذلك قوله وقد بلغه وهو بدمشق ان اسحق بن كيناف يتوعده من بلاد الروم

أتاني كلام الجاهل ابن كيناف محبوب حزوناً بيننا وسهولاً

ولو لم يكن بين ابن صفراء حائل . وبينى سوى رمحي لكن طويلا
واسحاق مأمون على من أهانه . ولكن تسلى بالبكاء قليلا
وليس جميلا عرضه فيصونه . وليس جميلا أن يكون جميلا
ويكذب . ما أذلاته بهجائه . لقد كان من قبل الهجاء ذليلا
والبيت الأخير على الأخص غاية في الأيلام والايجاج غير انه لا يشير الى
السوات والعورات التي تعودها شاعرنا في هجائه . مثل ذلك قوله في هجاء بني كلاب
أرادت كلاب ان تفوز بدولة! لمن تركت رعي الشويبات والابل؟
مثال آخر . قوله في احدى قصائده يصف أمير الروم عند ما غلبه سيف الدولة فالتجأ
الى الدير يتعبد فيه وترك الحروب والغارات
فأصبح يجتاب المسوح مخافة . وقد كان يجتاب الدلاص المسردا
ويمشي به العكاز في الدير تثبا . وما كان يرضى مشى اشقر اجردا
مثال آخر . قل في رجلين قتلا جرذا وبرزاه يعجبان الناس من كبره . كأنما قتلا أسدا
لقد أصبح الجرذ المستغير . أسير المنايا صريع العطب
رماه الكنانى والعامرى . وتلاه لاوجه فعل العرب
كلا الرجلين انلى قتله . فايكما غل حر السلب؟
وايكما كان من خلفه؟ فان به عضة في الذنب!
فبعد البيت الأخير لا بد من ابتسامة ولو صغيرة تبدو على شفهي كل سامع

القسم الثاني

الشعر الوصفي

باب الوصف يتناول أبحاثا عديدة أهمها ما يختص بمظاهر الطبيعة . - وقد جاء
من هذا النوع شيء كثير في شعر أبي الطيب ولا أبالغ اذا قلت ان المتنبي ان لم يكن
أكبر واصف للطبيعة في شعراء العرب فإنه بلا شك من مقدميهم - الممتازين قدراً
ومقداراً . - والنوع الثاني من الوصف الذي أجاد فيه أبو الطيب هو وصف المعارك
وما يتعلق بها

وانى لاحظ ان هذين النوعين من الوصف يجيئان أحياناً كثيرة مختلطين في شعر المتنبي فاذا وصف معركة مثلاً وجدته يصور حالة الجو والضوء والالوان والاصوات وهيئة المكان وغير ذلك مما يتناول وصف الطبيعة ثم يصور المعركة في الكر والفر ويصف أدواتها وفعل رجالها. وانى مقتصر على هذين النوعين لأن فيهما الكفاية وزيادة

وصف الطبيعة

ان أول ما يخطر بالبال عند ذكر الطبيعة انما هي تلك المناظر الكبرى التي لم يكن ليد الانسان فعل في ايجادها كالجبال والصحارى والبحار والأنهار او المناظر التي كان ليد الانسان فعل في تسميتها او ابداعها كالرياض والنبات والحدائق والمزارع والبحيرات وما شاكل ذلك

وفي هذه المناظر مادة لا تنفذ لمن يريد الوصف. على أن الوصافين لا يستطيعون في الغالب ان يجيدوا في كل هذه الفروع او لا يحاولون ان يستقصوها بل يقتصرون على ما يميل اليه فطرياً او يقع عليه نظرم فمنهم من تأخذ بلبه مناظر البحار الهائلة المضطربة او الصحارى القفرة الموحشة او الجبال القحطلة الجرداء ومنهم من يعشق الرياض الغناء او بحارى الأنهار او ضفاف البحيرات وذلك يختلف باختلاف منشأ الشاعر الوصاف وسليقته وشعوره الى غير ذلك من الظروف التي تؤثر في نفس الشاعر وتؤثر في شعره

أما أبو الطيب فانه غزير المادة في أنواع كثيرة من الوصف الطبيعي (١) كما قدمت. وأول ما يلفت نظر المطلع على شعره ذكر القفار وذلك ليس بمستغرب لأن الشاعر يصف الوسط الاول الذي عرفه في حياته. هذا وانه لا يصفه مع كراهة له وانه يذكره وهو متشوق اليه وقد أكثر حنينه في شعره الى تلك المفاوز والصحارى والجبال يقول في صفة نفسه

(١) النسبة الى طبيعة طبيعي، حسب القياس: كمدني نسبة الى مدينة

أنا ابن الفيافي، أنا ابن القوافي أنا ابن السروج، أنا ابن الرعان (١)

ذرائي والفلاة بلا دليل ووجهي والهجير بلا اثم
فاني أسترج بذي وهذا وأتعب بالاناخة والمقام

وفي وصف جبل

وشامخ من الجبال أقود فرد كأفوخ البعير الأصيل

يسار من مضيقه والجبل في مثل متن المسد المعقد

ونلاحظ أيضاً أن وصف الصحاري غير مطول ولكنه « مختصر مفيد » كذوله

في مثل ظهر الجنب متصل بمثل بطن الجنب قرددها

ويجئ ذكر النوق والابل والجمال « سفن البيداء » عند ذكر القفار :

كم مهد قذف قلب الدليل به قلب المحب قضاني بعد ما مطلا

عقدت بالنجم طرفي في مفاوزه وحروجهي ببحر الشمس اذ أفلا

أوطأت صم حصاها خف يعملة تغشمت بي اليك السهل والجبالا

لو كنت حشوق قبضي فوق نرقها سمعت للجنب في غيظانها زجلا (٢)

وله وصف قصير يذكر به دخوله مصر

لقيت المروري والشناخيب دونه وجبت هجيراً ينرك الماء صاديا (٣)

وفي قصيدة أخرى يذكر النيل والمقطم وآثار مسيره في البيداء

فلولم تكن في مصر ماسرت نحوها بقلب المشوق المستهام المتيم

ولا نبحت خيلي كلاب قبائل كأن بها في الليل حملات ديلم

ولا أتبع آثارنا عين قائف فلم تر الا حافراً فوق منسم

ومما بها البيداء حتى تغمرت من النيل واستذرت بظل المقطم

وذكر القفر يثير في النفس ذكرى الاطلال والرسوم وهي كثيرة في شعر أبي الطيب

(١) الرعان أنف الجبل (٢) يعملة نلقة قوية. تغشمت قطعت (٣) المروري

والشناخيب : القفار ورؤوس الجبال

وكل هذه الاوصاف تدخل ضمن ما يسميه أدباء الاجانب « الطبيعة الميتة »
قال أبو الطيب على ذكر الطلول أشعاراً كثيرة أذكر منها الآيات الآتية وفيها
وصف الصحراء والجمال

قف علي الدمنتين بالدو من ريباً كخال في وجنة جنب خال
بطلول كأنهن نجوم - في عراض كأنهن اقبال
وتؤى كأنهن عليهن خدام خرص بسوق خدال
نحن ركب ملجن في زى ناس فوق طير لها شخوص الجال
من بنات الجديل تمشى بنا في البيد مشى الايام في الآجال
كل هوجاء للدياميم فيها أثر النار في سايط الذبال (١)
أما المناظر الطبيعية الأخرى التي أجاد فيها أبو الطيب فمنها وصف بحيرة طبرية
وتلاطم أمواجها .. وشعب بوان وما فيه من الاشجار والاطيار واني أنقل شيئاً من
هاتين القطعتين اثباتاً لما اشتملنا عليه من حسن التنسيق وجمال الترتيب
وصف بحيرة طبرية

لولاك لم أترك البحيرة. والغور دفء وماؤها شيم
والموج مثل الفحول مزبدة تهدر فيها وما بها قطم
والطير فوق الحباب تحسبها فرسان باق نخونها العجم
كأنها والرياح تضربها جيشاً وغى : هازم ومنهزم
كأنها في نهارها قر حف به من جنانها ظلم
تغذت الطير في جوانبها وجادت الارض حولها الدم
فهي كماوية مطوقة جرد عنها غشاؤها الأدم
يشينها جريها على بلد تشينه الادعياء والقزم (٢)

(١) ملجن : سن الجن - الجديل فحل كريم تنسب اليه الابل هوجاء : ناقه
- دياميم : مفاوز لاماء فيها - سليط : زيت - الذبال جمع ذبالة : فتيلة
(٢) شيم : بارد - ماوية : مرآة - القزم : اللثام

وصف شعب بوزان (في شيراز - يعدّ في جنان الدنيا)

مغاني الشعب طيباً في المغاني
ولكن القتي العربي فيها
ملاعب جنة لو سار فيها
طببت فرساننا وانخيل حتي
عدونا تنفض الاغصان فيها
فسرت وقد حجبت الحرّ غنى
والقى الشرق منها في ثيابي
لها ثمر تشير اليك منه
وأمواء تصل بها حصاها
اذا غنى الحمام الورق فيها
ومن بالشعب أحوج من حمام
بمنزلة الربيع من الزمان
غريب الوجه واليد واللسان
سايمان لسار بترجمان
خشيت وان كرم من الحران
على أعرافها مثل الجمان
وجئت من الضياء بما كفاني
دنانيراً تفر من البنان
بأشربة وقفن بلا أوان
صليل الحلى في أيدي الغواني
أجابته أغاني القيان
اذا غنى وناح الى البيان؟

يتناول وصف الطبيعة وصف حيواناتها وقد جاء في شعر أبي الطيب شيء كثير
في نعت الظباء وكلاب الصيد وله وصف مشهور للأسد أما الخيل فانا ندعها لوصف
الحرب ومعداتها ونذكر هنا فقراً في أوصافه في الحيوان

وصف ظبي

بعد ان وصف المكان وهو مكان لا يحمله الانس وانما يحمله الوحش جاء بوصف
غزال يرعى فقال

عن لنا فيه مراعى مغزل
أغناه حسن الجيد عن لبس الحلي
محبين النفس بعيد الموثل
وعادة العربي عن التفضل
كأنه مضمخ بصندل
معرضاً بمثل قرن الأيل

وتبع ذلك بوصف كلب الصيد وهو الآتي بعد

وصف كلب الصيد

هو وصف طويل مفصل لا يكتبني بأوله عن آخره ولا بآخره عن أوله أذكر

هنا فقرأ منه إشارة الى دقة الوصف وصدق النظر

مؤجّد الفقرة رخو المفصل - له اذا أدبر لحظ المقبل
كأنما ينظر من سجنجل - يقى جلوس البدوى المصطلى
يكاد في الوثب من التفتل - يجمع بين متنه والكلكل
وبين أعلاه وبين الأسفل - ذى ذنب أجرد غير أعزل (١)
يخط في الارض حساب الجمّل -

ثم صور حاله حين انقضاضه علي فريسته فقال

حتى اذا قيل له نلت افعل - افتر عن مذروبة كالأ نصل
لا تعرف العهد بصقل الصيقل - مركبات في العذاب المنزل
كأنها من سرعة من شمال - كأنها من ثقل في يذبل
كأنها في سمعة في هوجل - كأنه من علمه بالمقتل
عام بقراط فصاد الا كحل - الخ (٢)

وصف الأسد

في وحدة الرهبات الا أنه - لا يعرف التحريم والتحليلا
يطأ الثرى مترقفاً من تيهه - فكانه آمن تجس عليه لا
ويرد عنفرته الى يافوخه - حتى تصير لرأسه اكليلا

عند ما اهتم أدباء الغرب بالكتاب والشعراء الوصافين لقبوهم بالمصورين ونظروا
لى أقوالهم كما ينظرون الى الألواح التي رسمها أولئك فجعلوا منهم مصوري الألوان
كما جعلوا منهم مصوري الأضواء (٣) وبهذه المناسبة أقول ان واضعي البلاغة عندنا
نداهتوا بالألوان وجعلوا لها فصلاً خاصاً في البديع سموه « التدييج » الا أن

(١) سجنجل : مرآة - المن والكلكل : الظهر والصدر

(٢) مذروبة : اسنان - يذبل : اسم جبل - هوجل : فلاة

(٣) Luminariste - Coloriste

« التدييج » عندنا لم يقصد به استخدام الألوان على الإطلاق بلا شرط ولا قيد وإنما هو نوع من الطباق أو المقابلة بين ألفاظ الألوان كقول الشاعر:

تردي ثياب الموت حمراً فما أتى لها الليل الا وهي من سندس خضر
ولكن وضع هذه القاعدة منذ عشرة قرون يدلنا على أن الألوان تأثيراً كبيراً

في النفس ومن أجل ذلك قد خصها البديعون بعنايتهم وجعلوا لها تسمية تميزها . ولو كانت حركة التفكير والتأليف قد استمرت كما كانت عليه في عصر شباب الدول الإسلامية لرأينا أسماء أخرى توافق ما نحن بصدده الآن .

ان ووصاف الطبيعة من الكتاب والشعراء لا يجردون في بعض الأوقات لفظاً من بين ألفاظ الألوان يؤدي ما يريدون فيبتدعون أسماء من عندهم يستهينون بها من مسميات أخرى . وقد أعجب الفرنسيون يوم جاء كانبهم الوصاف « برناردان ده سان بيير »^(١) باختراع جديد فقال « لون الصدف ولون المرجان » . ويحق لنا ان نعجب بقول شاعرنا أبي الطيب :

فتسار من أخضر ممطور ندر كأنه بدء عذار الأورد

فان لون « عذار الأورد » أحق بالأغراب من « لون الصدف ولون المرجان » -

حتى دخلنا الجنة لو أن ساكنها مخلد

خضراء حمراء التراب كأنها في خد أغيد

فان التشبيه بلون « خد الاغيد » مما لا يوفق اليه الا ذو الباصرة الحساسة التي تتأثر بالألوان وتعرف مواضع الاثيان بها حيث يكون لها الروعة في نفس السامع . بقي على ان أجيئ ببعض الامثلة . قال

ويوم وصلناه بليل كأنما على أفتقه من برقه حلال حمر

وليل وصلناه بيوم كأنما على متنه من دجنه حلال خضر

تخدي الركاب بنا بيضاً مشافرها خضراً فراسنها في الرغل وألنم

(١) Bernardin de Saint - Pierre

مكرومة بسياط القوم نضربها عن منبت العشب نبغى منبت المكرم

فأتتك دامية الأظل كأنك حذيت قوائها العقيق الأحمر

وفي الأضواء :

وقد سار في مسراك منها رسوله فما سار الا فوق هام مفلق

فلما دنا أخفى عليه مكانه شعاع الحديد البارق المتألق

ووصف الشر الذي يتناثر تحت أقدام مطاياها كلما قدحت الحمى :

إذا الليل واراننا أرتنا خفافها بقدرح الخصى مالا تربينا المشاعل

إذا صرف النهار الضوء عنهم دجا ليلان ليل والغبار

وان جنح الظلام انجاب عنهم أضواء المشرفية والنهار

والباعت الجيش قد غالت عجاجته ضوء النهار فصار الظهر كالطفل

الجو أضيق ما لاقاه ساطعها ومقلة الشمس فيها أحيى المقل

ينال أبعد منها وهي ناظرة فما تقابله الا علي وجل

وفي الأصوات والأضواء :

تمر عليه الشمس وهي ضعيفة تطامه من بين ريش القشاعم

إذا ضوءها لاقى من الطير فرجة تدور فوق البيض مثل الدراهم

ويخفي عنك الرعد والبرق فوقه من اللمع في حافاته والهمام

ويشبه البيت الثاني قوله في وصف شعب بوان

وألقى الشرق منها في ثيابي دنائيراً تفر من البنان

وصف الحرب

عند الغربيين يلحق الكتاب بالشعر الوصفي أنواعا كثيرة من الشعر او بعبارة

أخرى يدخلون الشعر الوصفي ضمن فنون مختلفة يجمعها اسم شامل هو الشعر التعليمي

الذي يحوى الشعر القصصى والروايات الحربية وغير ذلك . ولهذا رأيت ان أضم الى

باب الوصف في شعر أبي الطيب شيئاً مما حكاه عن الوقائع الحربية التي حضرها بنفسه
أورويت له ونظمها في أشعاره . ولا ينبغي أن نطالبه في هذا النوع من الشعر بما
نطالبه به في أنواع أخرى فهو بالطبع مضطرب لأن يذكر لنا كثيراً من أسماء البلاد
والمواقع مما يمل سريعاً مثل قصيدته المقصورة التي حكي فيها خروجه من مصر حتى
وصل إلى الكوفة : حكي موقعة من مواقع سيف الدولة فقال

وما هي الا خطرة عرضت له (بحران) لبتها قنا ونصول
هام اذا ما هم أمضى همومه بأرعن وطئ الموت فيه ثقيل
وخيل براها الركن في كل بلدة اذا عرست فيها فليس ثقيل
فلم تجلي من (دلوك) و (صنجة) علت كل طود راية ورعيل
فما شعروا حتى رأوها مغيرة قباحا وأما خلقها فجميل
سحائب يطرن الحديد عليهم فكل مكان السيوف غسيل
وأسمى السبايا ينتحبن (بعرقة) كأن جيوب الثا كلات ذبول
تسايرها النيران في كل منزل به القوم صرعى والديار طلول
وكرت فمرت في دماء (ملاطية) (ملاطية) أم للبنين ثكول
وأضعفن ما كانته من (قباقب) فأضحى كأن الماء فيه عليل
ورعن بنا قلب (الفرات) كأنما تخر عليه بالرجال سويل
يطارد فيه موجه كل سابع سواء عليه غمرة ومسيل

ووصف ثغر الحدث واحاطة الروم به وما جرى بين الروم وسيف الدولة
قصدا هدم سورها فنوه وأتوا كي يقصروه فطالا
واستجروا مكايده الحرب حتى تركوا لها عليهم وبالا
(رب أمر أتاك لا تحمد النعمال) فيه ونحمد الأفعالا
نزلوا في مصارع عرفوها يتدبون الاعمال والأخوالا
تحمل الريح بينهم شعر الهام وتذري عليهم الأوصالا
بسط الرعب في اليمن يمينا فتولوا وفي الشمال شمالا

ينفض الروح أيدياً ليس تدري
ووجوها أخافها منك وجهه
(واذا ما خلا الجبان بأرض
ان دون التي على الدرب والأح
غضب الدهر والملوك عابها
فهي تمشي مشى العروس اختيالاً
وحماها بكل مطرد الاكب
وظبي تعرف الحرام من الحل
في خميس من الأسود بثيس
(من أطاق التماس شئ غلاباً
أسبوقاً حمان ام اغلال
تركت حسنها له والجمالا
طلب الطعن وحده والنزالا
دب والنهر مخطا مزيالا
فبناها في وجنة الدهر خالا
وتثنى على الزمان دلالة
جور الأيام والأوجالا
قد أفنت الدماء حلالة
يفترس النفوس والأموالا
واغتصاباً لم ياتمه سؤالا

قد يصيب النفس شئ من الملل عند سماع شعر الحروب والغارات ولكن أبا
الطيب يخفف من غضاضة هذا الشعر بما يدخله عليه من آن الى آن من بالغ حكمه
وجميل صناعاته

وصف أدوات الحرب : قال في وصف السيف :

سله الرقص بعد وهن بنجد
ويتض مسافرة لا يقمن
يقدر الفناء غداة اللقاء
وأطلع بيضا كالشموس معلقة
فتصدى للغيث أهل الحجاز
لا في الرقاب ولا في الغمود
الى كل جيش كثير العديد
لهن وهامات الرجال مغارب
يشكو يمينك والجماجم تشهد
من غمده وكأتمها هو مغمد
لجري من المهجات بحر من بد
الا وشفرته على يدها يد

وصف الرماح

تبيت رماحه فوق الهوادي وقد ضرب العجاج لها رواقا
تليل كأن في الأبطال خيراً علان بها اصطباحتها واغنياقا
قواض مواض نسج داوود عندها اذا وقعت فيه كنسج الخدرنق
هواد لا ملاك الجيوش كأنما تخير أرواح الحكمة وتنقي
تقد عليهم كل درع وجوشن وتفرى اليهم كل سور وخندق
يغير بها بين (اللقان) و (واسط) ويركزها بين (الفرات) و (جاق)
ويرجمها حمراً كأن صبيحتها يبكي دماً من رحمة المتدقق

وصف الخيل:

قاد الجياد الى الطعان ولم يقدر الا الى العادات والاطوان
كل ابن سابقة يغير بحسنه في قلب صاحبها على الاحزان
ان خلقت ربطت بأداب الوعى فدعاؤها يغني عن الأرسان
في جحفل ستر العيون غباره فكاننا يبصرن بالأذان
يرمي بها البلد البعيد مظفر كل البعيد له قريب دان
فكان أرجلها بتربة (منبج) يطرحن أيديها (بمحصن الزان)
فأتمم خوارق الارض ما تحمل الا الحديد والابطالا
خافيات الألوان قد نسج النقع عليها براقعا وجبالا
حانفته صدورها والهوالى لتخوضن دونه الأهوالا
ولتمضن حيث لا يجد الرمح مداراً ولا الحصان بجالا

وصف الحرب والضرب وفي أثنائه وصف الخيل وعدد القتال

يقبلهم وجه كل ساجحة اربها قبل طرفها تصل
جرداء مل الحزام مجفرة تكون مثلي عسيبها الخصل
ان أدبرت قلت لا تليل لها أو أقبلت قلت ما لها كفل

والطعن شذرو والارض واجزة
قد صبغت خدها الدماء كما
والخيل تبكي جلودها عرقا
سار ولا قفر من مواكبه
يمنعها ان يصيبها مطر
كأنما في فؤادها وهل
بصبغ خد الخريذة الخجل
بأدمع ما تسحها مقل
كأنما كل سبب جبل
شدة ما قد تضايق الأسل

الجيش :

ولما عرضت الجيش كان بهـاؤه
حواليه بحز للتجافيف مانج
تساوت به الاقطار حتى كأنه
على الفارس المرخي الذؤابة منهم
يسير به طود من الخيل أبهم
يجمع أشتات الجبال وينظم

يهرز الجيش حولك جانبيه
وتسأل عنهم الغلاة حتى
كما نفضت جناحيها العقاب
أجابك بعضها وهم الجواب

ضممت جناحيه على القلب ضمة
بضرب أتى الهامات والنصر غائب
حقرت الردينيات حتى طرحها
ومن طلب الفتح الجليل فأنما
نترتهم فوق الاحيدب كاه
تدوس بك الخيل الوكور على الدرى
تظن فراخ الفدخ انك زرتها
إذا زلقت مشيتها ببطونها
نموت الخوافى تحتها والقوادم
وصار الى اللبات والنصر قادم
وحتى كأن السيف للرمح شاتم
مناتيعه البيض الخزونه الصوارم
كما نثرت فوق العروس الدراهم
وقد كثرت حول الوكور المطاعم
باماتها وهي العتاق الصلادم
كما تمشى في الصعيد الأراقم

من اتقان الصنعة عند الوصاف ان يعطى الجواد نوعاً من الحياة فينسب اليه من
الأعمال ما يُنسب الى الكائنات الحية . مثل ذلك ما جاء في الكتاب العزيز
« جداراً يريد ان ينقض » ولا ارادة للجدار

يصف أبو الطيب تمايل الرماح وكأنها الشاربون قد لعبت برؤوسهم الخمر
تبيت رماحه فوق الهوادي وقد ضرب المعجاج لها رواقا
تميل كأن في الأبطال خرا علقن بها اصطباجا واغتيابا
ولم تعب الحيلة في أمام التشبيه فوجد الخمر التي يسقيها للرماح ، وجدها في دماء الأبطال
يفعل أبو الطيب شيئا شبيها به - هذا عند وصف الحيوان . انه يعطى جياده نوعا
من العقل :

وأدبها طول القتال فطرفه يشير إليها من بعيد فتفهم
تجاوبه فعلا وما تسمع الوحي ويسمعها لحظا وما يتكلم
والأدب والطاعة وفهم الاشارات والاجابة الى الأوامر يحتاج الى عقل لا
يتوفر في كثير من بني الانسان - وقال في وصف مهره :

يميز الهزل من الحقائق - وينذر الراكب بكل سارق

يريك خرقا وهو عين الحاذق

وأعجب من هذا وذاك قول حصانه وهو في شعب بوان :

أبوكم آدم سن المعاصي وعلمكم مفارقة الجنان

فانه أعطاه تفكير الفلاسفة الكبار وأخشي ان أقول بل حكمة الأولين والآخرين

مميز آخر لوصف أبي الطيب - عند ما يصف المتنبى دابة من دوابه تحس وأنت

تقرأ شعره كأنك ترى الموصوف يتحرك أمام مخيبتك ويكثر هذا في وصف الخيل

مثال ذلك قوله في صفة جواده

شقتت به الظلماء أدنى عنانه فيطغى وأرخيه مرارا فيلعب

وقال في خيول الحرب

تبارى نجوم القذف في كل ليلة

يطلن من الأبطال من لا حمله

فهن مع السيدان في البر عسل

وهن مع الغزلان في الواد كمن

نجوم له منهن ورد وأدم

ومن قصد المرات من لا يقوم

وهن مع النينسان في الماء عوم

وهن مع العقبان في النبق حوم

وكذلك ترى الحركة في وصفه لكباب الصيد من مثل قوله

فحل كلابي وثاق الاحبيل عن أشدق مسوَجِر مسلسل
يعدو اذا أحزن عدو المسهل اذا تلا جاء المدى وقد تلى
يكاد في الوثب من التفتل يجمع بين متينه والكلكل
وبين أعلاه وبين الأسفل لا يأتلي في ترك أن لا يأتلي
متمحما على المكان الا هول يخال طول البحر عرض الجدول
حتى اذا قيل له نلت افعل الخ

وعند ما وصف بحيرة طبرية صورها مزبدة مضطربة وكان في استطاعته أن يصورها هادئة ساكنة ولكن الظاهر أنه يجب الصور المتحركة وهي مظهر الحياة قل

والموج مثل الفحول مزبدة تمدر فيها وما بها قلم
والطير فوق الحباب تحسبها فرسان بلق تخونها اللحم
كانها والرياح تضربها جيشا وغى : هازم ومنهمزم

يتناول باب الوصف موضوعا جليلا هو وصف الناس وطباعهم وأخلاقهم وحركات نفوسهم . تجمد المدح في الحقيقة وصفا للاخلاق الكريمة من كرم وشجاعة وعلم وأدب الى غير ذلك فاقرا مدح سيف الدولة مثلا تجمد وصفا تاما عن رجل الحرب والغارات وعن الرجل المعطاء وعن العالم الخبير بالامور انظر اليه يوم قال له أولى قصائده وفيها

سلكت صروف الدهر حتى لقيته على ظهر عزم مؤيدات قوائمه
مهالك لم تصحب بها الذئب نفسه ولا حملت فيها الغراب قوادمه
فابصرت بدرأ لا يرى البدر مثله وخاطبت بجرأ لا يرى العبر عاقمه
وغاظه من الشعراء أن يقصروا في وصف الامير فقال

غضبت له لما رأيت صفاته بلا واصف والشعرتهذي طباطمه
كأنه يقول دعوني أصفه لكم ثم انبرى ينعت اميره :
علي عائق الملك الاغر نجاده وفي كف جبار السماوات فائه

تحاربه الأعداء وهي عبيده وتدخر الأموال وهي غنائه
ويستكبرون الدهر والدهر دونه ويستعظمون الموت والموت خادمه
وفي بدر بن عمار

هان على قلبه الزمان فما يبين فيه غم ولا جذل
تعرف في عينه حقائقه كأنه بالذكاء مكتحل
أشفق عند اتقاد فكرته عليه منها أخاف يشتعل
فهل ترى في صفة الذي أصبح من هذا الوصف ؟ أنظر إليه أيضاً كيف يصف
ممدوحاً آخر يحب الرمي بالنشاب ويتعاطاه :

وقالوا ذاك أرمي من رأينا فقات رأيتم الغرض القريباً
وهل يخطى بأسمه الرمايا وما يخطى بما ظن الغيوباً
إذا نكبت كنفاته استبنا بأنصلا لا أنصاها ندوباً
يصيب ببعضها أفواق بعض فلولا الكسر لانصت قضيباً
بكل مقوم لم يعص أمراً له حق ظنناه لينياً

ومن أراد وصف البخيل أو المشوه الخلقه فليراجع أهاجى شاعرنا في كافور ومن
أراد ان يعرف صفة البني فليقرأ قصيدة ضبة او قصيدة ابن كيغانغ
وهناك نوع من الوصف سأعرض له في باب الشعر الحكيم ذلك هو وصف الحالات
النفسية لأن علم الأخلاق - كما يقول العارفون - أقرب الى الحكمة منه الى الأدب

القسم الثالث

الشعر الفلسفي

يخيل الى ان هذه التسمية من قبيل الجمع بين الأضداد اذ ان وصف الشعر
بأنه فلسفي او وصف الفلسفة بأنها شعرية من قبيل انكار الصفة كقولك عذب أجاج
أو بارد حار أو ابيض أسود او غير ذلك من التآليف المتناقضة بطبيعتها . كيف يجتمع

الشعر وهو خيال محض والفلسفة وهي تفكير صرف (١) ؟ ومن أجل ذلك نزه الله تعالى مقام النبوة عن الشعر بقوله « وما علمناه الشعر وما ينبغي له » وبرأ منه كتابه الكريم بقوله « وما هو بقول شاعر » وكلتا الآيتين على تمام الاتفاق مع قوله « والشعراء يتبعهم الغاؤون » ومع ذلك فقد اعتدنا سماع هذا التعبير وليس بين أهل الأدب أو أهل الحكمة من ينكره أو يعترض عليه أي اعتراض !

ولكن حديث « ان من البيان لسحرا وان من الشعر لحكمة » - أو الحكما (٢) - يفسر لنا ذلك الجمع الغريب - ومعناه كما أفهمه : ان من البيان ، من الكلام الفصيح الواضح الصريح ما هو كالسحر أي ما يوجب الشك والحيرة ويظهر خلاف ما يبطن ويوقع في النفوس القلق والاضطراب . قال تعالى في سحرة فرعون « فلما أقوا سحروا أعين الناس واسترهبوهم »

فالمنعني في مجموعته عن الشق الأول من الحديث الشريف ان من البيان الذي من شأنه الظهور والوضوح قد يجيء ما من شأنه اللبس والخفاء (وهذا الشق ليس موضع بحثنا) والشق الثاني من الحديث على أسلوب الشق الأول سواء بسواء : ان من الشعر الذي هو مظنة اللهو والعبث والغواية - لقوله تعالى « والشعراء يتبعهم الغاؤون » - قد يجيء ما فيه الحكمة البالغة والموعظة الحسنة

وقد جاء هذا النظم في قوله تعالى : « ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهي كالحجارة أو أشد قسوة . وان من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار » أي ان من بين الحجارة

(١) *Poésie Philosophique de Sully-Prud'homme-Revue des Revues-Juin 1912*

(٢) ص ٢١ ج ٢ كتاب السراج المنير شرح الجامع الصغير للعزيمي مع حاشية الحفنى : « ان من البيان سحرا » « ان من البيان سحرا وان من الشعر حكما » « ان من البيان سحرا وان من العلم جهلا » « ان من الشعر حكما وان من القول عيالا » . - وتجد أصل الحديث في كتب التاريخ عند الكلام على الوفود (وفد بني تميم) « عصر النبوة »

التي من شأنها ومن طبيعتها القسوة والصلابة قد يكون ما هو على خلاف المعهود فينبض
منه الماء

وخلاصة ما تقدم انه قد يصدر عن الشيء المعروف خلاف ما يهدف فيه في الاصل
فيجئ من البيان ما يوقع في الحيرة ومن الشعر ما يهدي الى الرشد كما يتفجر الماء من
خلال الحجر الأصم

وقد أشير في هذا الحديث من طرف خفي الى ان الشعر ليس في الاصل من
مستودعات الحكمة ولكن قد يجئ منه ذلك على سبيل الاستثناء فجعله اذن غير مجال
الحكمة وطبيعته تخالف طبيعتها .

وتأييداً لهذه الفكرة أورد بعض الماعز موجزة لا تخلو من الفائدة

قال ابن رشيق في كتابه « العمدة » في باب « اللفظ والمعنى » « والفلسفة وجر
الأخبار باب آخر غير الشعر . . . وإنما الشعر ما أطرب وهز النفوس وحرك الطباع .
فهذا هو باب الشعر الذي وضع له وبنى عليه لا ما سواه »

وكان أرسطو (الحكيم اليوناني ، واضع المنطق) قد قسم « الدليل » الى أقسام عدة
منها الشعر والمغالطة (السفسطة) فأخذ الناس بتقسيمه ولكنهم أسقطوا منه هذين
النوعين لأنهما ليسا من مسالك الحقيقة ولا مما يهديان اليها

ملاحظة أخرى - اهتم الناس منذ القدم بتقسيم العلوم فعرفوا أنواعا شتى من
التقسيم تنسب الى واضعيها . رأيي بكون الانجائزي ان تقسيم العلوم يجب ان يكون
أساسه حدود الماطن الفكرية للإنسان وهذه المناطق حسب رأيه ثلاث : الذاكرة
والمفكرة والقريحة (الخيال) فجعل العلوم التاريخية من اختصاص الذاكرة . والحكمة
وما شابهها في دائرة المفكرة . والادب والشعر من متعلقات الخيال . فصارت العلوم بناء
على هذا القول ثلاثة : علوم حفظ وعلوم تفكير وعلوم خيال

واني لا أقرظ هذا التقسيم من حيث هو تقسيم للعلوم وإنما استشهد به على إظهار
الحدود الفاصلة بين مجال الحكمة ومجال الشعر التي كثيراً ما أشكلت على الناس
وغالط فيها أهل الأدب أنفسهم وهم يعلمون - أو لا يعلمون ! -

وما أجمل مغالطة حافظ بك ابراهيم في مقدمة ديوانه حيث قل: «فلو أنهم سألوا الحقيقة ان مختار مكاناً تشرف منه على الكون لما اختارت غير بيت من الشعر»
وأجمل منها مغالطة السيد البكري في كتابه «صهاريج الثؤث» (ص ٤٤) عند ما قال في وصف أحد أفاضل اقساط طابنية: «ومن هؤلاء فلان وهو عقل لقمان وحكمة يونان... قد بذ الأوائل والأواخر، شاعر الا انه فياسوف وفيلسوف الا انه شاعر، فكره عالم الحقيقة والمثل، لأن العالسة شعر الا انها حقيقة والشعر فلسفة الا أنه خيال»... ولا أرد على مثل هذه المغالطة بأكثر من ان أقول انها انكار في اقرار واقرار في اقرار

انى أجمل المفكرين عن ان تكون آراؤهم ثمرة مستعارة من غرس غيرهم ويترجح لدى ان كل مفكر مهما تشابه مذهبه بمذهب مفكر آخر فان له مميزات خاصة به حتى ولو كان أحدهما قد أخذ مذهبه عن الآخر وكذلك ينحىل الى ان مجموعة أفكار الواحد من هؤلاء لا ينبغي ان ينظر اليها كأنها صحيفة مختارات، كل كلمة من كتاب، بل يجب ان يوافق الناقد منها منظومة متماكة الأطراف مرتبطة الأجزاء تتصل كل فكرة منها بأختها كما يتصل الولد بأبيه والأخ بأخيه حتى تقرر نسبة كل منها الى الأخرى وتثبت في الأذهان ثبوت الأنساب

من أجل ذلك اجتهدت في ان أولف من أفكار أبي الطيب وآرائه مجموعة مرتبة يمكن ان يفهم من جملتها صورة شاملة لما يدور في نفس الشاعر من الخطرات المعدودة في باب التفكير العقلي او الحكمة الأدبية - لأن شاعر أبي الطيب حافل بالحكم والأمثال فاذا سردناها حكمة بعد حكمة ومثالاً لثو مثل - كما فعل الجرجاني والمكبري وغيرها - ألقينا الاضطراب في ذهن السامع أو على الأقل جثناه بفكرات مختلفة كلما وعى واحدة نسي الأخرى -

من أى حكمة كان يقتبس أبو الطيب؟ أكان للمرب حكمة او فلسفة يهتدون بها

في أمور دينهم وتطهثن اليها أرواحهم فيما يكون بعد الموت ؟
يزعم قوم ان العرب وكل السلالة السامية (١) ايسلم فلسفة . ومن هؤلاء القوم
أرنست رينان (٢) المستشرق الفرنسي الذي تكلم عن هذه النقطة في كتابه « تاريخ
اللغات السامية ومقارنتها » وأنكر حظ الساميين من العلم والفلسفة وغيرها من ثمرات
المواهب الفكرية بقدر ما وفر من نصيب السلالة الهندية الجرمانية . ولم يرف في الفلسفة
الاسلامية في عصر بني العباس الا فلسفة رومية محررة باللغة العربية وانها فضلا عن
كونها ليست ثمرة الفكر السامي فانها بمثابة مصادمة الروح الهندية الأوروبية الاسلام
الذي هو أنقى ثمرات الفكر السامي . ولكنه مع ذلك يرى في السلالة السامية غريزة
عظيمة للدين نلبي على أساس التوحيد ويعد من مفاخر هذه السلالة السامية انها
وصات منذ أيامها الأولى الى فكرة الألوهية التي أخذتها عنها الشعوب الاخرى
واتبعها حسب تعاليمها السامية

ولا أريد ان أدخل الى مفصلات النزاع بين المؤلفين ولكني أريد ان أعرف
هل تلقي شاعرنا أبو الطيب شيئاً من أسرار تلك الرومية التي ألبسوها اثوب العربي
أيام العباسيين أم بقي على سائته الدينية الواضحة البيان الضيقة الأرجاء كما يزعم رينان ،
تلك السامية التي وقفت عند الوحدة ولم تعدها الى الكثرة قائمة بالمبادئ المقررة دون

(١) الساميون (نسبة الى سام بن نوح) شعوب متعددة مقرها جنوب
آسيا الغربي وجزء من افريقيا (الحبشة) ظهرت لهم مدنات عظيمة وقامت منهم
دول كبرى : آشور واليهود والفينيقيون والعرب . والاديان التي يعتنقها السواد
الاعظم من سكان العالم (اليهودية والنصرانية والاسلام) اديان سامية كل منها
يعترف بسابقه ويأخذ منه . وأحدثها وهو الاسلام يدعو الى ملة ابراهيم
عليه السلام

(٢) Ernest Renan يسميه اليسوعيون بالملحد الأكبر لأنه كان من
رجال الدين وشذ عنه والف عن المسيح عليه السلام كتابا لا يوافق عليه
المتدينون ولكنه كاتب مفكر ومن المشهورين في اللغات السامية

ان تهم بالتدقيق في أسرار الكائنات - والظاهر أن شاعرنا لم يستعز من تلك الرومية
الا بعض ألفاظ كجالينوس وابقراط ولم يعرف عن الهندية او الفارسية أو ما وراءها
الا «المانوية» لفظاً عاماً او تعريفاً سطحياً وزواج الأخت عند المجوس في قوله في الهجاء
برئوا اليك مع العفاف وعنده ان المجوس تصيب فيما تحكم

هـ إذا ما تعثر عليه في شعره - وهناك دليل آخر علي بقاء أبي الطيب في دائرة
الساميين وهو ميله لضرب الأمثال فان هذا الفن من خصائص هذه السلالة التي
هي شعب الله وقد تمت منه التعاليم اللازمة عن أصل اللسان ومصيره وواجباته في
الحياة الدنيا وجزائه في الآخرة

من مميزات الآداب السامية ضرب الأمثال . فعند العبرانيين مثلاً تعدد «حكم
سليمان» أثراً كبيراً . ومكانة «الأمثال» عند العرب لا يمكن انكارها . فالتنبي
من هذه الجهة شاعر عربي سامي وجبت محبته علي العرب والساميين

فلسفته وآراؤه

لقد يكون من التسرع والاندفاع ان تنسب الحكمة لأبي الطيب من أجل ألفاظ
وردت في شعره يحسبها كي بها أقوال المنطقيين وأصحاب الكلام أو من أجل أبيات
أشار فيها الى مسائل في الفلسفة .

على أن شاعرنا قد أكرر في الواقع من استعمال تلك الألفاظ والاشارة الى تلك
المسائل تصریحاً وتلميحاً . فيلتمس اذن بعض العذريين يسمي أبا الطيب حكماً أو
فيلسوفاً بناء على الاعتبارات المتقدمة دون غيرها

والبك بعض الشيء مما جاء في كلامه من ألفاظ المناطقة :

ولقد رمت بالسعادة « بعضاً » من نفوس العدى فادركت « كلا »

شفاك الذي يش في بحدك خلقه فانك ببحر « كل » ببحر له « بعض »

يفني الكلام ولا يحيط بفضلكم أبجيط ما « يفني » بما « لا ينفد »

فلم ندع منها سوى المحال في «لامكان» عند «لامنال»
ومن هذا القبيل ان شاعرنا يذكر أسماء المعروفين في العلم والفلسفة ولو أنه لا
يشير في غالب الأحيان الى مبدأ من مبادئهم . فمن ذلك قوله

من مبلغ الاعراب انى بعدها شاهدت «رستاليس» و«الاسكندرا»
وهي «بطليموس» دارس كتبه متما ككا متبديا متحضرا

لما رأيت دواء دائى عندها هانت على صفات «جالينوسا»

يموت راعى الضأن في جهله موتة «جالينوس» في طبه

اذا داء هنا «بقراط» عنه فلم يعرف لصاحبه ضريب

وفي وصفه عقر المكاب للظبي

علم «بقراط» فصاد الأكل فحال ما للقفز للتعديل

وكم لظلام الليل عندك من يد تنبيء ان «المانوية» تكذب

أما مسألة الفاسفة بمعنى العلم الالهي او العلم الأعلى كما يقول أصحاب هذا الفرع
من المعرفة فقد ذكر منها شاعرنا شيئا ليس بالقليل ولا بالكثير . فوجب اذن ان ينظر
اليها بعين الحكم العدل فلا تبخس قدرها ولا تعطى فوق ما تستحق

ان المسائل المهمة في الفلسفة بالمعنى المتقدم تكاد تكون محصورة معدودة على
ما يظن غالب الناس حتى أن من تكلم في احداها حسب الجمهور فيلسوفا - فمن هذه
المسائل مسألة الروح وخلودها مثلا فاذا رأينا أبا الطيب يقول :

تخالف الناس حتى لا اتفاق لهم الا على شجب وانخلاف في الشجب

فقبل تخلد نفس المرء سالمة وقيل تشرك جسم المرء في العطب

ومن تفكر في الدنيا وهيجته أقامه الفكر بين المعجز والتعب

فهل نحكم عليه بأنه أراد ان يخوض في تلك المسألة المعضلة ؟ - واذا وزنا قوله :

تبخل أيدينا بأرواحنا على زمان هن من كسبه

فهذه الارواح من جوه وهذه الأجساد من تربه
فهل نحسبه بهذا القول يشرح عنصر الروح وعنصر البدن ويبين أصل كل منهما
وكيف اتصل الواحد بالآخر وان الأول سماوي والثاني أرضي فاجتمع العلوي بالسفلي
.. واذا دققنا النظر في قوله :

تمتع من سهاد او رقاد ولا تأمل كرى تحت الرجام
فان ثالث الخالين معنى سوي معنى انتباهك والمنام
فهل نقول بأن الشاعر يقصد الحشر وما وراء الموت ؟ .. واذا تأملنا قوله :
انعم ولد - فلأمور أواخر أبداً اذا كانت هن أوائل -
ما دمت من ارب اللسان فانما روق الشباب عليك ظل زائل
ذر النفس تأخذ وسعها قبل بينها فمفترق جاران دارها العمر
تمتع من سهاد او رقاد الخ .. .

فهل ينبغي لنا ان نعدده من أتباع (ابيقور) الفيلسوف اليوناني المشهور القائل
بمبدأ اللذة وان الحصول عليها انما هو أعظم خير للانسان ؟
واذا فحصنا بيتيه المشهورين :

وكم لظلام الليل عندك من يد تنبئ ان المانوية تكذب
وقاك ردى الاعداء تسرى اليهم وزارك فيه ذوالدلال المحجب
فهل يجوز لنا ان نقول بان الشاعر شرح مبدأ (ماني) المجوسي القائل بان النور
الآه الخير والظلام آله الشرورد على مذهبه ؟
يجب ان نسائل أنفسنا كثيرا قبل ان نجيب (١)

(١) يظن كثير من الناس أن الفيلسوف من يستخف بالاديان والعقائد .
فاذا تمشينا مع هذا الزعم اعترفنا لشاعرنا بالحكمة بلا تردد لانه أكثر في شعره
من الاستهانة بامور تمس الايمان من قريب - من ذلك قوله وقد تغالى في
المبالغة واغرق :

لو كان علمك بالآله مقسما في الناس ما بعث الآله رسولا

أعلن ان هذه المتفرقات الصغيرة اذا اجتمعت الواحدة بجانب الأخرى تنهض
دليلاً على ان الشاعر قصد الكلام في الفلسفة النظرية . ولكن هل يفيد هذا الدليل
انه فيلسوف بالفعل يستحق بهذه المجموعة من الأقوال ان يقف في مصاف الفلاسفة
وان يحشر في زمرة الحكماء ؟

اذا كانت الفلسفة - كما يقول المشتغلون بها - نظرية وحماية فان أبا الطيب لم
يحرز قصب السبق في الأولى ولكنه كان في الثانية أصدق نظراً وأبقى أثراً : - انه
دقيق النظر ، كثير الاستنتاج ، ماهر في التوليد ، غزير المادة في ضرب الأمثال
وقياس الأشياء بالأشياء : وهو فوق ذلك من أكبر الوصفين - فلا غرو ان أجاد
في تصوير الحالات النفسية ومظاهر الأخلاق وتقريب المعاني البعيدة الى متناول
الناس أجمعين - من أجل ذلك لا ينبغي ان نستغرب رواج شعره واتشار ذكره في
كافة الأمصار -

حكى عن رجل من مدينة السلام كان كلما وصل بلداً سمع بها ذكر أبي الطيب
رحل عنها حتى اذا وصل الى أقصى بلاد الترك فسأل عن أبي الطيب فلم يعرفوه .
فتوطنها . فلما كان يوم الجمعة ذهب الى صلاتها بالجامع فسمع الخطيب ينشد بعد ذكر

لو كان لفظك فيهمو ما نزل السفرقان والتوراة والانجيل

لو كان ذو القرنين أعمل رأيه لما أتى الظلمات صرن شموسا

أو كان صائد رأس عازر سيفه في يوم معركة لاعيا عيسى

أو كان لج البحر مثل يمينه ما انشق حتى جاز فيه موسى

أو كان للذيران ضوء جبينه عبت فكان العالمون مجوسا

لنا مذهب العباد في ترك غيره واتيانه نبغى الرغائب بالزهد

رجونا الذي يرجون في كل حنة بارجان حتى ما يئسنا من الخلد

ان كان مثلك كان أو هو كائن فبرئت حينئذ من الاسلام

يتشفن في في رشفات هن فيه أحلى من التوحيد

أسماء الله الحسنى قول أبي الطيب
أسامياً لم تزد معرفته وإنما لذة ذكرناها
فماد الي دار السلام (١)

وحكي الربيعي: «قل لي بعض أصحاب ابن العميد قال دخلت عليه يوماً قبل ان
يتصل به المتنبى فوجدته واجماً وكانت قد ماتت أخته عن قريب فظننته واجداً لأجلها
فقلت لا يحزن الله الوزير فما الخبر؟ قال انه ليغيبني أمر هذا المتنبى واجتهادى في
ان أخذ ذكره فقد ورد على سيف وستون كتاباً في التعزية ما منها الا وقد صدر بقوله
طوى الجزيرة حتى جاءنى خبر فزعت فيه بآمالي الي الكذب
حتى اذا لم يدع لي صدقه أملاً شرقت بالدمع حتى كاد يشرق بي
فكيف السبيل الي اخماد ذكره؟ فقلت له القدر لا يغالب الرجل ذو حظ في
اشاعة الذكر واشتهار الاسم قالأولي ان لا تشغل فكرك بهذا الامر» (٢)
فالحقيقة ان شاعرنا لم يرزق الحظ وحده كما يقول ذلك الراوي ولكنه رزق المعرفة
وأوتى الحكمة «ومن بقوت الحكمة فقد أوتى خيراً كثيراً»

يقول علماء النفس والأخلاق ان الكذب لا يكون بالقول فقط بل يكون بالفعل
أيضاً ويختصون النساء بنصيب أوفر من نصيب الرجال من هذا الداء ولكن شاعرنا
قد سبقهم الي الاهتداء الي القاعدة وأجاد في شرحها فقال

ما أوجه الحضر المستحسنات به كأوجه البدويات الرعايب
حسن الحضارة محبوب بتطرية وفي البداوة حسن غير محبوب
أين المعيز من الآرام نظرة وغير ناظرة في الحسن والطيب؟
أفدى ظباء فلاة ما عرفن بها مضغ الكلام ولا صبيغ الحواجيب
ولا برزن من الحمام مائلة أوراكن صقيلات العراقيب
ومن هوى كل من ليست مموهة تركت لون مشبي غير مخضوب

(١) و(٢) الصبح المنبى ص ٢٠٧ و ١٨٢ - ١٨٣ ج ١

ومن هوى الصدق في قولي وعادته رغبت عن شعر في الرأس مكذوب
فقد مزج معنيين مختلفين او فكرتين متباينتين احدهما شعرية أدبية وهي غرامه
بالبدويات والأخرى فلسفية خلقية وهي الكذب والتصنع في المرأة الحضرية . وأولى
بهذه الأبيات ان تدرس في كتب الأخلاق : صور تصنع المرأة الحضرية وكذبها في
حركاتها وأفعالها ونحياها على التجميل بأنواع التطرية والتطيب والتلوين والتويه ومضغ
الكلام ثم وقف موقف المعلم الصادق الذي يعمل بما يعلم . وللأدباء كل العذر في عد
هذه الأبيات من الغزل لأن الشاعر قد ألف بين معنيين متناقضين ومزجها مزجا
محكما « قدشابهها وتشاكل الأمر »

لا يستطیع الشاعر ان ينظم فصولا مطولة في علم الأخلاق واصوله وان فعل
ذلك فقد ضاعت لذة الشعر ولم تقع منه الا على منظومات ثييلة باردة يحسها الذوق
وينبو عنها السمع . كمنظومات النحو والفقهاء . وليس فيها من الشعر الا الوزن والقافية
والذلك فان الشاعر الحكيم عند ما يريد ان يخاطب الناس ويلقى عليهم درسا في
الأخلاق مثلا فانه يتحين الفرص المناسبة ويتحامل على استجلابها ثم يدس تلك
المبادئ المرة بين كلمات الحلوة

من أجل ذلك أراني أفضل اشارات شاعرنا الموجزة على شروحه المطولة
وأجده في الشطرة الواحدة أو البيت الواحد اصنع منه واحكم في الأبيات التي يسلسل
بعضها في أثر بعض كقوله

والهم يخترم الجسيم بحفاة ويشيب ناصية الصبي ويسرم
ذو العقل يشقى في النعيم بعقله وأخو الجهالة في الشقاوة ينعم
والناس قد نبدوا الحفاظ فمطلق ينسى الذي يولى وعاف يندم
لا يخذل عنك من عدو دمه وارحم شبابك من عدو ترجم
لا يسلم الشرف الرفيع من الأذى حتى يراق على جوانبه الدم
والظلم من شيم النفوس فان تجد ذا عنة قليلة لا يظلم
فهذه قطعة مقتضبة من إحدى قصائده لا تجد ما يربطها بما قبلها ولا بما بعدها

فضلا عن ان معانيها المختلفة لا رابطة بينها اللهم الا انها مواظب ووصايا - ولكنها في مجموعها جيدة تعد من محاسن الشاعر ولا يجدها منتسب الى الأدب وهي كأنها درة ثمينة سقطت في وسط أقدار لانها حلقة في غير محلها من حلقات قصيدة هجائية ماثت فخشا لا يابق بكرامة شاعرنا الحكيم . - مثال آخر :

ابني أينما نحن أهل منازل أبداً غراب البين فيها ينمق
نبيكي على الدنيا وما من معشر جمعهم -م الدنيا فلم يتفرقوا
أين الأكامرة الجبنارة الأولى كنزوا الكنوز فما بقين ولا بقوا
من كل من ضاق الفضاء بجيشه حتى ثوى فخواه خد ضيق
خـرص اذا نوديراً كأن لم يعلموا ان الكلام لم حلال مطلق
قالوت آت والنفوس نفائس والمستمز بما لديه الأحمق
والمرء يأمل والحياة شبيهة والشيب أوقر والشبية أنزق
فهذه أيضاً سلسلة أفكار ومجموعة خطرات جاءت في خلال قصيدة مدح مع
انها أشبه شئ بما يقال في المراثى أو عل قبور الأموات

ما أحكم أبا الطيب حين يجيئ بالمبدأ الخطير أو القاعدة الخلقية أو الاشارة الأدبية
يستطرد اليها بالحيلة والدهاء كما يقول هو « ان الكريم على العلياء يحتال »
أنظر اليه وهو يصف الحرب وأدواتها والمسكر والخيل وغير ذلك في قوله
وكل فتى للحرب فوق جبينه من الضرب سطار بالأسنة معجم
يمد يديه في المفاضة ضيغم وعبيده من تحت التريكة أرقم
كأجناسها راياتها وشـعارها وما لبسته والسلاح المسم
وأديها طول القتال فطرفه يشير اليها من بعيد فتفهم
تجاوبه فعلا وما تسمع الوحي ويسمعها لحظاً وما يتكلم
لها في الوعى زى الفوارس فوقها فكل حصان دارع مثائم
لا أظن ان واحداً من الوصافين يستطيع ان يعيب شيئاً من هذا الوصف المحكم
الذي صور فيه الشاعر موقف الجندي وحالته النفسية وما لبسه من درع وخوذة وصور

الخيل وآدابها وقائدها وزبيها - ولكن مقدره أبي الطيب تظهر في الإشارة الصغيرة التي جاء بها بعد الوصف وهي قاعدة حكيمة في السياسة والتدبير . قل :

وما ذاك بخلا بالنفوس على لائقنا (ولكن صدم الشر بالشر أخزم) (١)
هذه الصناعة أراها أدق وأصعب من سرد الحكم والمواعظ والوصايا لأنها تحتاج إلى ذوق سليم سيما وإن تحين الفرص مما لا يوفق إليه كثير من الناس لقد وجد بين شعراء العربية من وهبوا مزية نظم الحكم والمواعظ من أمثال ابن الوردى والطبراني ولكن الفرق بينهما وبين أبي الطيب ظاهر إذ أنه لا يقصد إلى نظم الحكمة بالذات وإنما يستطرد إليها ويجيئ بها في أشكال مختلفة وفي مواضع ليست من مظان وجودها . أنظر إليه وهو يخاطب مشوقته في ساعة غيه وضلاله كيف استطاع أن يحث على أكبر معاني الصوفية والزهاد قل

زودينا من حسن وجهك ما دأبم فحسن الوجوه حال تحول
وصلينا نصلك في هذه الدنيا (فإن المقام فيها قليل)

(١) مثال آخر . قال يصف مليحة سقته خمرأ (قطربليا) وأغيد غناه ووقع على العود (والظاهر أن الموضوع تخيل غزلي) :

سقتني بها القطربلي مليحة على كاذب من وعدها ضوء صادق
سهاد لاجفان ، وشمس لناظر وسقم لا بدان ، ومسك لناشق
وأغيد يهوي نفسه كل عائل عفيف ويهوى جسمه كل فاسق
أديب إذا ما جس اوتار مزهر بلا كل سمع عن سواها بعائق
يحدث عما بين عاد وبينه وصدغاه في خدي غلام مراهق
ثم ضرب المثل في حسن الخلقة وجمال الاخلاق والافعال فقال
(وما الحسن في وجه الفتى شرفه إذا لم يكن في فعله والخلائق)
مثال آخر أيضا . في سيف الدولة .

احبك يا شمس الزمان وبدره وان لامني فيك السهي والفراق
وذاك لأن الفضل عندك باهر وليس لان العيش عندك بارد
(فإن قليل الحب بالعقل صالح وان كثير الحب بالجهل فاسد)

مثال آخر : قل بصف جواده

شقتت به الظلماء أدنى عنانه فيطنى وأرخبه مراراً فياصب
وأصرع أى الوحش قفّيته به وأنزل عنه مثله حين أركب

فوضع الحسن في صنعه انه خرج من وصف جواده الى ذكر الصديق فقال
(وما الخيل الا كالصديق قليلة وان كثرت في عين من لا يجرب)

مثال آخر أيضاً : وصف الشاعر شعب بوان الذى تقدم ذكره ثم أعقبه بقول جواده

يقول بشعب بوان حصاني أعن هذا يسار الى الطمان ؟

أبوكم آدم من المعاصي وعلمكم مفارقة الجنان !

فأشار في البيت الأخير الى مسألة يصعب الكلام فيها وهي خطيئة أبي البشر

آدم عليه السلام - ولقد استطاع شاعرنا ان يذكر الحادثة ويؤديها أداء حسناً راجعاً

الى أصل الخطايا بطريق التهمك الظريف ولم يجعل الكلام على لسانه وانما أورد الفكرة

على لسان جواده تحاشياً من التعرض لموضوع يمس الناس أجمعين

يظن بعض الادباء من أهل عصرنا ممن لا يقرون لبي الطيب بفضل أنه نظام

حكم وضراب أمثال - لو صح هذا الرأي في حق شاعرنا لوجب أن نحكم به على زهير بن

أبي سلمى الجاهلي لأنه نظم حكماً وأمثالاً في معلقته المشهورة منها

سئمت تكاليف الحياة وهن بعش ثمانين حولاً لا أبالك يسأم

واعلم ما في اليوم والأمس قبله ولكنني عن علم ما في غد عم

ومن لم يصانع في أمور كثيرة يضرّس بأنياب ويوطأ بمنس

الى آخر ما قل . وفي القصيدة حشرة أبيات متوالية تتبدى كلها بمن وظاهر فيها

أثر الهوة العظيمة التي تفرق بين الشعر والحكمة . فم ل أنكر أهل الأدب على زهير

فضله في الشعر من أجل تلك المواضع ؟

ان صح ذلك القول من أدباء عصرنا في حق أبي الطيب فهذا جزاء وفاق له ان

صح أنه أذكر فضل الشعراء الذين اقتدى بهم وفي مقدمتهم أبو تمام (١)

لأبي الطيب آراء وأفكار تجدها مبعثرة في ديوانه تجيء مرة بلا مناسبة ومرة أخرى على سبيل الاستطراد وأنا مبتدىء بها قصائده وأحياناً يسلسها آخذة بعضها برقاب بعض في جزء كبير من القصيدة . تلك المعاني لو جمعت ورتبت لكات صحيفة مفعمة بالشكوى من كل شيء في هذا الوجود واتهام كل فريق على حدته من أهل البسيطة . من أجل ذلك أقدمت على تصوير تلك الصحيفة وتحديد مواضعها بالإيجاز ومميتها

صحيفة الاتهام

كأنما وقف شاعرنا موقف رجال الاتهام في أيامنا يسرد السيئات ويتلمس السقطات لا يرضى شاعرنا عن شيء مما في هذا العالم فهو يشكو من نظامه ويشكو من أهله رجالاً ونساءً ويشكو من قضائه وقدره إلا أنه يستثني نفسه أحياناً ولكنه يدخلها بعض الأحيان ضمن دائرة الشكوى . وما أصدقه حين يقول

(١) نقل مؤلف الصبح المنبى عن الحاتمي أثناء محاورته المشهورة عبارة عزاه للمتنبي « فما زاد على أن قال أكثر من أبي تمام فلا قدس الله روح أبي تمام » (ص ١٦٩ ج ١) - ونقل أيضاً : « روي الخالديان أن بعض من كان يحسد أبا الطيب حكى عنه أنه كان يضع من الشعراء المحدثين فربما قال انشدوني لأبي تمام شيئاً حتى أعرف منزلته من الشعر ... وتذاكرنا ليلة في مجلس سيف الدولة بـميا فارقين وهو معنا فأنشد أحدنا لمولانا أيده الله شعراً له قد ألم فيه بمعنى لأبي تمام فاستحسنه ، ولانا أدام الله تأييده واستجاده واستعاده فقال أبو الطيب هذا يشبه قول أبي تمام وأتى بالبيت المأخوذ عنه المعنى فقلنا له قد سررنا لأبي تمام إذ قد عرفت شعره فقال أويجوز للاديب إلا يعرف شعر أبي تمام وهو استاذ كل من قال الشعر بعده ؟ فقلنا له أنك تقول حكيت وكيت فانكر ذلك . وما زال بعد ذلك إذا التقينا ينشدنا بدائع أبي تمام . وكان يروي جميع شعره » (ص ١٧٣ ج ١)

ألا ليت شعري هل أقول قصيدة فلا أشتكي فيها ولا أتعجب؟
ماذا أقيت من الدنيا؟ وأعجبه أني بما أنا بك منه محسود؛
نه غير راض عن قومه راض عن نفسه :
أنا في أمة تداركها الله غريب كصالح في عهد

فؤاد ما تسليه - المدام وعمر مثل ما تهب اللثام
ودهر ناسه ناس صغار وان كانت لم جثت ضغام
وما أنا منهم بالعيش فيهم وان كان معدن الذهب الرغام
أرى أناسا ومحصولي على غم وذكر جود ومحصولي على كرم
ما زلت أضحك ابلي كلما نظرت الى من اختضبت اخفافها بدم
أسيرها بين أصنام أشاهدها ولا أشاهد فيها عذة الصنم
انه غير راضي عن كل أهل الزمان

اذم الى هذا الزمان اهبله فاعلمهم قدم وأحزمهم وغد
وأكرمهم كلب وأبصرهم عم وأسهدهم قهد وأشجعهم قرد
ومن نكد الدنيا على الحر أن يرى عدواً له مامن صداقته بد
وقد انكر وجود الصديق ، والصداقة بالعالم ، في قوله

خليلك انت ، لا من قلت خلي وان كثر التجميل والكلام
ولما صارود الناس خبياً جزيت على ابتسام بابتسام
ومرت أشك في من أصطفيه لعلى أنه بعض الانام
إذا ما الناس جربهم لييب فاني قد أكتهم وذاقا
فلم أر ودم الا خداعا ولم أر دينهم الا نفاقا

انه غير راض عن أهل عصره ويسفه نفسه في دعوتهم الى الخير ، لانهم لا يعقلون :
وانما نحن في جيل سواسية شر على الحر من سقم على بدن
حولى بكل مكان منهم خفاق فخطى اذا جثت في استفهامها بمن

لا أقترى بلدا الا على غرر ولا أمر بمخلق غير مضطمن
ولا أعشر من املاكهم ملكا الا أحق بضرب الرأس من وثن
انى لا عذرهم مما أعنفهم حتى أعنف نفسي فيهم وأنى
فقر الجهول بلا قاب الى أدب فقر الحمار بلا رأس الى رسن

انه غير راض عن أحد كما قدمت ولكنه زاد فقال انه غير راض عن نفسه :

أريك الرضا لو اخفت النفس خافيا وما انا عن نفسي ولا عنك راضيا

وفي بعض الاحيان يخفف من لهجته في الطمن على الناس عامة فيقول مثلا

غيرى (باكثر) هذا الناس ينخدع ان قاتلوا جبنوا او حدثوا شجعوا

أهل الحفيظة الا أن تجربهم وفي التجارب بعد الغي ما يزع

انه غير راض عن « الزمان والمكان » كما يجرى ذلك التعبير على الالسنه

اما في الدنيا كريم تزول به عن القلب الهوم؟

اما في هذه الدنيا « مكان » يسر بأهله الجار المقيم؟

أنه غير راض عن الدهر وأفاعيله ولا الايام وتصرفاتها حاقد عليها يتميز من

الفيظ كلما خطر بباله حادث ويرى أن كل ما في الزمن عدو له حتى مظاهر الطبيعة

التي تسرى عن القاب الهوم

صحب الناس قبلنا ذا الزمانا وعناهم من شأنه ما عنانا

وتولوا بغصه كلهم منه وان سر بعضهم أحيانا

وما الدهر أهل أن تؤمل عنده حياة وأن يشاق فيه الى النذل

من خص بالدم الفراق فاني من لا يرى في الدهر شيئا بحمد

فما ترجى النفوس من زمن أحمد حاله غير محمود؟

قبحا لوجهك يا زمان ا فانه وجه له من كل قبح برقع

وغيفظ على الايام كالنار في الحشا ولكنه غيفظ الاسير على القد

وقلة ناصر جوزيت عنى بشر منك يا شر الدهورا
عدوى كل شئ فيك. حتى نخلت الائم موغرة الصدور
وفي بعض تمثيلاته يصف الليل

كان الجوقاسى ما اقاى
فصار سواده فيه شحونا
كان دجاه يجذبها مهادى
فليس تغيب الا ان يغيبا
اناب فيه اجفانى كائى
(اعد به على الدهر الذوبا)

وفي مواضع مختلفة يحمده على الدنيا وينعتها بكل مكروه

فدى الدار اخون من مومس واخذع من كفة الخابل
تفانى الرجال على حبها وما يحصلون على طائل

ولو جاز الخلود خلدت فردا ولكن ليس للدنيا خليل

وهى معشوقة على الغدر لا تحفظ عهدا ولا تتم وصلا

شيم الغايات فيها . فما أدري لذا أنت اسمها الناس ام لا

شكواه من الناس انهم خبيثاء ، أدنياء ، جبذاء ، الى غير ذلك من الاوصاف
التي تقدمت . أما شكواه من الايام فلائها تعاند الاحرار وأولى العزائم ونحاجى الاسافل
والجهلاء . يقول فى ظلم الاقدار :

وبختلف الرزقان والفعل واحد الى أن يُرى احسان هذا لذا ذنبا

لما الله ذى الدنيا مناخا لراكب فكل بعيد الهم فيها معذب

وما اجتمع بين الماء والنار فى يدى بأصعب من أن أجمع الجذ والفهما

أفاضل الناس اغراض لذا الزمن يخلو من الهم أخلام من الفطن

انه غير راض عن النساء يتهمهن بالغدر وقد سبقت الاشارة الى ذلك فى شكواه
من الدنيا اذ يقول بان فيها صفة النساء ولا يدري هل لهذا السبب أنت الناس اسم
الدنيا أم لسبب آخر

ذا غدرت حسناء وقت بمهدها فمن عهدها ان لا يدوم لها عهد
ومن خير الغواني فالغواني ضياء في بواطنه ظلام
وفي موضع آخر يشير الى غدر سيف الدولة يقول لو أن ذلك الفعل صدر من
امرأة لعذرتها لأن الغدر من شيمها
فلو أن ما بي من حبيب مقنع عذرت ولكن من حبيب معتم
وله شطرة أخرى في هذا المعنى « ان الملاح خوادع قتل »

من هذه الاقوال المتفرقة يستنتج الناقد أمرين: الأول ان أبا الطيب كان كئيب
المزاج وهذا شيء ربما يرجع الى طبعه وفطرته ، الأمر الثاني أنه من المتطيرين الذين
يسئون الظن بكل ما في هذا الوجود وهذا ربما يرجع الى رأيه وتجاربه . ومن هاتين
الفكرتين تولدت في نفس أبي الطيب الجافية خطة سيره في الحياة . واذ قدما ان
أقواله المختلفة تعتبر بمثابة صحيفة اتهام كانت خلاصتها والنتيجة التي توصل اليها بمثابة
الحكم الذي يستصدره على الناس وعلى الايام . وقد رسم هذه الخطة بما لا مزيد
عليه من الوضوح ونادى بطالب الحكم غير قابل رحمة ولا عظماً فقل :

ومن عرف الايام معرفتي بها وبالناس (روى رحمه غير راحم)
هذا كان رأى شاعرنا . وانه لرأى العتاة الجبارة . وهو بالطبع لم يوفق الى تحقيقه
وقد علم بعد طول الممارسة أنه لا سبيل الى الوصول الى تحقيقه فوجب اذن أن يجد لنفسه
رأيا آخر يوطنها عليه يكون أقرب لرأيه الاول ، فخرج من هذا المعترك النفساني بمقيدة
فلسفية ، ان شئت ان تسميها كذلك ، تكاد تكون عقيدة الرواقين من حكماء اليونان .
ولكني أرى أن هذه كانت عقيدته فيما يكتب فتط لانه قد شذ عنها كثيراً في أفعاله .
رأى الرواقين أو أصحاب المظالم أو أصحاب الاسطوانة (شيمة زينون) يحض
على الصبر والجلد والثبات ، وما عدا ذلك من الصفات بعد نقيصة في هذا المبدأ .
هذا الرأي يولد في النفس شيئاً من الزهد مع احتمال الشدائد بلا تدمر . وقد
أفصح شاعرنا في مواضع كثيرة عن هذا الرأي فقال :

ولو ان الحياة تبقى لحي لعدونا أضلنا الشجعانا

وإذا لم يكن من الموت بد فمن العجز ان تكون جباناً
كل ما لم يكن من الصعب في الأنفس سهل فيها اذا هو كانا
الحياة ظل زائل ، كتب الموت فيها علي كل حي ، فلا مفر منه ، لا للشجاع ولا
للجبان . اذاً فلا معنى للحزين . أما اذا كان في الاستطاعة تأخير الاجل بالاستكانة
فما أجهل الشجاع المقدم . . . اذا وقع الصعب احتملته النفس بعد وقوعه ، فاذا كان
في استطاعتها ان تحتمله بعد ، فلماذا تهرب منه قبل ؟

اذا غمرت في شرف مروم فلا تقنع بما دون النجوم
فطم الموت في أمر خفير . كطم الموت في أمر عظيم
يرى الجبناء أن العجز عقل وتلك خديعة الطبع اللثيم
وفي قصيدة أخرى جاء بمعنى أرقى ، فأكر علي الناس ما يبـدونـه من الأسي على
فراق موتاهم كما أنكـر غضاضة الموت قائلاً بأن الناس الفوا الحياة (ورمز لها أو كني عنها
باستنشاق الهواء) ولذلك قنهم زعموا ان الموت مر ، والحقيقة أنه لا معنى للحزن في أي
حال من الاحوال لأنه عجز قبل حدوث الموت ولأنه لا فائدة من ورائه اذا حان الحمام :
إف هذا الهواء أوقع في الأنفس ان الحمام مر المذاق
والأسي قبل فرقة الروح عجز والأسي لا يكون بعد الفراق
هذا المبدأ الاساسي هو الذي أوحى اليه المعاني المتفرقة التي تصادف في خلال قصائده
من أمثال قوله

ألا لا أرى الاحداث (١) مدحاً ولا ذماً فما بطشها جهلاً ولا كفها حلاً
لا تائق دهرك الا غير مكترث مادام يصحب فيها روحك البدن
فما يديم سرور ما سررت به ولا يرد عليك الفات الحزنت
انه يستخف بالزمن يقول له انك تستطيع ان تفعل بجسمي ما تشاء من الوهن
وأن تهد أركانه بالشيب ولكن لا سبيل لك الي نفسي فانها لا يتألم سلطانك وأنها
ستبقى فتيمة قوية في هذا البدن الضعيف البالي :

(١) يقصد الحوادث والمصائب

وفي الجسم نفس لا تشيب بشيبه ولو أن ما في الوجه منه حراب
لها ظفر ان كَلَّ ظفر أعده وناب اذا لم يبق في الفم ناب
يغيرني الدهر ما شاء بعدها وأبلغ أقصى العمر وهي كهاب
وفي خلال الحديث ذكر مثالا عن جلده وقوة نفسه فقال :

وأصدي فلا أبدي الى الماء حاجة .. ولا شمس فوق العملات لعاب
ويقول مثل هذا القول في قصيدته التي وصف فيها الحمى التي أصابته وهو بمصر :
فان أمرض فما مرض اصطباري وان أحمم فما حم اعتزامي
وان أسلم فما أبقى ولكنك سلمت من الحمام الى الحمام
وقد وصف أحد ممدوحيه بصفة هي خلاصة هذا المبدأ فقل :

هان على قلبه الزمان، فما بين فيه هم ولا ج ذل
ومما يبرر مذهبه

رماني الدهر بالارزاء حتى قوادى في غشاء من نبال
فصرت اذا اصابتني سهام تكسرت النصال على النصال
وهان فما أبالي بالوزايا لأنى ما انتفعت بأن أبالي
هذه هي النتيجة الواقعة التي توصل اليها الشاعر « ما انتفعت بأن أبالي » مثل
هذه النتيجة أيضاً قوله :

قد ذقت شدة أيامي ولذتها (فما حصلت على صاب ولا غسل)
كان رأيه نتيجة تجاربه كما يدعى ويزيد ذلك وضوحا قوله
عرفت اللبالي قبل ما صنعت بنا فلما دهنتي لم تزدني بها علما
وما أصرحه حين يقول :

كذا أنا يادنيا ! اذا شئت فاذهبي ويانفس زيدي في كراتها قدما

وانا لتلقي الحادثات بأنفس كثير الرزايا عندهن قليل
تهون علينا ان تصاب نفوسنا وتسلم اعراض لنا وعقول
فلا غرابة اذا بعد هذا البيان ان يجيء شاعرنا بنغاية الغايات في الجص على اعزاء

النفس وحفظ كرامتها ما دامت الحياة عارية ، وما دام الهلاك مكتوبا على كل موجود
وما دامت المبالاة لا طائل من ورائها ، وما دام المرء لا يحصل مما يعانيه في الحياة
على شيء ما « لا صاب ولا غسل » فهو قد أحسن الاحتياج حين قال
عش عزيزاً أومت وأنت كريم بين طمن القنا وخفق البنود
فأطلب العز في نظي ودع الذل . ولو كان في جنان الخلود
ردى (حياض الردى) بانفس واتبركي (حياض خوف الردى) للشاء والنعم

لابي الطيب ساعات ينزع فيها منزع الصوفية وطلاب الآخرة . وأكثر ماتكون
تلك الساعات عند ما ينظم المرأى حتى لكان روعة الموت تصرع نفسه العانية ولكن
تلك النفس المستعصية لا تلبث ان تستعيد قوتها ثم تنظر الى ذلك الموت نظرا المستخف به
الهازيء بصولته . علي أنه يحكم الصناعة ويجيد ربط هذين المعنيين المتنافرين : معنى
هول الموت ومعنى الاستخفاف به ، لأنه لا مفر منه . ولأنه عارض قهري لا بد لكل
واحد من الاحياء ان يحتمل وقعه فيخرج السامع لشعره من هذا التأليف المحكم بمعنى
ذلك هو أشبه شيء بالتزهد في الدنيا مع الحظ على طلب المحامد والمفاخر وتقضية
أيام الحياة كما يرضى الشمم والاباء . وليس للصوفية مرمي في تقويم الاخلاق غير هذا
مثال ذلك قوله في هيبة الموت وضعف الانسان :

لا بد للانسان من ضجعة لانقلاب المضجع عن جنبه

ينسى بها ما كان من عجبه وما أذاق الموت من كربه

ثم ينتقل الى المعنى الثاني فيستغرب التهب من الموت :

تبخل أيدينا بأرواحنا على زمان هن عن كسبه

فهذه الارواح من جوه وهذه الاجساد من تربه

ثم يستحف بالحياة ويزهد فيها ويأمر بالصبر والجلد وهو في آن واحد يستحذ

بالموت ويهونه على نفس السامع :

لو فكر الماشق في متهى حسن الذى يسببه لم يسبه

يموت راعي الضأن في جهله موتة (جالينوس) في طبه
وربما زاد على عمره وزاد في الأمن على سره
ثم يصل أخيراً الى النتيجة التي قدم لها هذه المقدمات :
وغاية المفرط في سلمه كفاية المفرط في حربه
(فلا قضي حاجة طالب فواده يخفق من رهبه)

هذه هي الغاية التي يقصد اليها شاعرنا، فلاغرابة ان كثير في شعره ذكر الشجاعة
وتمجيدها والدعوة اليها بكل وسيلة . ومن هنا ظن كثير من أهل الأدب أن أبا الطيب
شجاع بطبعه ولكن الظاهر انه لم يكن كذلك وقد أطلت في ذلك الموضوع عند الكلام
على أخلاقه . وما مثله في هذا المقام الا كمثل العالم بتمير الأموال يخاطبك عن الثروة
وحساب السوق وأعمال المصارف فتخال وأنت تحدّثه أنك في حضرة غني كبير يكلمك
عن . له الخصاص والحقيقة أنه يذكر علمه وصناعته . فكذلك كان أبو الطيب من جهة
الشجاعة يعرفها من الوجهة العلمية ولكنها لم تكن في طبعه ولا من خلقه بل كانت
دراسة علي الورق في طمأنينة الليل وهو ينظم قصائده . وما احببكم حين يقول :
واذا ما خلا الجبان بأرض طيب الطعن وحده والنزالا

مبدأ صاحبنا في معاملة الناس مبدأ عنف وشدة الا أنه يخفف من شدته عندما يعلق
عليه من الحواشي فهو لا يقول على الدوام :

ومن عرف الايام معرفتي بها وبالناس روى رحمة غير راحم

وأما يلفظ من هذه اللهجة بتقسيم الناس الي كريم ولئيم فيقول :

اذا أنت أكرمت الكريم ملكته وان أنت أكرمت اللئيم تمردا

ووضع الندي في موضع السيف في العلي مضر كوضع السيف في موضع الندي

الا أنه نفى وجود الكرام فقال على سبيل الاستفهام الانكارى :

أما في هذه الدنيا كريم ؟

فطريقته في تمجيد القسوة ان يفرض الفروض مثال ذلك

إذا قيل رفقاً قال للحلم موضع وحلم الفتى في غير موضعه جهل
من الحلم أن تستعمل الجهل دونه إذا ما اتسعت في الحلم طرف المظالم
وان ترد الماء الذي شطره دم فتسقى إذا لم يسق من لا يزاحم
انه يوصى بالحلم في معاملة الاحرار ولكنه في الوقت نفسه ينكر وجود الاحرار :
وما قتل الاحرار كالغزو عنهم ومن لك بالحر الذي يحفظ اليدا ؟
ويقول : والظلم من شيم النفوس فان تجرد ذا عفة فلعله لا يظلم
أما قواعده أو بمباراة أخرى وصاياها ولصايعه التي يشير بها في معاملة الناس قائم .
مبعثرة في ديوانه واليك بعضها منها :

ولا تشكّ الى خلق فتشمتة شكوى الجريح الي الغربان والرخم
وكن على حذر للناس تستره ولا يفرك منهم ثغر مبتسم
غاض الوفاء . . .

- فما كل هاو للجميل بفاعل ولا كل فقال له بمتحم
- وخيل زيا لمن يحققه ما كل دام جبينه عابد
- وكن كالموت لا يرثي لبك بكى منه وبرى وهو صاد
وهذه قطعة أخرى في شعره عرض فيها بالناس أولاً ثم وضع القاعدة ثانية
مازلت أضحك أبلي كلما نظرت الي من اختضبت أخفافها بدم
أسيرها بين أصنام أشاهدها ولا أشاهد فيها عفة الصنم
حتى رجعت وأقلامي قوائلي (المجد للسيف ليس المجد للقلم)
اكتب بنا أبدأ بعد الكتاب به فإنا نحن للأسياف كالخدم
(من اقتضى بسوى الهندي حاجته أجاب كل سؤال عن هل يلم)

فهو برمزه بالسيف والقلم قد كشف كثيراً عن رأيه خصوصاً وقد ختمه بحكمة سارت
مسير الامثال مؤداها ان اللسان لا يصل الي غايته الا بالشدة

سوء الظن الذي تمكن من نفس أبي الطيب أمن جهة الناس جميعاً حتى قال :
غاض الوفاء فما تلقاه من هدة ؟ وأعوذ بالصدق في الاخبار والقسم

انا في زمن ترك القبيح به من أكثر الناس احسان واجمال
أقول ان سوء الظن أفقده العصبية لقومه وبلده حتى كادت نفسه تجمد ويموت
فيها الشعور الفطري بحب الأقرين والمكان الذي ولد فيه ونشأ وترعرع. وتولد مكان
هذه العاطفة عاطفة أخرى هي طلب الفائدة والسعي وراء المنفعة - انه يقول
وما بلد الانسان غير الموافق ولا أهله الا دنون غير الأصادق
لا يرى البلد والأهل الا ما كان فيه المصاحبة وكرز هذا المعنى في قوله :
وكل امرئ يولي الجميل محبب وكل مكان ينبت العز طيب
« كل انسان » و « كل مكان » في نظر شاعرنا محبوب طيب ما دام يوصل اليه
الخير وقد شرح المعنى نفسه في موضع آخر أيضا فقال :

اذا صديق نكرت جانبه لم تعين في تركه الحبيب
في سعة الخافقين مضطرب وفي بلاد من اختها بدل (١)

« في بلاد من اختها بدل » ان صح هذا الرأي فلا معنى لخنين الغريب الي
وطنه ولا لنشوب الحروب الطاحنة للدفاع عن البلاد وغير ذلك من المبادئ التي تمجدها
الانسانية منذ عرفتها الي اليوم

وهنا يجب على ان انبه الي ان الافكار في غالب الاحيان معيار الاخلاق فاذا قارنا
بين أبي الطيب من حيث الاخلاق ببناء علي اقواله المتقدمة وبين الشاعر الذي يقول
بلادى وان جارت علي عزيزة وقومي وان ضنوا علي كرام
فماذا الذي يتضح لنا من المقارنة ؟ يتحتم علينا ان نستنتج منها ان الاول ضعيف
اخلاق كالطفل يجب ان يستأثر بالخير ويمد اليه يده أين وجده ويضن به علي غيره
بخلاف الاخير فانه ترقى من حب الذات والأثرة الي الايثار وحب الغير مهما رأى من
الظلم والجور . و ابو العلاء المعري ارقى في هذا الباب من أبي الطيب المتنبي لانه يقول :
فلا هطلت علي ولا بأرضي سحائب ليس تنتفع بالبلادا

فالوصول الي الفائدة واحراز الخير غرض اولي في نفس شاعرنا ويظهر انه لا يبالي

(١) مثله قول : غنى عن الاوطان لا يستخفي . الي بلد سافرت منه اياب

بالطريق الذي يوصله الى غرضه اذا كان الوصول مؤكداً كما يقول :-
ولست ابالي بعد ادراكى العلي ا كان تراثا ما تناوات أو كسبا
وأدل من ذلك علي حبه الدنيا وجمع عروضها الفانية قوله :
اذا لم تجد ما يبتقر الفقر قاعداً فقم واطلب الشيء الذي يبتقر العمرا
هما خلتان : (ثروة أو منية) لعلك ان تبقي بواحدة ذكرنا
تحققا ان حب المال فطرة في الانسان والله تعالى يقول عنه (وانه لحب الخير لشديد) (١)
يتأخص مذهب ابي الطيب في كلمة « الحياة شقاء » وليس هذا المبدأ من مخترعات
شاعرنا وانما هي فكرة الناس اجمعين يقولونها بصيغ مختلفة و يابسونها كل يوم ثوبا جديداً
ولكن المهم في الفكرة انما هي النتائج التي تترتب عليها . وهذه النتائج ليست هي بذاتها
عند كل المفكرين بل انها تختلف باختلاف الامزجة والطبائع . واني أشبه الفكرة في
ذاتها بالنبع الذي ينبض من الأرض ولكنه يتفرع الي جداول كل منها يختلف عن
الآخر لونا وطعما ورائحة ووصفاً وحرارة وغير ذلك مما يوجب الدهشة والاستغراب لدى
ذي النظر السطحي ولكن الباحث الذي يتبع الجداول من منبعها ويعرف المناطق
التي تخترقها لا يرى وجها للفرابة لأنه يعلم ان هذا يسيل في بقعة صلدة التربة مثلاً
ويخترق جهات كثيرة الأعشاب المطرة وذلك يمر بأراض طفلية فيحمل منها أجزاء
تغير من لونه وغير ذلك من الفروض - وكذلك المبادئ فانها كالينابيع تصدر عن المبدأ
الواحد نتائج عدة يختلف بعضها عن بعض ، بحسب أمزجة المفكرين ومنازعههم .
فالبدأ الذي نحن بصدده الآن قد تولدت منه قواعد فلسفية مختلفة أي مذاهب
هدائية في الحياة : اذا كانت الحياة كما يقول المعري « نكد كلها الحياة » أو « تعب
كلها الحياة » فيجب أن نتهمز كل ملذاتها وأن نتنعم بما تصل اليه أيدينا من الخيرات
قبل ان تفاجئنا المنقصات . ومن هذا الرأي أبو الطيب في قوله :

أنهم والله
مادمت من أرب الحسان ، قائماً روق الشباب عليك ظل زائل .

(١) الخير هنا بمعنى المال كما في قوله تعالى (ان ترك خيراً ، الوصية للوالدين ...)

وقوله في موضع آخر :

زودينا من حسن وجهك ... فحسن الوجوه حال تحول
وصلينا نصلك في هذه الدنيا فانت المقام فيها قليل

فما دام ريق الشباب ظلا زائلا والمقام في الدنيا قليلا فيجب نحصيل اللذات قبل
فواتها، هذا رأى صاحبنا - الا ان غيره من المفكرين لا يقيمون هذه الملائد وزنا ما دامت
الآلام والا كدار هي المتقلبة. فصرفوا انفسهم عن التمتع وراضوها على التخشن وهم
يدعون الناس الى الزهد في الدنيا والتنفير منها

واذ جئنا عرضاً الى الزهد فاني اذكر ان الشاعر الكبير سامي باشا البشارودي
لم يسجل في « مختاراته » الا ثمانية آيات في الزهد لأبي الطيب . وهذا أيضا مما
يستدل به علي ان المتنبي لم يكن من الدعاة الى القناعة . ولا حاجة بنا الى تلمس القرائن
وأمامنا قوله الصريح :

ليس التعلل بالأمال من أربي ولا القناعة بالاقلال من شيعي

فهو لم يرق بنفسه الى مدارج الفضائل الكبرى وبقي من الموصوفين بقوله تعالى
« نحبون المال حبا جما » . النظر اليه كيف يقول لكافور ينصح له بالاستزادة من المال
ويوصيه بان يحاذر من تبديده في سبيل المجد الا أنه قد باح بمكنون ضميره ونم عن
بدنه في حب الدنيا

فلا ينحال في المجد مالك كله فينحل مجد كان بالمال عقده
ودبره تدبير الذي المجد كفه اذا حارب الأعداء والمال زنده
فلا مجد في الدنيا لمن قل ماله ولا مال في الدنيا لمن قل مجده

فقد صرح في البيت الأخير تصريحاً بما غير كاف لتمسك عليه الا انه قال بعد :

وفي الناس من يرضى بميسور عيشه ومركوبه رجلاه والتوب جاده
ولم يكن قلبا بين جنبي ماله مدى ينتهي بي في مراد أحده

فهو لا يرى لمطامعه حداً يقف عنده فضلا عن انه لا يرضى بميسور عيشه ويزيد

على ذلك انه ينصح الناس بالحرص ويقول لهم (لا يجد في الدنيا لمن قل ماله) ورب
معرض يقول هل نسيت قوله الكافور يستهين بأعراض هذا العالم الفاني :
اذا نلت منك الود فالمال هين وكل الذي فوق التراب تراب
فأقول ان هذا البيت جاء بمد ايات اخرى ظهر فيها الحيف شاعرنا في السؤال :
وكهل نأفئ ان ترفع الحجب بيننا ودون الذي املت منك حجاب؟
وفي النفس حاجات وفيك فطانة سكوتى بيان عندها وخطاب!

صناعة أبي الطيب في تصوير حالات النفس وانفعالاتها - هذا البحث يداننا
على مقدار تدقيق أبي الطيب في ملاحظة ما يدور في نفس الانسان من الخطرات
المختلفة عندما يصادف حادثا من الحوادث - أضرب لك مثلا : كيف يتأق الواحد
من الاخبار السيئة ؟ الجواب سهل جداً اذا نظرنا الى النتيجة الأخيرة . يقول كل منا
مثل قول الآخر : تأتي الاخبار السيئة بالحزن والكدر وغير ذلك من الانفعالات
النفسية - ولكن النفس يدور فيها قبل ذلك أخذ ورد قل ان نلتفت اليها ، يدور فيها
شبه تحقيق ، فتشكك أولاً في صحة الخبر خوفاً على آمالها ومصالحها وتلجأ الى أوهي
الأسباب كاحتمال كذب المبلغ مثلاً ولا تزال تنقل في الشكوك حتى تتأكد من الحق
الذي لا ريب فيه فيصيدها ما يصيدها من الألم لما نزل بها - هذه الحال قد أجاد في
وصفها أبو الطيب عند ما وصل اليه نعي أخت سيف الدولة وكان المتنبى اذ ذاك بالكوفة
بعد عودته من مصر فقال ضمن مرثيته :

طلوى الجزيرة حتى جأني خبر فزعت فيه بآمالى الى الكذب
حتى اذا لم يدع لى صدقه أملا شرقت بالدمع حتى كاد يشرق بى
انظر اليه أيضا كيف يصور حركة النفس وقد أخذ الحزن يتنازعها من ناحية
والتصبر من ناحية أخرى وقد أجاد الشاعر في رمزه للحزن بالدمع وهو مقياس الألم
في غالب الأحيان . قال :

الحزن يقلق والتجمل يردع والدمع بينهما عصى طبع

يتنازهان دموع عين منهد هذا يجيء بها وهذا يرجع
 قال مثل هذا عن الحب أيضا فتجد غزله مجموعة ملاحظات نفسانية بحلل فيها
 ميول النفس بفكر مدقق - وقد رأيناها ينظم في الغزل بعقله المفكر لا بوجوده المنفل
 وبهذا العقل أيضا ينظم في المراثي في غالب المواقف التي تحتاج الي الوجدان . رأيناها
 قبل الآن كيف تكلم على الكذب عرضا في أثناء غزله فجاء بتحليل واف لاخلاق المرأة
 في التصنع والكذب بالأفعال لا بالأقوال فقط.

وقد آن لي أن استخلص من آراء أبي الطيب وأفكاره حكما اجماليا في تقدير
 فلسفته . وينبغي بادىء ذي بدء أن أقول ان صاحبنا لم يكن فيلسوفا نظريا كابن سينا مثلا
 ولا خلقيا كابن حزم ولا مؤدبا صوفيا كالغزالي . فمن هذه الناحية لا يصح ان يقارن بهم
 فتمام فلسفتهم ليس في تناول الشعراء « لا ينبغي لم ولا يستطيعون » وغاية ما يقال عن شاعرنا
 انه مفكر له آراء لا تقطع بأنها ثمرة اظره ونتيجة تحقيقه كما أننا لا ندعى أنه استعارها من
 غيره . فان صح اطلاق الفاسفة على كل مجموعة من الأفكار والطيب جدير بأن
 يسمى فيلسوفا لأن مجموعة أفكاره حافلة مستنبضة ويمكن للناقد أن يجد لها انسجاما
 وارتباطا بين أجزائها وقد تناول فيها البحث بإشارات موجزة عن مسائل شتى تتعلق
 بالحياة وخطة السير فيها وتقدير خلق الناس ومعاملتهم على مقتضى خلتهم . فهو من هذه
 الناحية حكيم ينبغي أن لا يضمن عليه بهذا اللقب الذي أعطي لأمثال « ديوجانس »
 الكلبي من مفكري اليونان ، وتمتاز مجموعة أفكار صاحبنا بأنها جميلة الاسلوب شعرية
 الوضع وإذا جاء بصفة خلقية أو صورة نفسية أجاد في تقريبها الى الافهام وان انصرفه
 الى الخلق وحالات النفس نجعله قريب الشبه من (سقراط) واضع علم الاخلاق عند
 قدماء اليونان وخير من عرف من فلاسفتهم في الاسلام

إذا تسامحنا قليلا رأيناها محقا في آرائه العامة عن الناس وعن خطة المعاملة في
 الحياة فإذا اعترضنا على سوء ظنه بالناس مثلا واتهامهم بالنقص وميلهم الى الظلم والغير

وإذا أخذناه على قواعده القاسية في المعاملة رجعنا على أنفسنا باللائمة لان الرجل لم يقل
الا ما قاله جمهور الناس في كافة الامم وفي جميع العصور. الم يقل العباس بن الأحنف ،
وحكمه يتناول الناس اجمعين

أسأت اذ أحسنت ظني بكم (والحزم سوء الظن بالناس)
وإذا سألتنا أنفسنا : من هم بنو الانسان ، أبناء آدم وبنات حواء ، فإذا يكون
الجواب ؟ قابيل يقتل أخاه هايل ؟ ام أبناء يعقوب يبيعون أخاهم يوسف ؟ ام اوائك
الذين رموا ابراهيم في النار المستعرة ؟ واآذوا موسى ؟ وعذبوا عيسى ؟ واخرجوا محمداً
من قريته ؟ وحكموا على سقراط بالاعدام ؟ واحرقوا جان دارك ؟ أم دليلة ، وسلومة ،
وامرأة العزيز ، وجمالة الخطب ؟

تبارك المعلم الحكيم الذي قال وهو أصدق القائلين « قتل الانسان ما ا كفرة ! »
« ان الانسان لظالم كفار »

فأبو الطيب بفلسفته لم بغضب الا بعض الخياليين الذين يريدون ان يروا في الانسان
ملكا كريما ، وفي الحياة عدلا ونعما ، ناظرين الى جهة واحدة ، حالمين بما فيها ، مقبمين في
واد من الأوهام ولذلك قل ان ترضيهم الحياة الحقيقية اذا قابلوها وجها لوجه -
وبالجملة فأبو الطيب شاعر الجمهور يأخذ منه ويعطيه ، وحكيم الجمهور يعظه ويهديه ،
ويسليه ويواسيه ، وكثيراً ما يغاظ له في النصح وكثيراً ما يغضب وكثيراً ما يرضيه : وسنراه
خطيباً مهما في الباب الآتي ان شاء الله



الباب الخامس

اسلوب أبي الطيب ومميزات صنعته

جزئيات الموضوع

(١) الاسلوب - كلمة عامة - التشابه بين المتنبي والمعري في الاسلوب - المعاني المتداولة - العروج والتزيق (التوليد) - الاسلوب التعليلي - الاسلوب الخطابي - الاسلوب التشبيلي
(٢) مميزات صنعته - (الطبع الموسيقي) : - الترديد - العدد - (آثار البعاوة) : الغريب - الارجيز - اللغات الشادة - الذوق الجاف - (الصناعات المنوية) : الجمع بين الاضداد - الالفاظ : المقابلات - المعاني : العكسيات - خايط الفنون - (الصناعات اللفظية) - ترك الجناس والتورية - التجنيس -

القسم الاول

اسلوب أبي الطيب

كلمة عامة

انكل شاعر - أو نثر - صناعة خاصة به ذات مميزات تفرق بين عمله وعمل غيره من أصحاب الفن الواحد - ف شعر كل من امرئ القيس وعذرة وأبي نواس والبحري وابن الفارض وغيرهم إنما هو شعر في مجموعته تتسرب فيه القواعد العامة من وزن وتقنية ومطالع ومخالف ومقاطع . وكل ما يوجد من هذا القبيل في شعر أحدهم يوجد لاحالة في شعر الآخرين ولكن لكل واحد من هؤلاء الشعراء صناعة خاصة يعرف بها وتعرف به . ولا أظن أحداً من أهل الأدب يصدقنا اذا نسبنا شيئاً من شعر ابن الفارض لامرئ القيس مثلاً ولو كان ذلك الأديب المسؤول لا يستظهر شيئاً من شعر كل واحد منهما . بل انه يجيبنا من فوره بان هذا خلط بين . ولا يؤاخذنا لاننا نسبنا او أخطأنا فقط بل لاننا أشركنا شاعراً في شخصية شاعر آخر .
ولكن لا ينبغي أن نلظن ان المسألة من السهولة والبساطة بهذا المكان لان الفرق وان ظهر واضحاً جلياً بين ابن الفارض وامرئ القيس فانه قد يكون غامضاً مظالم بين

شاعرين متقاربين في العهد مثلاً أو متعاصرين أو مقتديين بامام واحد في الفن الى غير ذلك من الفروض

في اسلوب أبي الطيب أشياء كثيرة من مميزات عصره لان الشاعر مهما حافظ على شخصيته ومهما قويت فيه ملكة الاستقلال لا يستطيع أن يقاوم الرأي الشائع في زمانه ، ولا ذوق الجمهور من أهل الأدب ، ولا أن يخرج عن مألوف تراكيبهم ومبادئهم في الجملة .

ان اطلاق الحرية في العصر العباسي كان له أثر كبير في الأدب العربي من ذلك عدم الوقوف عند حد في اختيار الالفاظ والتراكيب والمعاني والأوزان والقوافي الشعرية . وقد رويت اشعار باللغة العامية في رثاء البرامكة . وأما التراكيب فقد دخل عليها شيء من تقليد التراكيب الاجنبية فزادوا « هو » و « هي » مثلاً في مواضع لا تألفها اللغة العربية الاصلية وذلك تقليداً للتركيب اليوناني (١) حتى يكون في الجملة مسند

(١) يظهر أن النقل من اللغة اليونانية لم يصل الى الادب العظيم اعني ان العرب لم يكن لهم نصيب من فنون الادب اليونانية ولعلمهم جهلوا بها جهلاً تاماً او ان ابواب معرفتها قد اوصدت في وجوههم عمداً والا فكيف يعقل ان مؤلفات الفلاسفة على غموضها وما اودعته من الاشكال والتعقيد تنقل الى العربية ويتناقش فيها في المجالس وتقوم الامة وتقعده من اجل مسألة من مسائلها بمعنى ان الروح الفكرية اليونانية تسربت في نفوس العرب ووصلت الى اعماقها حتى اصبحوا يعتقدونها وادخلوها فعلاً في دراسة اصول العقيدة ، وذلك بدون ان يصل الى العرب شيء من الروايات التمثيلية انكبرى التي لا تزال الى اليوم من حسنات اليونان كقطع « سوفوكل » مؤلف « اوديب الملك » وبدون ان يصل اليهم شيء من الشعر اليوناني القصصي او الحربي من امثال « الياذة » « هوميروس » ؟ لو ان العرب كانوا نقلوا شيئاً من ادب اليونان الفني اعني ما عدا الحكم لكانوا عرفوا التمثيل اليوناني وادخلوه في عاداتهم كما ادخلوا الفلسفة اليونانية والتفكير الفلسفي اليوناني

ومسند اليه ورا بطة تربطها كقولهم ما « هو » الانسان وقولهم الا لسان « هو » حيوان ناطق
أما الأوزان فقد ازدادت وعرف منها أنواع كثيرة وتاريخ علم العروض حافل بالشواهد التي
لا تحصى وكذلك ازداد تراث اللغة العربية زيادة وافرة بفضل المعاني الأجنبية التي
أدخلها الشعراء الأتجاجم أو الشعراء العرب الذين اختلطوا بالأمم غير العربية



وانه ليخيل الي ان أبا الطيب هو آخر مثال للشعر الناضج في الدولة العباسية
فقد أخذ هذا الشاعر عن سائر المتقدمين عليه وتلد أساليبهم واتحل معانيهم حتى ان
الدين جاموا من بعده لم يأتوا بشيء غريب بدع اللهم الا أبا العلاء المعري . ومع ذلك
فاني اري ان شيخ المعرة ثمرة غرس ابي الطيب لفظا ومعنى وبه اقتدى في الاسلوب
الكتابي كما اقتدى به . ولو بحكم السابقة . في طريقة اتحاء الحكم والملاحظات
الاخلاقية والالتقاد على العادات . و ابو الطيب اول من جلى في حلبة تلك الطريقة
واجاد فيها الا ان ابا العلاء كان اكثر منه مادة في هذا الباب بل ربما كان كل شعره
تقريبا فيه . - وهذه بعض امثله من شعر ابي الطيب ولا فرق بينها وبين شعر ابي

ولعل السبب في ذلك ان النقل من اللغة اليونانية لم يقصد لذاته بل قصر
لمعرفة اساليب الجدل والرد على غير المسلمين بحسب طرقهم في المناظرة فاقصد
النقل على علوم التفكير وحدها

ولعل السبب ايضا ان امراء اليونان الذين اقترح عليهم امراء المسلمين ان
يدلوهم على مختارات علومهم لينقلوها الى العربية ضنوا عليهم بكتب الادب او
راوا ان خير ما عندهم في الحقيقة انما هي كتب الحكمة واهملوا كتب الادب
عمداً . ويجوز ايضا ان المسلمين انفسهم لم يروا في الادب اليوناني ما يناسب
العادات والاخلاق الاسلامية فعدلوا عن نقلها . كل هذا جائز محتمل الا ان
تاريخ النقل عن اليونان موجز مقتضب يمكن تأويله بصور شتى

وقد ظن بعض الادباء ان ابا الطيب كان له الملم بالغة اليونانية لانه كثيراً
ما كان يتورك على حكم الفلاسفة ويوسع لها مجالاً في شعره ولكن النقل لا
يساعد على قبول هذا الظن

العلاء من حيث اللفظ ولا المعنى ولا الاسلوب . - قال في التهكم على المسلمين
أبلغ الدين أن تحفوا شواربكم؟ يا أمة ضحكت من جهلها باللام؛
مثل هذا التهكم قول أبي العلاء

فلا يفرتك من قرشنا زمر يتلون في الظلم القرآن والزمر (١)
ثم عرج على ذم كافور وذكر فيه الفاظ المبادئ الفلسفية فقال
فإنه حجة يؤذى القلوب بها من دينه الدهر والتعطيل واتقدم
وقال في هجاء ضبة يقارن بين الزواج والبغاء على سبيل السخرية
وليس بين ه لوك وحره غير خطبة
مثله قول أبي العلاء

مساجدكم ومواخيركم سواء فبعدا لكم من بشر (٢)
وقل وهو خطاب عام لكافة الناس . - «أما في هذه الدنيا كريم؟» الى أن يقول
وما أدري إذا داء حديث أصاب الناس أم داء قديم؟
مثله قول أبي العلاء

فلا تعذلينا ، كلنا ابن لئيمة
وقال في رثاء والده سيف الدولة
يدقن بعضنا بعضا ويمشى
وهو ما قوله أبو العلاء في مراثيه المشهورة
خفف الوطء ما أظن أديم الأرض
وقل أبو الطيب

وهذه الأجساد من نربه
فهذه الأرواح من جوه
مثله قول أبي العلاء
ان مات جسم فهذى الأرض تخزنه
وان نأت عنه روح فهي في الفلك (٤)

(١ و٢ و٣ و٤) الأوزم من لزوم ما لا يلزم (مختصر اللزوميات) لأحمد نسيم
ص ٨٦ و ١٠٦ و ١٠٨ و ١٤٥

وقد أشرنا إلى التشابه بين الشاعر بن وذكرونا حكم ابن خلدون ومشايخه في غير هذا الباب

المعاني المتداولة

يجي شاعرنا إلى المعنى الذي يدور بخلد كل إنسان وبصوره بعبارات يحسن اختيارها بحسب المناسبات فتارة يأتي بالفاظ فخمة تشع بالعظمة والجلال وطوراً بكلمات رشيقة تم عن رقة وسلامة ذوق إلى غير ذلك من الأساليب التي تظهر المعنى على الحقيقة التي يعهدا كل الناس ولكن لا يستطيعون أن يصوروها بحسب مكانتها من وجدانهم. من ذا الذي يجهل المعنى الذي يحتاج في صدر كل منا وهو قوله « ما كل ما يتمني المرء يدركه » أو معنى قوله « الرأى قبل شجاعة الشجعان » أو « آلة العيش صحة وشباب » أو « إذا أنت أكرمت الكريم ملكته » أو « مصائب قوم عند قوم فوائد » أو « رب عيش أخف منه الحام » إلى غير ذلك من الأفكار والمبادئ التي تعتبر أولية شائعة ولكل شخص منها قسط لا ينكره عليه أحد ، تلك المعاني التي استأثر بها أبو الطيب لنفسه بعد أن كانت ما كالأكل واحد حتى أكتأثها كانت مواتاً فأحيها فأصبحت له « بوضع اليد » كما يقول الفقهاء. فلا رواء في أن أكثر معاني أبي الطيب لاسيما المعروف منها والمتداول وأخصها التي اشتهر بها مشترك متعارف يقع تحت تناول جميع الناس . . . ومن هنا جاءت تهمة السرقة كما قدمنا

الشرح والتعليق (التوليد)

لم يكتب أبو الطيب بتصوير تلك المعاني من غير تصرف فيها ولم يقف عند حد إبرازها على ما يعهد به الناس دون أن يزيد عليها شيئاً من عنده . بل أنه يشرحها ويفسرهما ويوضح ما خفى منها ويكرر أوصافها أحياناً ويعلق عليها ويضيف إليها من الحواشي ما يحلها ويزينها . فتارة يشنعها بمثل وآونة يردفها بتشبيهه وطوراً يعقبها بمرادفات تفتح ما استغلق منها إلى غير ذلك من المحسنات . وهذه بعض أمثلة توضح ما أشرت إليه . ويكفي أن تضع بين شطري البيت أحدي أدوات الاستفهام لتظهر لنا طريقة

الشاعر في استخدامه النوع المعروف في علم المعاني بشبه كمال الاتصال وهو وقوع الجملة الثانية جواباً عن سؤال اقتضته الجملة الأولى:

«أفاضل الناس أغراض لذا الزمن» لماذا؟ «يخلو من الهم اخلاصهم من الفطن»
«من بين سهل الهوان عايبه» كيف؟ «ما لجرح بميت ايلام»
«لولا المشقة ساد الناس كلهم» لماذا؟ «الجود يفقر والاقدام قتال»
«وكل امرئ يبولى الجميل محبب» أردف بقوله «وكل مكان ينبت العزيب»
«وكن على حدر للناس تسره» شرحه بقوله «ولا يفرك منهم ثغر مبتسم»
«لح الله ذي الدنيا منا خالراك» فسر بقوله «فكل بعيد الهم فيها معذب»
«دقي كالسحاب الجوز يخشى ويرتجى» بينه بقوله «يرجى الحيا منها وتخشى الصواعق»
«وما قتل الاحرار كالمفوع عنهم» وأبدى أسفه بقوله «ومن اك بالحر الذي يحفظ اليدا»
ولا يرضى أبو الطيب في بعض الاحيان بتفسير واحد بل يعززه بثان وثالث فمن ذلك قوله

«وعن حاجة ترك الحديد سوادها زنجبا تبسم أو قدالا شائبا»
فانه لم يقتنع في هذا البيت بتشبيه واحد وهو «زنجبا تبسم» بل شفعه بتشبيه ثان وهو «أو قدالا شائبا»

وقوله رحلت فكم باك بأجفان شادن على، وم بك بأجفان ضيغم

لم يكتف بهذا التعبير بل زاد عليه ايضاحا فقال

وما ربة القرط المايح مكانه بأجزع من رب الحسام المصمم

ومن هذا النوع قوله

روح تردد في مثل الخلال اذا اطارت الريح عنه الثوب لم بين

كنى بجسمى نحو لا انى رجل لولا مخاطبق ايك لم ترى

وقوله:

اراك ظننت السلك جسعى فمقته عليك بدر من اقصاء الترائب

ولو قلم القيت في شق رأسه من السقم ما غيرت من خط كاتب

ولابن الطيب معنى جميل وهو قوله وو الجيش جيشك غير ابيك جيشه ، فهو
معنى كامل واضح كرهه في قوله

بالجيش تمتنع السادات كلهم . والجيش ابن ابى الهيجاء يمتنع
المعنى ظاهر . رأى ان الامراء يحتمون بجيوشهم ولكن سيف الدولة يحمي جيشه
بنفسه فشرح تلك الشطرة وفردها في ثلاثة ابيات فقال

والجيش جيشك غير ابيك جيشه في قلبه وبمينه وشم له
ترد الطمان المر عن فرسانه وتنازل الأبطال عن ابطاله
كل يريد رجاله لحياته امن - يريد حياته لرجاله

مثال آخر : « الرأى قبل شجاعة الشجعان » قدمنا ان هذا المعنى ليس من
مبتكراته وانما هو معنى معروف شائع يحس به كل الناس حتى العامة والسوقة فالفضل
لالشاعر هنا انه البس هذا المعنى المنداول اجمل ما يمكن من اللفظ مع السهولة والوضوح
والايجاز والسلاسة . ولو كان وقف عند هذا الحد لما طالبه احد بمزيد ولكن
الصنعة .. صنفته الخاصة - حكمت عليه ، كما يقولون ، فظهرت طريقته في الشرح والتفسير
والتوضيح والتعليق والحواشي مما رأيناها متفرقا في الامثلة المقدمة . فقال

الرأى قبل شجاعة الشجعان ان هو اول وهى المحل الثاني
فاذا هما اجتمعا لنفس مرة بلغت من العلياء كل مكان
ولربما طمن الفتى اقربانه بالرأى قبل تطاعن الأقران
لولا العقول لكان ادني ضيفم ادنى الى شرف من الانسان

رأينا في الامثلة المقدمة ان ابا الطيب يجيء بال قاعدة ثم يشرحها ويعلق عليها
ما يشاء . ولكنه في بعض الاحيان يفعل العكس اعنى انه يعرض افكارا متعددة
وتشبيهات مختلفة ثم ينتهي منها الى قاعدة تسير في الناس مسير الامثال من ذلك قوله

عجبت لمن له قدّ وحدّ وينبو نبوة القضم الكمام
ومن يجد الطريق الى المعالى فلا يذر المطى بلا ستان
(ولم أر في عيوب الناس شيئا كقتض القادرين على التمام)

وقوله عند ما سمع بأن قوما نعوه في مجلس سيف لدولة
يا من نعت على بعد بمجلسه كل بما زعم الناعون مرتين
كم قد قلت وكم فدمت عنكم ثم انتفضت فزال القطن والكفن
قد كان يشاهد دقي قبل قولهم جماعة ثم ماتوا قبل من دفنوا
(ما كل ما يتمنى المرء يدركه . تأتي الرياح بما لا تشتهي السفن)
يخيل الى أن أبا الطيب قد اكتسب هذا الأسلوب من ابن الرومي ، ولا يخفى
أن شاعرنا كان راوية ابن الرومي ، فلا عجب إذن ان اقتبس منه إحدى طرقه في التأليف
وطريقة ابن الرومي معروفة عند الأدباء ويعبر عنها المؤلفون بأقوال مختلفة تؤدي
الى معنى واحد ينطبق على أسلوب أبي الطيب الذي نحن بصدده وأنى مورد هنا حكم
اثنين من مؤلفي هذا العصر

قال جورجى زيدان في تاريخ آداب اللغة العربية عند الكلام على ابن الرومي
« واشتهر بالتوليد في الشعر لأنه أتى بكثير من المعاني لم يسبق اليها . ومن مميزات
انه لم يترك المعنى حتى يستوفيه ويمثله للفاري تمثيلا »

وقال الاستاذ الاسكندري في تاريخ آداب اللغة العربية في العصر العباسي عن
ابن الرومي : « نبغ في الشعر نبوغا لم يقصر به عن درجة البحري وربما فاق في
اختراع المعاني النادرة أو توليدها ، من معاني من سبقه بشكل جديد ووضعها في
احسن قالب »

هذا « التوليد » هو أسلوب أبي الطيب بعينه - ولو كان ابن الرومي قد منى
بأعداء من أهل الادب مثل من رزى بهم ابو الطيب لمكانوا سموا التوليد « سرقة »
وشنعوا على ابن الرومي كما نالوا من عرض المتنبي

الاسلوب التعليمي والاسلوب الخطابي

يتبين مما تقدم أن أسلوب الكلام في شعر أبي الطيب إنما هو الاسلوب التعليمي
او الخطابي . اذ كل من المعلم والخطيب يجتهد في تثبيت ما يقوله في افهام سامعيه

فيكرر المعنى ويعيده بطرق شتى ثم يتركه أحيانا ويعيد عليه الكرة مرة بعد مرة حتى يرسخ في الاذهان

ومما يؤيد فكرة الاسلوب التعليمي في شعر أبي الطيب أن ذلك الشاعر يجتهد ما استطاع في أن يجعل كلامه بمثابة قواعد عامة فنجد أن الشطرة الواحدة قضية مستقلة بذاتها يتخذها الناس مثلا... وأكثر ما يكون ذلك في مطالع قصائده والأمثلة على ذلك في ديوانه لا نحصى ونذكر بعضاً منها مكتفين بإيراد مطالع القصائد لتكون مثابة للرائد

(أعلى الممالك ما يبني على الأسفل) (هو الزمان مشيت بالذي جمعا)

(لا افتخار الا لمن لا يضام) (على قدر اهل العزم تأتي العزائم)

(ضروب الناس عشاق ضروبا) (لكل امرئ من دهره ما تعودا)

(انما التهنئات للأكفاء) (الرأي قبل شجاعة الشجعان)

(طوى النفوس سريرة لا تعلم) (الحزن يقلق والتجمل يردع)

(قد شغل الناس كثرة الأمل) (عذل العواذل حول قلب التائه)

(أبعد نأى المليحة البخل) (أحق عاف بدمعك الهمم) الخ الخ

فكرة لا اخالها الا حدساً ونخبياً وربما أصابت الحقيقة : ألا يجوز أن يكون ابو

الطيب في حبه لوضع القواعد العامة في مطالع قصائده مقلدا لامامه وامام الجميع أبي

تمام صاحب المطامع المشهور : « السيف أصدق انباء من الكتب »

هذه فكرة أبدعها ولا أخوض فيها

في شعر أبي الطيب ما ينم على حبه للوعظ والظهور بمظهر الناصح فتكثر فيه

الأوامر والنواهي ، يبدى الآراء ويضرب الامثال ، وهذا ما يسميه ادباء الغرب

« لهجة الاستاذية » وأراها مطية الغرور في الشاعر لا سيما اذا كان مرعي كلامه للكبراء

والامراء - الا ان هذا العيب لا يظهر في شعر المتنبي لأنه يحسن الانتقال ويحكم

التأليف بين اجزاء الكلام فلا يحس أحد منه بالخروج عن الموضوع كما يحس بذلك

في كلام غيره . - جرت وخشة بين الأستاذ كافر والامير أبي القاسم مدة ثم اصطلمها
فقال ابو الطيب قصيدته التي مطلعها

حسب الصالح ما اشتهته الأعدى وأذاعته السن الحساد
وفيها يقول لكافور

يا أيها انت والد والأب القاطع أخى من واضل الأولاد
ثم وجه الكلام الى الممدوحين

لا عدا الشر من بغى لكما الشر وخص الفساد أهل الفساد

انما ما اتفقما الجسم والروح فلا احتجما الي العواد

واذا كان في الأنايب خلف وقع الطيش في صدور الصعاد

أشمت الخلف بالشرارة عداها وشفى رب فارس من ايد

وتولى بنى البيزى بالبصرة حتى تمزقوا في البلاد

وملوكا كأمس في القرب منا وكطسم واختها في البعاد

وهذه جراءة من الشاعر اذ يقف بين يدي اميرية ويقول لها: اياك والاختلاف
فان سلامتكما في الاتفاق وحنار من ان يقع بينكما الخلف الذي قضى على غيركما من
الامم الغابرة الى اخر ما ضربه لها من الامثال

وفي قصيدة اخرى نصح لكافور بان يقصد في الجود

فلا ينحال في المجد ملك كاه فينحل مجد كان بالمال عقده

ودبره تدبير الذي المجد كفه اذا حارب الأعداء والمال زنده

فلا مجد في الدنيا لمن قل ماله ولا مال في الدنيا لمن قل مجده

ومهما قال الادباء في هذه الابيات من أن الشاعر يخاطب جاهلا احق او
ارتأولغير ذلك من الآراء فان ابا الطيب وضع نفسه موضع المعلم المرشد او الواعظ
الناصح وهو ما يؤلم الممدوخ مهما كان أبعد الناس عن الأدب .

« أحدث بنو كلاب حدثا بنواحي بالمش وسار عفيف الدولة خلفهم وابو الطيب
معه فأدركم بعد ليلتين بين ماءين يعرفان بالغبارات والخرارات فأوقع بهم وملك الحرير

فأبقى عليه « فقال المتنبي

ترفق أيها المولي عليهم فان الرفق بالجاني عتاب
وانهم عبيدك حيث كانوا اذا تدعو لحادثة اجابوا
وعين المخطئين هم وايسوا بأول معشر خطئوا فتابوا -
وانت حياتهم غضبت عليهم وهجر حياتهم لهم عقاب

وهو من أجمل ما يسدى من النصيح للأمرء عند ظفرهم بالمخطئين من رعايهم .
وقد أورد عمدة النقاد ابن رشيق هذه الايات بين مختارات ما قيل في الشفاعة

لدى الملوك

من هذا النوع حكمه التي يأتي بها في أثناء قصائده ولا يكون لها علاقة بما قبلها
ولا بما بعدها كأنما تنتابه حتى الوعظ فيخرج من موضوعه الى ضرب الامثال ثم يفتق
من بحرانه ويعود الى موضوعه . ففي قصيدة . « أرق على أرق ومثلي بأرق » وقصيدة
« لهوى النفوس سريرة لا تعلم » . نجد الحكم والامثال المرصوفة بعضها تلو بعض

الاسلوب الخطابي

للاسلوب الخطابي معني آخر ارمي اليه . لكلام الخطباء من العرب ولا سيما
الجاهليين منهم ومن جاء بعدهم في الدولة الاموية طريقة خاصة تظهر فيها النعرة
العربية والآباء المشهور عن أهل البدو . وهذا أول مميز يختص بصيغة الكلام في
مجموعه . وهناك مميزات اخرى ان أحدهما يتعلق باللفظ وهو لختبار التراكيب السهلة لتقريب
المعاني من افهام السامعين ثانيهما يتعلق بموضوع الكلام نفسه وهو التفاخر والانذار
والتهديد والادعاء أحيانا والفتنة في كثير من الأوقات . وكل القصائد التي جعلها
اهل الادب في باب الفخر متشعبة بهذه الروح (١) . تلك القصائد تقال في احوال

(١) يقول عمرو بن كلثوم في معلقته

وقد علم القبائل من معد اذا قيب بابطحنابنينا
بانا المطعمون اذا قدرنا وانا المهلكون اذا ابتلينا

خاصة كالمحاكاة وغيرها وهي عند العرب أشبه شيء بمرافعات المحامين أو خطاب النواب أو منشورات قواد الجيوش في أيامنا . فالسليقة العربية ترى ممتزجة بالشعر ، والإلفاظ والتراكيب سهلة مفهومة حتى تسير بها الركبان والموضوع في الغالب لا يخرج عن ارضاء عواطف ومداواة كبر مجروح . فالموضوع اذن قليل الافكار ولكن المقصود منه اقناع السامع بصحته : معنى يسير في لفظ كثير أو بعبارة اخرى سكير حريص يخطأ خرة بماء كثير او مدمن على الصهباء يقتل من سورتها بالماء

وخطاب زعماء الامويين ورجالهم كزياد بن ابيه والحجاج بن يوسف الثقفي مصبوبة في هذا القالب منسوجة على هذا المنوال
اقول أن هذا الاسلوب الخطابي كثيراً ما يسمّى في قلب أبي الطيب فيوحى اليه شعراً شبيهاً بالشعر « العنتري » المشهور من ذلك قوله

انا ابن اللقاء ، انا ابن السخاء	انا ابن الضراب ، انا ابن الدعان
انا ابن الفيافي ، انا ابن القوافي	انا ابن السروج ، انا ابن الرعان
طويل النجاد ، طويل العماد	طويل القناة ، طويل السنان
حديد الحياض ، حديد الحفظ	حديد الحسام ، حديد الجنان
يسابق سيفي منايا العباد	اليهم كأنهما في رهان

وانا المانعون اذا أردنا	وانا النازلون بحيث شينا
وانا التاركون اذا سخطنا	وانا الآخذون اذا رضينا
وانا العاصمون اذا اطعنا	وانا العارمون اذا عصينا
ونشرب ان وردنا الماء صفوا	ويشرب غيرنا كدرا وطينا
لنا الدنيا ومن امسى عليها	ونبسط حين نبسط قادرينا
بغاة ظالمين اذا ظلمنا	ولكننا سنبدأ ظالمينا
ملاؤنا البر حتى ضاق عنا	ونحن البحر نملؤه سفينا
اذا بلغ الرضيع لنا فطاما	تخر له الجبار ساجدنا

واني وفيت واني ايت واني عتوت علي من هنا

وما كل من قال قولاً وفي ولا كل من سيم خسفاً بي (١)

لي غير ذلك من اقوال الادعاء والغرور

ومن مقتضيات هذا الاسلوب الخطابي تكرير اللفظ الواحد او الجملة الواحدة كما جاء في قوله تعالى « يا قوم » وفي سورة الرحمن « فبأى آلاء ربكما تكذبان » وفي سورة اقتربت الساعة « فهل من مدكر » وفي سورة المرسلات « فويل يوهنذ للمكذبين » . او قول الشاعر الجاهلي الحرث بن عباد « قرباً مربوط النعامه مني » وقول هبل « وقرباً مربوط المشهر مني » . فقد ورد في شعر المتنبي شيء كثير من ذلك قوله
وانك بالامس كنت محتلماً شيخ معد و انت امردها
(وكم وكم) نعمة بحللة ربيها كان منك مولدها

(١) واشجع مني كل يوم سلامتي
تمرت بالافات حتى تركتها
واقدمت اقدام الابي كأن لي
ذر النفس تأخذ وسمها قبل بينها
ولا تحسبن المجد زقا وقينه —
وتضريب اعناق الملوك وان تري
وتركك في الدنيا دويماً كأنما
وكم من جبال جبت تشهد اني ال
سيعلم الجميع ممن ضم مجلسنا
انا الذي نظر الاعمى الى ادبي
وجاهل مده في جهله ضحكى
اذا رأيت نيوب الليث بارزة
انجيل والليل والبيداء تعرفني
وما ثبتت الا وفي نفسها امر
تقول امات الموت أو ذعر الدعر؟
سوى مهجتي أو كان لي عندها وتر
ففترق جاران دارها العمر
فما المجد الا السيف والضربة البكر
لك الهبوات السود والعسكر المجر
تداول سمع المرء انمله العشر
جبال وبحر شاهد اني البحر
بانني خير من تسمي به قدم
واسمعت كلماتي من به صمم
حتى اتته يد فراسه وفم
فلا تظن ان الليث يتسم
والسيف والرمح والقرطاس والقلم

(ويكم) حاجة سمحت بها اقرب مني الى موعدها

ذى المعالي فليعلمون من تعالى (هكذا هكذا والارفا لالا)

احب التي في البدر منها تشابه

(الى) واحد الدنيا الي ابن محمد

(الى) الثمر الحلو الذي طيء له

(الى) سيد لو بشر الله امة

(الى) القابض الأرواح والضعيف الذي

(الى) رب مال كما شئت شمله

ان (حل) في فرض فنيها ربه

او (حل) في روم فنيها قيصر

(وهن) مع السيدان في البرعتل

(وهن) مع الغزلان في الواد كمن

(فلم يخل) من نصر له من له يد

(ولم يخل) من اعمانه هود منبر

حاشي (كملك) ان تكون بخيلة

(ولمثل وصلك) ان يكون ممنا

(ولمثل وجهك) ان يكون عبوسا

(ولمثل نيلك) ان يكون خبيسا

الاسلوب التمثيل

قد عرف الناس التمثيل في زماننا ولا حظوا اللغة التي يتخاطب فيها للمثلون هي المراسح وهي بالطبع ليست لغة الجمهور الاعتيادية، كما ان حركاتهم واشاراتهم ليست بالشيء المعهود في شؤون الحياة، وكذلك الوان وجوههم فنما على الدوام تتجاوز حد المعتاد - أم ما يري على المراسح انما هو تصوير العواطف المختلفة مكبرة موضحة

بالأقول والأفعال . فالعاطفة الضعيفة التي لا تكاد تدرك إلا من وراء حجاب تراها على المراسح ناصعة جلية . فالعنى الذى أرمى إليه من حيث « الاسلوب التمثيلي » إنما هو ذلك الاسلوب الذى تظهر فيه الانفعالات النفسانية وتكثر فيه حركات العواطف بصورة ملحوظة تذكرنا بتلك الأقوال التي نسميها على مراسح التمثيل . فهذا النوع من الكتابة يتلاقى به الناظر كثيرا في شعر أبى الطيب - فلا استفهام والتعجب والأسف وترديد النداء ومسألة النفس والانفعالات المختلفة التي ذكرنا بعضها في الاسلوب الخطابي تراها مستحكمة الحلقات في شعر أبى الطيب - واليك بعض الأمثال

قال أبو الطيب في مطلع إحدى قصائده

أحيي؟ وأيسر ماقاميت ماقطلا والحب جار على قلبي وما عدلا
فهذا الاقتراح نشاهد أمثاله على المراسح - او المراسح - كأن ترفع الستار عن مكان خال ثم يندفع فوق المرسح من أحد مداخله ممثل بصيغ وآ أسفاه ! او يضحك ويقهقه أو يهدد ويتوعد وينادى بالويل والثبور الى غير ذلك من الانفعالات واليك أمثلة من شعر المتنبي

اصخرة أنا؟ مالى لا تمركنى هذى الكؤوس ولا هذى الأغاريد؟
وما قتل الأحرار كالعفو عنهم ومن لك بالحر الذى يحفظ اليدا؟
- عبيد؟ بأية حال عدت يا عبيد؟ بما مضي أم لأمر فيك تجديد؟
وهذا الاسلوب التمثيلي يستلزم استعمال كثير من اشارات التعجب وأدوات الاستفهام وغيرها - انظر الى قوله في الاستعطاف

يا بدر! يا بحر! يا غمامة! يا لث الشرى! يا حمام! يا رجل!
وفي المداعبة

أريقك؟ أم ماء الغمامة؟ أم خمر بني برود . وهو في كبدى جمر
أذا الفصن؟ أم ذا الدعص؟ أم أنت فتنة؟ وذيا الذى قبلته البرق أم ثغرة؟

إذا عدلوا فيها أجت بأنة حيدى قلبي! فوادى انيا جمل!
وفي كافور والأسف آخذ منه مأخذ

أمينا؟ وأخلاقا؟ وغدراً؟ وخسة؟ وجبنا؟ أشخاصا حتى؟ أم مخازيا؟
وفي رثاء فانك

أين الذي الهرمات من بنيانه ماقومه؟ ما يومه؟ ما المصراع؟
وقوله وهو غضبان

ويلمها خطة! ويلم قلبها لمثلها خلق المهرية القود
وقوله وهو حزين كئيب

أردد د ويل! لو قضى الويل حاجة وأكثر د لفي! لوشفي غلة لطف
«أوه!» بديل قولتي د واها! لمن نأت والبديل ذكرها
د أوه! لمن لأرسي مع اسنها وأصل «واها» و «أوه» مرآها

فهذه الافعال تشترك في نقطة واحدة وهي أنها كلها تعبر عن انفعالات شديدة ولا بد لمن يريد ان ينشدها على وجهها ان يعطيها من الصوت والنغمة ما يناسبها فان فعل ظنه السامع ممثلاً في ملاب يؤدي دوراً من الادوار الانفعالية وهنا أيضاً أبدي فكرة ولا أتعرض لتأييدها ولا لدحضها : الا يجوز أن يكون ابو الطيب في أسلوبه هذا وكثرة استعماله لأدوات التعجب والاستفهام مقلداً لدعبل الخزاعي في قوله المشهور

أين الشباب؟ وأية سلوكا؟ لا! أين يطلب؟ ضل بل هلكا!
ودعبل يعد من فحول الشعراء الذين يقتدى بهم في أسلوبهم والاستاذ الاسكندري يقول عنه « كان دعبل في منزلة أبي تمام عند كثير من أهل الادب (١) »

(١) تاريخ آداب اللغة العربية في العصر العباسي ص ٨

القسم الثاني

مميزات صنعة أبي الطيب وخصائصها

الطبع الموسيقي

قد يبرزق الشاعر اذناً ذات استعداد خاص لتقدير الاصوات ونغمتها
وتابعها وجرسها ورنينها ونبراتها ، فلا ترتاح الا اذا وقعت بين هذه الحركات
والفت منها مقطعات كالغناء موزونة وزنين: وزن الشعر ووزن التوقيع الموسيقي
ف نفس السامع (١) لهذا الشعر وتهتزله وتبكي منه احياناً - على انه لا يتضمن
ولا يكتسى لفظاً جزلاً ولكنه قد ارضى اذن السامع قبل كل شيء فتخددت
بذلك وغفلات عن الا ~~بعض~~ المطلوب تحققها في الشعر - والشاعر الذي يجيده
من الشعر لا بد ان ~~يكون~~ اذا استعداد موسيقي ولم يوفق الي الاشتغال بفنه الذي
لاجله - فالشعر الموسيقي ليس فيه الا ارضاء الاذن ولو بدون ارضاء الوجه
العقل - وقد خدمت ابا الطيب اذنه في كثير من المواضع كما انه فضل الخطأ
الضعيفة من اجل ارضاء اذنه . ولا اظن غرام شاعرنا بقياس الشطرة على الش
البيت الواحد قياساً موسيقياً الا نتيجة طبع فيه - انظر الي قوله

يامن الوذ به فيما اوله ومن اعود به مما احاذره

تجد فيه راحة السمع تسبق ارضاء الفهم وما ذلك الا للنغمة التي تتردد في ال
أكثر شاعرنا من هذا التوقيع فصح فيه قول ابن الاثير في البحري « ارادا
فني » والبك بعض الامثلة

الدهر معتذر ، والسيف متظفر وأرضهم لك مصطاف ومرتبغ

للتني ما نكحوا ، واقتل ما ولدا والنهب ما جمعوا ، والنار ما زرعوها

يستشهد الادباء بهذين البيتين على نوع من البديع هو « حسن التقسيم »

أراهم قد رموا الي غرض بعيد وهو تأثير المعنى في الفهم ولم يحفلوا بالغرض القر

(١) السامع أو القارئ على حد قول المتنبي : « كالخط يملأ مسمعي من

في السمع مع أن العقل لا يفكر إلا بعد أن تصل إليه الأصوات من طريق
، الشعر جاء أولاً من تقطيع الآيات بالشكل المهورد والتأثير هنا تأثير نفحات قبل
، النظر إلى المثال الآتي

جيش كأنك في أرض تطاوله فالأرض لأأم والجيش لأأم
إذا مضى علم منها بدا علم وإن مضى علم منه بدا علم
نك ترتاح إلى توقيعه مع أن المعنى لا يدرك إلى بعد تفكير . - مثال آخر
هوجية ملء الطرق خلفهم والمشرقية ملء اليوم فوقهم
، تستعذب تقابل النفحات في الشطرين ولو أنك تجهل « الأهوجية » مثلاً
، المنسوبة الأعوج (فرس كريم) . -

جمع هذا الحسن إلى السجع المرصع وإن لم يكن كاملاً أو إلى مجرد السجع
النظم (١) كقوله

الوغى ، والقنا ، والتازلات به والسيف ، والضيف ، رحب الببال جذلاتنا
كواهب ، والجرد السلاهب ، والبيض القواضب ، والمتالة القبل

يقته في تقطيع الشعر أنه يجيء في البيت بعدة كلمات من وزن واحد :

في شأنه ، ولسانه ، وبنانه ، وجهانه ، عجب لمن يتفقد

الناعمات ، القاتلات ، الهيات ، المبيدات ، من الدلال عجائبها

وترى المروة ، والفتوة ، والأبوة ، في كل مليحة ضراتها

يجيء بكل كلمتين من وزن واحد كقوله

متلف مختلف ، وفي أبيّ عالم حازم ، شجاع جواد

يقطع شطرة البيت إلى قسمين غير متساويين . ويفهم هذا التقطيع عند

لما تدهورت الآداب ارتقى شأن السجع وحده . لأن الناس في أدوار
للال ينصرفون عن تحصيل ما يمرون به عقولهم أو يوقفون به وجدانهم
، من الأدب إلا بعض نفحات يطربون بها آذانهم

الانشاد الصحيح بالطبع - مثال ذلك -

- مهلا ، فان العذل من اسقامه
- اذا صلت ، لم اترك مصالا لفانك
- بفرع يعيد الليل ، والصبح نير
وفي بعض الاحيان يخيل للسامع ان البيت سؤال وجواب أو قول واعتراض
نري عظما بالبين - والصد اعظم
والغالب في طريقته انه يقطع الشطرة الي جزئين متساويين - فالشطرة الاولى كقوله
والطامن يحرثها ، والزجر يلقاها
- ينفك العناة ، وينفي العناة
- صريع مقلتها ، مآل ذمتها
مرجو منعمة ، مخوف اذية
حتى كأن بها ضربا من الاعم
وينفر للمذنب الجاهل
قتيل تكسير ذلك الجفن والامس
مغبوق كأس محامد مصبوح

وقد يجيء هذا التقطيع في الشطرة الثانية كقوله

وحائن اعبت شم الرماح به
- ناديت بحدك في شعري وقد صدرا
وكثيرا ما يقطع الشطرين معا كقوله
والمرء يأمل . والحياة شبيهة
- يقذف الفناء . غداة اللقاء
- فيد مسامة . وطرف شاخص
- أناته فدنا . أدنيت فأنى
- فالوت أهدرتي ، والصبر أجلى
- قليل عاندي ، سقم فؤادي
عليل الجسم . ممتنع القيام
فالعيش هاجره ، والنسر زائره
ياغير متمحل ، في غير متمحل
والشيب أوقر . والشببية أنزق
الي كل جيش . كثير العديد
وحشا يذوب . ومدمع منفوح
جمشته فنيا . قباته فاني
والبر أوسع . والدنيا لمن غلبا
كثير حاسدي . صعب جراحي
شديد السكر . من غير المدام (١)

(١) أمثلة أخرى

نعج محاجره ، دعج نواظره
حمر غفائره ، سود ثم دائره

نحكك مقصود ، وشانك مضموم ومثلك مفقود ، ونيلك خضرم
ويصادف في شعره انه يقطع البيت بأكمله الى ثلاثة أقسام كقوله
- ويميت قبل قتاله . ويش قبل نواله . وينيل قبل سؤاله
- الشمس من حساده . والنصر من قرنائه . والسيف من اسمائه
- حق الكواكب ان تعودك من عل كعودك الآساد من غاباتها
والجن من ستراتها . والوحش من فلواتها ، والطير من وكناتها (١)

تكرير اللفظ (الترديد)

في ديوان أبي الطيب أشعار كثيرة يكرر الشاعر فيها كلمة واحدة فيجىء التكرير
في بعض الأحيان حسنا مستلزما وفي بعضها قبيحا مستنكرا . - يقول في أبي العشائر
(نسي) له : (نسي) الفداء (لنفسه) ! ولكن بعض المالكين عنيف
فان التكرير هنا في لفظ « نفس » مقبول الا انه غير مستحسن في مثل قوله
- يعطي فاعطي من لى يده اللى
- (عشائة) عيش ان (تغث) كرامى
- و(حمدان) (حمدون) و(حمدون) حارث
- (عظمت) فلما لم تكلم مهابة
و (ترى) (برؤية) (رأيه) (الآراء)
وليس (بغث) ان (تغث) المآكل
وحارث اقامت واقامت راشد
تواضعت وهو (العظم) (عظما) عن (العظم)

قد حزن في بشر . في تاجه قر
حلو خلأثقه . شوس حقاآثقه
- ومن بعده فقر . ومن قر به غنى
لهم أوجه غر . وأيد كريمة
وأردية خضر . وملك مطاعة
(١) وله في هذا التقسيم صناعة أدق مثل قوله (والترصيع هنا أظهر)
الحازم اليقظ الأغر : العالم الفطن الألد : الأريحي الأروعا
الكاتب للبق الخطيب : الواهب النديس اللبيب ، الهبرزي المصقعا

- ومن (جاهل) (بى وهو يجهل) (جهله) و (يجهل) علمي انه بى (جاهل)
- الى امرى قصد كل (عجيبة) كائى (عجيب) في عيون (العجائب)
يستملح له بعض أصحاب البديع قوله

الهامل الهن ، ابن الهامل الهن ابن الهامل الهن ، ابن الهامل الهن
ولعل أبا الطيب كان يرى هذا العيب ولكنه في الوقت نفسه كان يستحسن وقع
الكلمة في أذنه اذا ترددت كأنها نعمة موسيقية متكررة

يقول ابن رشيق صاحب كتاب العمدة في باب « التريد » وسمع أبو الطيب
استحسان هذا النوع فجعله نصب عينه حتى مقته وزهد فيه ولو لم يكن الا بقوله
(فقلقت) بالهم الذي (قلقل) الحشا قلاقل (عيس) كهن (قلاقل)
فهذه الالفاظ كما قل كما قلقت ونحو ذلك قوله

(اسد) فرائها (الاسود) يقودها (اسد) تكون له (الاسود) ثعالبها
فما أدري كيف تخلص من هذه الغابة المملوءة اسودا « (١)

وفي قصيدة له مدح بها أحد القضاة ترى مثالا ليس أدل منه على حب أبي الطيب للتريد:
ولست بدون يرتجى الفيث دونه ولا مبتغي الجود الذي خلفه خلف
ولا واحداً في ذا الوري من جماعة ولا البعض من كل والكك (الضعف)
ولا (الضعف) حتى يتبع (الضعف) (ضعفه) ولا (ضعف) (ضعف) (الضعف) بل مثله الف
أقاضيها هـ - ذا الذي انت أهله غلطت ! ولا اثنتان هذا ولا النصف !
الا ترى كيف انتقلنا من الشعر والخيال الى عمليات حسابية وهائل رياضية بل والى
متواليات هندسية لانتهاها كتب اللغة وأما نتهاها جداول الاوغاريتم ١ ٢ ١

كثرة العطف وشبهه (العدد) (٢)

ذكر صاحب « يتيمة الدهر » من ضمن محاسن شاعرنا « حسن سياقه العدد »

(١) ص ٤ ج ٢ (٢) يقابل هذا التعبير عند الفرنسييس Le nombre

وهي مصادفة عجيبة لأنها ترجمة لفظية

على ان سياق العدد قد يجيء منه الحسن كما يجيء منه القبيح والذي يميز هذا النوع من التأليف هو استعمال حروف العطف (ولم يتعرض الله الى الالحرف الواو) وللمتنبي نوع شبيه بهذا حيث يصف الكلمات بعضها تلو بعض . وهذا النوع أيضا كما يجيء منه الحسن يجيء منه القبيح . - كل المتأدين يحفظون بيت المتنبي :

الخيل والابل والبيداء تعرفني
والسيف والرمح وقرطاس والقلم
ولكن يخيل لي ان كثيراً منهم لا يلتفتون الى ان الشاعر قد جاء بسبع معطوفات في بيت واحد وهو شيء مستنكر لو لم تفصل بين جزء منها والجزء الآخر كلمة تعرفني . انظر كيف ظهر العطف « او سياق العدد » كما يقولون في البيتين الآتيين على غير ما ظهر به في البيت السابق :

ان تنقه لائق الا جحفا
او قسطلا او طاعنا او ضاربا
او هاربا او طالبا او راغبا
او راهبا او هائكا او نادبا
لا ريب ان تتابع عشر معطوفات آخذ بعضها برقاب بعض ، او بأذنان بعض ، مما لا يستحسن ولا يعد فخراً للشاعر . ولكن للشاعر لذة من هذا الجمع لا يستطيع أن يتنازل عنها وهي نعمة كل كلمة على حدثها وسياق هذه الكلمات التي اوتيت في القياس والوزن (١) . - أما شبه العطف الذي أشرت اليه فلا يبالغ من الكثرة في شعرا أبي

(١) أمثلة أخري

بم التعلل ؟ لا أهل ، ولا وطن ؛	ولا نديم ، ولا كأس . ولا سكن
- هذه دولة المكارم . والرأ	فة . والنجد . والندى . والايادي
- دعاني اليك العلم ، والحلم ، والحجبي .	وهذا الكلام النظم ، والنائل النثر
- الواضحين ابوات ، وأجبنة .	ووالدات ، وألباب . وأذهانا
- للشمس فيه ، وللسحاب ، واللبحا	ر ، وللأسود ، وللرياح شمائل
- ولديه ملعقيان . والأدب المنا	د ، وملحياة ، وملهمات مناهل
- فتاة تساوى عقدها ، وكلامها ،	ومبسمها الدرر ، في الحسن والنظم
ونكبتها ، والمندلي ، وقرقف	معتقة صهباء في الريح والطعم

الطيب ما باع العطف . - قل في وصف درعه

... .. ولكن قمى مسرودة من حديد
لامة ، قاضة ، اضاة ، دلاص ، احكت نسجها يدا داوود
وفي احد ممدوحه

تاج اوى بن غالب وبه مما لها فرعها ومحمدها

شمس ضحاها ، هلال ليلها ، در تقاصيرها ، زبرجدها (١)

ومما لأستماحه ولو ان فيه شيء من التقسيم والمقابلة « وفيه ٢٦ صفة »

دان ، بعيد - محب ، مبيض - بهج - أغر - حلو ، عمر - ابن ، شرس

ند - أبي ، غر ، واف ، اخي ثفة - جماد - سرى - نه - ثذب - رض - ندس

وشرمه « وفيه ١٤ فعل أمر »

أقل . أنل . اقطع . احمل . عل . سل . أعد

زد . هس . بش . تفضل . ادن . سر . صل

وأخف منه قليلا « المقابلة والتقسيم » وفيه ١٠ أفعال ماضية

قدروا . عفوا - وعدوا . وفوا - سئلوا - أغنوا - علوا . أعلوا - ولوا . عدلو

آثار البداوة

الغريب : حب الغريب من اللفظ لذة يشعر بها فرتق من الكتاب والادباء

تعتر بهم في كل عصر وفي كل مكان ولا يمكن لأحد ان يعيب عليهم هذا العشق

« وللناس فيما يشقون مذاهب » وعندنا اليوم في مصر بعض من لهم هذا الغرام

بغريب الالفاظ وهم من أهل الفضل والادب بلا نزاع

(١) مثال آخر

ذات فرع كأنما ضرب العنبر فيه بماء مسك وعود

حالك كالغدا ف ، جتل ، دجوجي ، أثيث ، جمعد ، بلا تجميد

ينحيل الي ان الكاتب أو الشاعر كلما كانت نزعته الى البداوة كلما زاد ميله الى استعمال الغريب من اللفاظ اللغة ولكنه كلما انحاز الي التحضر كلما رغب في المؤلف من الالفاظ . واذ كان أبو الطيب ميالا الى البداوة متعصبا للاعراب يشبب بالبدويات ولا يرى الحسن الا فيهن فاعل هذا الطبع الفطري هو الذي حجب اليه الغريب وجهه يرغب عن المؤلف المتعارف من أجل الوحشي المهجور (١)
وكثيرا ما ضيع بهجة البيت الظريف بكلمة مستغربة لا يعرفها الا من رزق الصبر على البحث في خبايا اللغة ومجھولاتها كقوله

لقيت المروى والشناخيب دونه وجبت هجيرا يترك الماء صاديا
انظر كيف ضاعت روعة الشطرة الثانية أمام « شناخيب » الشطرة الاولى .
فمثل هذا الشعر نظم جميل يليق بالأراجيز التي هي مأوى الغريب . وغاية ما يمكن أن يقال عن أبي الطيب بهذه المناسبة أنه قد أنزل هذه الالفاظ غير منازلها

الأراجيز : والذي حفظ شعر أبي الطيب من غلبة الغريب عليه ، أن شاعرنا كانت تنتابه من آن لآخر نوبة هي أشبه بالحفي يهذي فيها بالغريب ويخرج كل ما بقى عالقا منه بنفسه في صورة أرجوزة يختمف بها ما كان مرتكزا على صدره من هذا الحمل الثقيل . من هذه الأراجيز « ومنزل ليس لنا بمنزل » وهي - هلة بالنسبة لغيرها وفيها قول الشاعر :
فحل كلابي وثاق الأهل . عن أشدق ، مسوجر ، مسلسل . أقب ، ساط ، شرس ، شمردل
وفي هذه الأرجوزة وصف لكلب الصيد قل ان بجي ، بمثله شاعر . وأرجوزة
« وشامخ من الجبال أفود » وفيها وصف الصيد . وأرجوزة « ما للروح الخضر والحدائق »
قالها عند ما جرد الثلج بأرض انطاكيا وتعذر الرعي على مهره . - ومنها قطع صغيرة مثل
قوله « لا عدم المشيع المشيع » قالها عند ما شيع سيف الدرلة عبده بمك لما انفذه الى
الركة وأخرى : « ان كنت عن خير الأنام سائلا » قالها لسيف الدرلة في المفاضلة بين

(١) الامثلة كثيرة في شعر المتنبي كالجرشي والمخشب والمسبطر والسفاسق والشوذانق والعنتريس والخازبار .

العرب والأكراد وأرجوزة :

« حجب ذا البحر بحار دونه . يذمه الناس ويحمدونه »

قالها عند ما مد نهر قويق فأحاط بدار سيف الدولة وخرج أبو الطيب من عنده فبلغ الماء الى صدر فرسه . وأرجوزة

« ما أجدر الأيام والليالي بأن تقول ماله ومالي »

قالها في غضد الدولة وفيها وصف الصيد وصفا مفصلا

الافات الشاذة أو الضعيفة أو المختلف فيها : عرف عن أبي الطيب أنه يسخف

أحيانا بقواعد اللغة والأعراب أو يمجى . بنير المشهور (وقد تقدم رأى ابن رشيق والثعالبي في ذلك انظر ص ١٥٢ و ١٦٤ من هذا الكتاب) - وأمل هذا الضرب من التأليف

قد أداه اليه حبه للغريب . فيستعمل لفظه (السم) بدل (الاسم) في قوله

أشاروا بتسليم فجدنا بأنفس نسيل من الآماق والسم أدمع

أو (التوارب) بدل (التراب) في قوله « أيفطمه التوارب قبل فطامه ؟ » ويجمع (ارض) على (اروض) :

اروض الناس من ترب وخوف وأرض أبي شجاع من أمان

ويجمع (دار) على (أدور) :

أحبه والهوى وأدوره وكل حب صباة ووله

ومثل ذلك غريب التراكيب :

حات اليه من لساني حديقة سقاها الحجي سقي الرياض السحائب

أى سقى السحائب الرياض - وقد ذكر العكبري في شرح هذا البيت عدة آيات

لشعراء آخرين استشهدا على وقوع مثل هذا القلب أو التقديم والتأخير

انه يحذف (ان) المصدرية قبل المضارع مثل قوله

يدرى بما بك قبل () نظيره من ذهنه ويحبب قبل () تسائل

- اشفق عند انقاد فكرته عليه منها أخاف () يشتعل

- اقر جلدي بها على فلا اقدر حتى المات () انكرها

نو توقدت أنفاسنا حتى لقد أشفتت () تحترق العواذل بيننا
فيحذف (ان) ويبطل عملها ولكنه في المثال الآتي يحذفها ويبقى عملها أي يجعلها
تنصب المضارع على خلاف مذهب البصريين :

بيضاء يمنعها - (تكلم) دها تها ويمنعها الحياء (نيسا)
بدل ان تكلم وان نيس - وكذلك نراه يحذف نون من قبل الاسم المعرف بأل فيقول
نحن ركب (مانجن) في زى نس فوق طيرها - ا شخصوا الجمال
- ندى الخزامي اذفر القرنفل محال (ملوحش) لم يحلل
- ولديه ملعقيات والأدب المفا د و (ملحية) و (ملهات) مناهل
بدل من الجن ومن الوحش ومن العقيان ومن الحياة ومن الممات

وأبو الطيب لا يعجزه الرد اذا سئل عن هذه الشواذ النحوية أو اللغوية (١) وكذلك
أنصاره يجدون الأمثلة العديدة من الشعر القديم التي تبرر شذوذ صاحبهم - والمتنبى
بمن اشتغلوا بحفظ اللغة واستقصاء غريبها - روى ابن خلكان « ان الشيخ أبا علي الفارسي
صاحب « الايضاح والتكلمة » قال له يوما كم لنا من الجروع على وزن فعلى فقال المتنبى
في الحال حرجلي وخربي . قال الشيخ ابو علي فطالمت كتب اللغة ثلاث ليالي على ان
اجد هذين الجمين ثانيا فلم أجد »

يعيب المقدمة على المتأخرين استعمال بعض الفاظ لا يقصد منها الا حفظ الوزن
في البيت - ويصادف هذا التأليف في منظومات النحو والفقهاء - الا ان هذا « الترقيع » -
مثل « قد علم » و « فافهم » قديفتفر في (الرملية) وغيرها من المتون العلمية المنظومة
ولكنه حشو مستنكر يحسب على صاحبه في الشعر الفني - من ذلك قول المتنبى في كافور

(١) وله معان شعرية جميلة مبنيّة على اصطلاحات لغوية أو نحوية كقوله
امضى ارادته ذ (سوف) له (قد) واستتقرب الأقصى ذ (ثم) له (هنا)
- حولي بكل مكان منهمو خلق تخطي اذا جئت في استفهامها : (من)
- من اقتضى بسوي الهندي حاجته أجاب كل سؤال عن (هل) : (لم)

ولو كنت أدري كم حياتي قسمتها وصيرت نائبيها انتظارك (فاعلم)
ولعل أنصار السرقة لا يقولون ان أبا الطيب سرق (فاعلم) هذه من الفية ابن

مالك ١٤١

وقد أكثر المتنبى من استعمال (ذا) بمعنى هذا . كقوله
أريد من زمي (ذا) ان يباغني ما ليس يباغني من نفسه الزمن
عن (ذا) الذي حرم اللبث كاله ينسى الفريسة خوفه بجباله
واذا طمى البحر المحيط فقل له دع (ذا) فانك عاجز عن حاله
الذوق البدوي الجاف : - حب أبي الطيب لبدو جعله يصور صوراً هي أشبه بشيء
بأقوال الجاهلين ولكنها في قصائد تغلب عليها رقة الحضارة وفيها من محسنات البدع
وسهولة التعبير ما يجعل للانتقال صدمة في ذهن السامع فكما انه يجيء بالكلمة الغريبة
في البيت السهل الالفاظ فانه يجيء بالآيات المستغربة المعنى أو التركيب أو الالفاظ
حيث لا ينتظر ورودها . انظر الى المطلع السهل الذي لعب فيه بالالفاظ وجاء فيه يديع
المتأخرين « صلة المهجر لي وهجر الوصال » . . . وفيها يقول

لاتلني فاني أعشق العشاق فيها يا أهدل العذال ؟

فانه يخاطب هذه الاقوال بمثل :

قف على الدمتين بالدو من ريت - ا كذل في وجنة جنب خال

بطلول كأنهم نجوم في عراض كأنهن ليالي

واؤي كأنهن عليهم - ن خدام خرص بسوق خدال

الى ان يقول

نحن ركب ملجن في زي ناس فوق طير لها شخوص الجبال

من بناب الجديل تمشي بنا في ال - بيد مشى الأيام في الآجال

هذا تأليف بين منزعين قل ان يسلم فيها الشاعر من الزلل . - ولكن هذه طريقة

لأبي الطيب وسنرى ما يشابهها عندما تتكلم على خلطه الفنون

انه يميل الى بعض الأفكار والتشابه والأساليب البدوية فيجئ في شعره بشيء

لا يوافق حالة الحضارة وآدابها وهو في ذلك أشبه بعلي بن الجهم حينما مدح الخليفة
(ان صحت القصة) بقوله

انت كالكلب في حفاظك للود وكالتيس في قراع الخطوب
ومن هذا القبيل -والشيء بالشيء يذكر- ما رواه لنا الاستاذ «ليمان» مدرّس مقارنة
اللغات السامية بالجامعة المصرية قل : « وأنا رأيت رجلا في الرحبة من العرب اسمه
د كلب الله » فضحكت لما سمعت هذا الاسم ولكن قالوا ان امه سمته بهذا الاسم
لكي يكون أمينا لله كما يكون الكلب أمينا لصاحبه »

ومثل هذه الأقوال ولو انها صادقة في ذاتها الا انها قدرة مستهجنة عند المتحضرين

قال المتنبي في وصف حيوانات الصيد

يصلحن للاضحك لا الاجلال لها لحي سود بلا سبال
لم تغز بالمسك ولا الغوالي كل ائبث نبتها متفال
ترضى من الأدهن (بالأبوال) ومن ذكي الطيب (بالدمال) (١)
وقال في المغلوبين - وما بين كاذبي المستغير كما بين كاذبي (البائل)

وقل في وصف البرد وتجمد الثلج في انطاكية

ما العروج الخضر والحدائق يشكو خلاها كثرة العوائق
اقام الثلج فيها كالمرافق يعقد فوق السن ريق (الباصق)
رمانى خسام الناس من صائب (استه) وآخر قطن من يديه الجنادل
خف الله واستر ذا الجمال يبرقع اذالحت (حاضت) (٢) في الخدور العوائق
منذ احتبيت بانطاكية اعتدلت حتى كأن ذوى الأوتار في همدن
ومد مررت على اطوادها «قرعت» من السجود فلا نبت على القنن
ورقة المتأدين لا ترضى بذكر الأبوال والدمال والبصاق والحيض والقرع مما
يجب ان يكفى عنه أو يعدل عنه الى غيره

(١) سبال : شوارب - متفال : خبيث الرائحة - الدمال : الزبل

(٢) هذ رواية أبي الفتح بن جني وفي رواية اخري (ذابت)

لأبي الطيب غلطات تعد من سوء التصرف في سياسة الكلام . ولكن مرجعها
على ما نظن الى ذلك الطبع البدوي الجاف الذي لم تستأصله رقة الحضارة .— عندما وفد
علي كافور اخذ يبيحث عن تهليل يحسن به السواد فأجاد في المرة الاولى حين قال
فجاءت بنا انسان حين زمانه وخات يياضا خلفها وآقيا

ولكنه بعد ذلك جاء بالمخجل من مثل قوله

يفضح الشمس كلما ذرت الشمس بشمس مفضة يشة سوداء

اتما الجلد طلس وايضاض النفس خير من ابيضاض القبا

من لبيض الملوك ان تبدل اللون بلون الاستاذ والسحناء ٢

فانعم وأكرم بهذه الشمس السوداء ولون الاستاذ والسحناء ١١ واغيب من هذا
واحق باللوم والمؤاخذه ذكره استهالة قلوب النساء في هذه القصيدة مع العلم بأن كافورا
كان خصيا قل

انما يفخر الكريم ابو المسك بما يتني من العلياء

لا بما تبتى الحواضر في الر يف وما يطبى قلوب النساء

فكان الاولى به ان يسكت عن كل ما يشير الي عيب صاحبه ولونه

قل يقارن بين سيف الدولة وكافور بعد أن فارق مصر

وما لافني بلد بعدكم ولا اعتضت من رب لعمري رب

ومن ركب (الثور) بعد (الجوا د) انكر اظلاله والغيب

فقد شبه الملوك بالطايا وركبهم ١١ - وفي رثاء النساء لا يتعاشى من ذكر الجمال والدلال

صلاة الله خالقنا حنوط على الوجه المكفن بالجمال

اتهن المصيبة غافلات فدمع الحزن في دمع الدلال

وهن مثل هذا قال الخوارزمي : « لو عزاني انسان في حرمة لي بمثل هذا لأطلقته

بها وضربت عنقه على قبرها » (١)

مثال آخر - سوء دفاعه عن نفسه في مجلس سيف الدولة كقوله :
« ويكره الله ما تأتون والكرم » - ويقول ابن رشيقي عن هذه القصيدة « كلام في ذاته
نهاية في الجودة غير انه من جهة الواجب والسياسة غاية في الرداءة . . . وليس هذا
هتافاً ولكنه سباب » (١)



الصناعات المعنوية

الجمع بين الاضداد - المقابلات والمكسيات -

يروى ان سيف الدولة اعترض على بيتي المتنبي :

وقفت وما في الموت شك لواقف كأنك في جنن الردى وهو نائم
تمر بك الأبطال كلهم هزيمة ووجهك وضاء وثورك باسم
بأن الأصح ان يكون الشطران الثانيان من البيتين الواحد مكان الآخر . فكان
جواب المتنبي انه اراد أن يجمع بين الاضداد (٢)

فحشق أبى الطيب . للجمع بين الاضداد قد أداه الي نوعين من التأليف . الجمع
بين اللفظ وضده والجمع بين المعنى وضده . ولا ينبغي ان ننسى ان شاعرنا هو صاحب
القول المشهور « وبضدها تبين الاشياء »

الألفاظ : المقابلات - اذا قل ايض فلا بد ان يتبعه بأسود واذا قل جنة فهو

لا محالة مردفها بجهنم حتى لكان هذه المقابلة فرض حتم يأثم اذا تركها .

(قاليل) حين (قدمت) فيها (ايض) (والصبح) منذ (رحلت) عنها (أسود)

وخفوق قلب لو رأيت لهيبه - يا « جنتي » لرأيت فيه « جهنما »

أبدأ « نسرده » ما « تهب » الدنيا فياليت « جودها » كان « بخلا »

واذا اتتك مدهق من « ناقص » فهي الشهادة لي بأنى « كامل »

(١) العمدة ص ١٣٣ ح ٢

(٢) راجع هذه المناقشة الطريفة في الصبح المبني ص ٦١ - ٦٣ ح ١

سبحان خالق نفسى كيف «لذتها» فيما النفوس تراه غاية «الآلم»
كان الحزن مشغوف بقاى فساعة «هجرها» يجدد الوصلاء
والمتنبي يسير أحيانا على طريقته هذه في كل مفردات البيت
(أزورهم) (وسواد) (الليل) (يشغلى) (ونثنى) (وياض) (الصبح) (يفرى بي)
- فما ترزق الأقدار ما انت حارم ولا تحرم الأقدار ما انت رازق
ولا تفتق الأيام ما انت راتق ولا ترتق الأيام ما انت فاتق
المعاني . العكسيات - بجىء الشاعر بالمعنى المعروف المتداول ثم يتبعه بمعنى ضده
وأحيانا بجىء بالمعنى على عكس ما هو معروف عند الناس : المشهور أن الرأس أشرف
اعضاء الآسان ولكنه يعطى هذه المكانة للأقدام

خير أعضائنا الرؤس ولكن فضائها بقصدك الأقدام
أمثلة أخرى قتلت نفوس العدى بالحد يدحتي قتلت بين الحديد
ياذا الذى يهب الكثير وعنده أنى عليه بأخذ - أنه أنصدق
- اذا ترحلت عن قوم قد قدروا ان لانفارقهم فالراحلون هم
- فى جهنم ستم العيون غباره فكأنما يبصرن بالآذان
- فوق السماء وفوق ما طلبوا فاذا أرادوا غاية نزلوا
وتقول هنا أيضا ألا يجوز ان يكون أبو الطيب قد اكتسب طريقة «العكسيات»
من ابن الرومى صاحب القول المجوف المشهور

يستغفر الناس بأيديهم وهن يستغفرن بالأرجل
فياله من عمل صالح ا يرفعه الله الي أسفل

خاط الفنون (الافتنان)

في عام البديع باب يسمى « الافتنان » موضوعه الجمع بين فنين مختلفين كالتهنئة
والتعزية . وأبو الطيب يكثر من الجمع بين الفنون المتنافرة وقد استطاع في فلسفته أن
يجىء بحسنات نادرة بفضل التوفيق بين الأغراض المختلفة والمعاني المتنافرة وفي البيت

الواحد ترى الشطرة الاولى من كلام المجاز والثانية من كلام الزهاد
وقد فضلت ان اسمي هذا النوع من التأليف بمخاطب القنون لما في الخطاب من معنى
الاضطراب والخروج عن النظام المؤلف . فقد يجي . شاعرنا في موضع الهول والعبرة
وهو موقف الموت في الرثاء ويذكر جمال النساء المتفجعات كقوله في رثاء ابن سيف الدولة
تركت حدود الغايات وفوقها دموع يذبن الحسن في الأعين النجل
وفي رثاء أم سيف الدولة

وأبرزت الخدود مخبات بضم النقس أمكنة الغوالي
أتتهن المصائب غافلات فدمع الحزن في دمع الدلال
وهذا جميل في الوصف وتصوير الحزن وهو يدهام المترفات في قصور الملوك -
أبو الطيب لا يقف في دائرة موضوعه بل تراه يتنقل من رأي الى رأي ومن فكرة الي
أخرى ربه - لا يكون بينهما أي اتصال . نراه يهجو ويذكر السوات ويخمش وجه
الأدب بل يريق ماء الحياء ثم ينتقل دفعة واحدة الى الفضائل والحكم ومكارم الاخلاق
والعكس بالعكس ويتخلل ذلك شيء من الوصف لا تدري كيف يجي به عرضا - ولعل
نجاح المتنبي كان من هذا التنقل الذي يربح السامع بتدويم المباحث - ولعل فضائل هذا
العيب هي التي حققت قوله « ربما صحت الأجساد بالعلل »

الصناعات اللفظية

ترك الجناس والتورية . يقول الاستاذ الاسكندري عن المتنبي « ولكنه طرح
الجناس والتورية الشائعين في زمانه جانبا » (١) - الا انه يميل نوعا ما الى الجناس
الناقص أو المقلوب في مثل قوله

ولا يزغ (الطرف) عن مقدم ولا يرجع (الطرف) عن هائل
- أسائلها عن التدبيرها فلا (تدرى) ولا (تدرى) دموعا
- (منعمة) (منعمة) رداح يكاف لفظها الطير الوقوعا

— يرد بدأً عن ثوبها وهو (قادر) و بمعنى الهوى عن طيفها هو (راقد)
— ولا أقيم على مال (اذل) به ولا (الذ) بما عرضى به درن
وله جناح تام في قوله

لولا العقول لكان (أدنى) ضيغ (أدنى) الى شرف من الانسان
أما التورية في شعرة فهي أقل من القليل . من ذلك
ينادر ككل ملتفت اليه ولبنه (ثعلبه) (وجار) (١)

وأظهر من هذا قوله في رثاء التوخي

وحفيف أجنحة الملائك حوله وهيون أهل (اللاذقية) (صور) (٢)

وانى لأقصد بالأمثلة المتقدمة معارضة رأى الاستاذ فانه رأى وجهه خصوصاً وان
الامثلة قليلة بل نادرة وانما جئت بها مؤيداً لفكرة التي قدمتها في صدر هذا الباب وهي
ان الشاعر مهما استقلت طريقته وقويت شخصيته لا يستطيع ان يتخلى عن الذوق
الشائع في زمانه ولا ان يخرج عن مألوف أهل عصره

مناسبات الأسماء والالفاظ (التجنيس) . قال الامام الكبير عبد القاهر
الجرجاني في كتابه « أسرار البلاغة » عندما تكلم عن السجع والتجنيس ان أبا تمام قد
« أسلم نفسه لتكلف ويرى انه ان مر على اسم موضع يحتاج الي ذكره أو يتصل بقصة
يذكرها في شعره من دون ان يشتق منه تجنيساً أو يعمل فيه بديماً فقد باء بأثم وأخل
بفرض حتم (٣) » — وهذا يشمل ما يسميه المتأخرون مراعاة المنظير أو ذكر الشيء
وما يناسبه — ولعل أبا الطيب قد اتخذ هذه الطريقة عن امامه . فقد كان يلب بالالفاظ
بل بحروف الالفاظ وذلك مما يدل على تعلق شاعرنا بالاختراعات اللفظية أو بسعيه
وراء المعاني بعد ان يتمكن الالفاظ من ذهنه ويتخذ له فيه مقراً أميناً . يقول الكافور

(١) الوجار: بيت الثعلب. — ولكن المقصود من الثعلب هنا ما يدخل من

الرمح في السنان

(٢) اللاذقية وصور: من مدن الشام. — ولكن تصور هنا جمع أصور أى مائل

(٣) ص ١٠ طبعة الترقى سنة ١٣١٩ — ١٣٢٠

جرى الخلف الافيك انت واحد وانك ليث والملك ذئاب
وانك ان قوينت صحف قارىء ذئاب ولم يخطيء فقال ذباب

وقال في أبي شجاع

تلك الحمد حتى ما لفتخر في الحمد (حاء) ولا (ميم) ولا (دال)

وقال في سيف الدولة

ان تدع « ياسيف ! » لتسعينه يبيك قبل ان تم (سينه)

وامكن البحث عن المعنى الذى يليق باللفظ قد يعي الباحث وربما أوقعه في الخطأ

وهذا ما أفسد المعنى على المتنبي في قصيدته التى مدح بها « المعجلى » :

(دمع جرى فقضى فى الربع ما وجبى) - فنه ما زال فى اثر اللفظ حتى جعل

المدوح عجلاً أو كاد

هند ما كان فى حاشية سيف الدولة جعل لفظ « سيف » مصرف جهده وجرى

وراء كل معنى يؤديه فجاء « بالعجب العاجب والسحر » ناهيك بهذا اللفظ الذى وافق

ما فى طبعه من الشدة فضلاً عما يختلج فى قلبه من الأمانى التى لا تتحقق الا باهراق

الدماء فمن ذلك قوله

ولكن سيف الدولة اليوم واحد

ومن عادة الاحسان والصفح غامد

وانك منها ؛ ساء ما تنوم

من التيه فى اغمارها تبسم

الى اختلافهما فى الخلق والعمل

أعد هذا لرأس الفارس البطل

ما يصنع الصمصام بالصمصام؛

وأنت لواء الله والله عاقده

فلا الحمد مخنيبه ولا الضرب ثأله

وفى كنف جبار السماوات قائمه

فلا تعجبا ان السيوف كثيرة

له من كريم الطبع فى الحرب متضد

- أنحسب بيض الهند أصلاك أصلها

اذا نحن سميناك خانا سيوفنا

- انظر اذا اجتمع السيفان فى رهج

هذا المعد لربب الدهر منصلتنا

- عيب عليك ترى بسيف فى الوغى

- فأت حسام الله والله ضارب

- لقد سل سيف الدولة الحمد معلما

على عاتق الملك الأغر نجاده

وفي مطلع احدى قصائده

لكل امرىء من دهره ماتعودا وعادة سيف الدولة الطعن في العدي

وفي مطلع قصيدة اخرى يستعطف سيف الدولة

الا ما لسيف الدولة اليوم عابا؟ فزاه الوريء امضى السيوف مطاربا

وفي تمزيته في ابنة

عزائك سيف الدولة المقتدي به فانك نصل والشدائد لانصل

مقيم من الهجاء في كل منزل كأنك من كل الصوارم في أهل

وقال وهو يسايره وقد اشتد المطر

لعيني كل يوم منك حظ تحير منك في أمر عجاب

حمة ذا الحسام على حسام وموقع ذا السحاب على سحاب

وفي الديوان قطعة عنوانها: « وروي الثعالي في ينيمة الدهر ما افتتح سيف

الدولة الشام وهزم عساكر الاخشيد محمد بن طنج عن صفين » - واسم سيف

الدولة على والموقعة في صفين حيث جرت حرب الاميرين الكبيرين علي ومعاوية

رضي الله عنهما - وهذا ما يؤيد ان ابا الطيب يجتهد في ان يبحث للفظ على معني يناسبه

باسيف دولة ذي الجلال ومن له خير الخلائق والانام بمي

او ماترى « صفين » حين اتيتها فانجاب عنها العسكر العربي

فكانه جيش « ابن حرب » رعه حتى كأنك يا على « على »

ولما قدم علي كافر بمصر اتخذ كنية ابي المسك ذريعة المدح ولكنه لم يوفق

في كلمة « مسك » بقدر ما وفق في كلمة « سيف »

وقد اُتِرق من المسك الى ذكر صفاته وملحقاته من طيب وارج وروح . قل

« ابا كل طيب » لا ابا المسك وحده ! وكل سحاب لا اخص الفواديا !

انما يفخر الكريم ابو المسك بما يتني من العلياء

وبمسك يكني به ليس بالمسك وانكته ارج الثباء

لا ينكر الحسن من دار تكون بها لأن زيمك روح من معانيها
ولما غضب عليه حول هذا الكنية وجعلها « ابا النتن » فقال :
انا النتن قد قبديني بمواعد مخافة نظم للفؤاد مروع
اما كلمة كافور فقد وجد منها كلمة « كفر » فاستخدمها في المدح عند ذكر المطايا
وكيف اكفر يا كافور همتها وقد بلغتك بي يا كل مطلوبي
وكذلك اتخذ كلمة « كفر » محورا يدبر حوله اهاجيه في كافور فقال
واكفر يا كافور حين تلوح لي ففارت مذ فرقك الشرك والكفرا
وقال في بدر بن عمار

انت تقيض اسمه اذا اختلفت قواضب الهند والقنا الذبل
انت اعمرى (بدر) المير ولكنك في حوبة زغى (زحل)
وقال في علي بن منصور الحجب
في رتبة « حجب » الوري عن نيلها و « علا » فسموه « علي الحاجبا »
وعن مدينة تدمر

وليس بغير « تدمر » مستغث وتدمر كاسمها لهم « دمار »
وفي عضد الدولة ابن ركن الدولة

يا عضدا ربه به العاضد وساريا يبعث القطا الهاجد
لبت ثمانى الذى اصوغ فرا من صيغ فيه فانه خالد
لويته « دماجبا » على « عضد » لدولة ركنها له والد
وقال في صباه بهجو القاضى الذهبي

لما نسبت فكنت ابنا لغير اب ثم امتحنت فلم ترجع الى ادب
سميت بالذهبي اليوم نسبية مشتقة من ذهاب العقل لا الذهب
فالصناعة هنا صناعة لفظية واشتق كلمات . وقال :

لاعبتُ بالخاتم انسانة كمثل بدر في الدجي الناجم
وكلما حاولت اخذى له من البنان المترف الناعم

القتة في فيها فقلت انظروا قد أخفت الخاتم في الخاتم
فالمعني الذي دارت عليه المداعبة انما هو معنى لفظي مني على كلمة ختم وبه
اختم هذا الكتاب - على طريقة ابي الطيب في التجنيس ا -



(وبعد) فقد طال بنا السفر وأن لنا أن ناتي عصا الترحال ، حافظين في انفسنا
أحسن الذكرى عن خيال من هذه الخيالات الفانية التي أحيانا ذكرها الخالد ود ذكر
الفتى عمره الثاني « كما يقول ذلك الشبح الذي أقامناه كثيرا في هجته وأزعجناه من
رقدته : عفا الله عنا وعنه وتولانا واياهم برحمته . آمين
والحمد لله
أولاً وآخراً

